
عبد الرحمن منيف
ة مدينة
Bibliotheca Alexandrina
01334260



سيرة مدينة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع: عمان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الأولى

١٩٩٤

عبد الرحمن منيف

سيرة مدينة

عمان في الأربعينات



المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

كلمات اولى

هذا الكتاب عبارة عن سيرة لمدينة ، هي عمان ، وليس سيرة ذاتية لكاتبه، وإن تقاطعت السيرتان ، بسرعة وجزئياً ، في بعض المحطات.

كما انه ليس رواية ، لأن الخيال فيه محدود ، وإن استعار من الرواية بعض ادواتها ، كطريقة العرض والبناء.

انه كتاب يحاول ان يستعيد ملامح مكان في زمن معين ، اعتماداً على الذاكرة والذاكرة ، مهما حاول الانسان الدقة والامانة ، خداعة ، شديدة المكر ، لأنها تقول الاشياء التي تعنيها ، ما تعتبره اكثر اهمية، ضمن مقاييسها الخاصة لذلك فإن بعض الوقائع الواردة ربما لم تحصل بهذا الشكل تماماً، لكن هكذا بدت لمن رآها، او هكذا استقرت في الذاكرة، دون ان تكون هناك اية نيّة او رغبة بتحويرها، او اعادة تشكيلها ضمن نسق مختلف

هذا اولاً ، وثانياً: لا يدعي هذا الكتاب انه «تأريخ» لعمان بالوقائع والارقام،إذ لم يعتمد على المراجع والمصادر ، ليس استهانة بها ، وإنما ارتأى قراءة اخرى، موازية، من خلال عيني انسان عاش ذاك الزمن في ذلك المكان، وافترض، بالتالي ان من المفيد ان «يقول»: كيف رأى الاشياء، كيف عرفها او تعرف عليها ، دون مقارنتها مع المراجع والمصادر والارقام ، باعتبار ان هذه القراءة تتيح امكانية جديدة للكشف والاكتشاف ، ومن ثم لاعادة ترتيب الاحداث والوقائع بطريقة مختلفة، قد تساعد على رؤية اضافية.

ان المكان، في حالات كثيرة، ليس حيزاً جغرافياً فقط ، فهو ايضاً البشر،والبشر في زمن معين. وهكذا نكتشف علاقة جدلية بين عناصر متعددة،متشابكة ومتفاعلة . فالمكان يكتسب ملامحه من خلال البشر ، الذين عاشوا فيه والبشر هم تلخيص للزمن الذي كان ، وفي مكان محدد بالذات،وبالتالي فقد اكتسب الناس ملامح وصفات ما كانوا ليكتسبوها لولا هذه الشروط . وحين اصبحت لهم هذه الصفات أثروا في المكان والزمان ، كما تأثروا بهما ، مما ينعكس ، في النتيجة ، في اعطاء الاماكن والازمنة ملامحها ، كما ان

تلك الامكنة ، وتلك الازمان ، ستؤثر بدورها في ان يكون ناسها بهذا الشكل،وحين يكون الناس هكذا، فإنهم يؤثرون فيما حولهم ويتأثرون.

وحديث الانسان عن المدينة التي تعني له شيئاً خاصاً، بمقدار مايبدو ممكناً فإنه شديد الوعورة، وبعض الأحيان عصي، لأن السؤال الذي يطرح نفسه: أي شيء يمكن أن يقال، وأي شيء يترك؟ وهذا الذي قيل، وذاك الذي تم تجاوزه، أهو مايجب أن يدوّن ويبقى، أم أن ما ترك كان الأجدر بالتدوين، ومن ثم بالبقاء؟

ليس ذلك فقط، إن الكتابة عن مدينة الماضي التي يحبها الانسان تحول هذه المدينة إلى كلمات، والكلمات ذاتها، مهما كانت بارعة، زلقة، خطرة، ماكرة، وغالباً لاتتعدى أن تكون ظلالاً باهتة لحياة، أو في أحسن الحالات ملامسة لها من الخارج، أو مجرد اقتراب، علماً بأن الحياة ذاتها كانت أغنى، أكثر كثافة، ومليئة بالتفاصيل التي يصعب استعادتها مرة أخرى.

ثم ماهو المقياس الذي يجب أن يُعتمد في الاختيار؟ ماهي أهمية الأشياء التي تقال وتلك التي تم تجاوزها؟ ولمن؟

والمدينة، أية مدينة، هل لها صورة واحدة يراها الجميع بنفس الطريقة؟

ثم.. هل إن المدينة مجرد أماكن وأشياء وأسماء، وحتى بشر؟ وكل هذه، هل هي في حالة ثبات أم تتغير في كل لحظة، كما يعاد تشكيلها في الذاكرة مرة بعد مرة، خاصة والزمن يمضي، وتتدخل أسباب وعوامل كثيرة ومؤثرة؟

وهل من حق الكاتب أن يجبر الآخرين على رؤية الأماكن والبشر كما رآهم هو، أو كما أحب أن يراهم؟ وهل كان هؤلاء هكذا فعلاً، أم أن العواطف والمسافات غيرت في الأشكال والأحجام، وغيرت في المواقع أيضاً، تبعاً لما يعتمل في العقل والقلب؟

والكتابة، خاصة من هذا النوع، عن الأماكن والبشر، ألا تعتبر بشكل ما،بنسبة ما، انحيازاً يبعدها عن الموضوعية؟ وألا يعتبر الكاتب صاحب هوى أو غرض، وربما حالماً أو واهماً، وهو ينتقي، وهو يعطي الصفات؟

وإذا كان من الممكن التسامح مع الأماكن، باعتبارها محايدة ـ هل هي كذلك فعلاً؟ وقد تشي بها أمور كثيرة، وربما يستطاع اعادة تصويرها أو تركيبها بأقل قدر من التحريف، فماذا عن البشر الذين لايتوقفون لحظة واحدة عن التغير؟

فلو افترضنا، جدلاً، أن من السهل وصف جبل أو نهر، قلعة أو جسر، فكيف

الحال بالنسبة للبشر، وهم في حركة دائمة وتغير مستمر؟ والحركة والتغير كيف ننظر إليهما، من أية زاوية، في أي وقت، وبأية عواطف ومن أية مسافة؟ وماذا إذا قلنا شيئاً اليوم وقلنا شيئاً آخر غداً عن هؤلاء الناس، هل فيما نقوله تجنٍ أو قسوة،باعتبار أن عواطفنا هي التي تملي وتتكلم؟

ومانسجله.. هل هو حكم قيمة أم تصوير لإنسان في لحظة معينة، في حالة معينة، وبالتالي لاينفي أن يكون غير ذلك، أو أكثر من ذلك، في حالات أخرى؟

حين تتداخل الصور وتتزاحم يصعب على الانسان أن يختار، وأن يكون متأكداً، ويصعب أكثر من ذلك أن يكون بلا عواطف أو غير منحاز، لذلك لابد لمن يقرأ أن يكون حذراً ، وقد يكون مطلوب منه أن يعيد تشكيل المشهد ضمن قناعاته ومعرفته والتجارب التي عاشها !.

أغلب ماتقدم أسباب أحاول أن اقنع نفسي بها، قبل أن أقنع الآخرين، لكي أدفع هذه الصفحات وترى النور!

لقد ترددت كثيراً في التعامل مع مادة هذا الكتاب، لأن من أصعب المواقف أن يكون الانسان شاهداً، وأن يكون مطمئناً.

ليس ذلك فقط، من الأمور الصعبة، أيضاً، لكاتب تعود كتابة الرواية الا يترك مساحة للخيال، أو أن يتعامل مع الأشياء المكتملة الناجزة، لأن الكتابة، بالنسبة لي، وهكذا أمارسها، اكتشاف مستمر، وبحث لايتحدد ولايتجسد إلا بالكتابة ذاتها. أو بكلمات أخرى، لم الجأ، بعد، إلى كتابة شيء أعرفه معرفة تامة، أو وقع بالفعل، إذ بمقدار مايبدو هذا ناجزاً، كاملاً، واضحاً، فإنه بالنسبة لي عصي وغير مغرٍ، ولذلك يجب الا أكتبه، أو على الأقل يجب الا اكتبه الآن.

هكذا اضطررت، مرة بعد أخرى، لتأجيل الكتابة عن عمان، على أمل ان يأتي وقت أكثر ملاءمة، لكن هذا الوقت قد لايأتي، فالحياة الطائشة، الشديدة الغدر،تسرق الأشياء الجميلة، تسرق الأماكن والبشر، كما تقرض الوقت،هذا السلاح الذي نحاول بواسطته أن نقاوم، لكن هو ذاته يتسرب، يتفتت ويتلاشى،ولايبقى سوى الذكرى، ذكرى الأيام التي مرت. والذكرى بمقدار ماهي حارس يحمي الروح، فإنها الداء الذي ينخرها، بما يخلّفه من لوعة، والتي تزيد يوماً بعد آخر!

إذا استبدت الذكرى بالانسان تخضه وتغيره، يصبح أسيراً لحالة لايقوى على مقاومتها، ويصعب عليه الاستسلام لها، لأنها بمقدار ماتبدو، في لحظات

معينة، جميلة، فإنها موجعة، خاصة وهي تحمل معها هذا الكم الكبير من الشجن على أيام كانت ثم مضت إلى الأبد، كما تجرّ معها أشياء يفترض الانسان أنها انتهت،وأنه تجاوزها، لكن وهي تعود هكذا حاملة معها الأصوات والاشارات وروائح الأمكنة والأجساد والكلمات، يولد من جديد الحنين المجبول بالأسى والرغبة في أن تعود الأشياء كما كانت في يوم من الأيام.

إن الذكرى، مهما كانت الصفة التي نعطيها لها، حالة تجعل الانسان، أي انسان، أقرب إلى الاستسلام، ومسكوناً بالماضي وناسه. فإذا كان فاعلاً في لحظة وقوع الحدث، وله موقف منه، أياً كان هذا الموقف، فإنه، وهو يستعيده، يصبح ضعيفاً، مسلوب القدرة، كما تصبح هذه الذكرى ماضياً، ولذلك فإن ثقل الزمن، ومراراته، يهبطان عليه من جديد كما يهبط الليل.

وإذا كانت الذكريات تعني صاحبها بالدرجة الأولى، وقد لاتعني الآخرين،فلماذا يراد الآن توريط هؤلاء الآخرين؟ لماذا يراد اعادة تمثيل المشهد بعد أن أسدل الستار وانفض المتفرجون؟

التاريخ؟ اعادة رسم الأمكنة والأزمان التي مرت؟ تعزيز ذاكرة الأجيال الجديدة؟

إن أية اجابة تحمل مقداراً من المبالغة. فالشيء العزيز، أو الهام، في إطار استعادة الماضي، نسبي، وفي بعض الحالات خداع. لأن العزيز أو الهام مرتبط بمجموعة من الشروط التي كونته، أو أعطته هذه المنزلة، كما أن تحريكه من موقعه، أو تغيير شروطه، ينتقص منه ولايضيف إليه، وبالتالي يصبح الكثير مما يقال تعبيراً عن رغبة أو عن وهم، وربما شكلاً من أشكال التواطؤ، خاصة حين ندعي أن «الحقيقة» أخذت هذه الصورة وحدها.

لذلك فإن معظم مافي هذا الكتاب مادة أولية، ومن حق الكثيرين أن تكون لهم وجهات نظر مختلفة كلياً أو جزئياً، وهذا ماجعلني أغامر بتدوين بعض مابقي في الذاكرة، ومحاولة تحريض الآخرين على أن يدلوا بشهاداتهم.

كلمات أخيرة يجب أن تقال:

بعد غياب دام سبعةً وثلاثين عاماً عن عمان، عدت إليها، بدعوة من مؤسسة شومان عام ١٩٩٢، ولقد أصرّ الصديق الدكتور أسعد عبد الرحمن أن يكون موضوع حديثي إلى الجمهور: "عمان في الأربعينات"، باعتبار أنني عشت ذلك العقد في تلك المدينة.

كان هذا الحديث بداية "تورطي"، خاصة وإنني قطعت وعداً أن أكتب وفاءً لدين عليّ لهذه المدينة، ثم جاءت دعوة الجامعة الأردنية بالتعاون مع المركز الفرنسي للابحاث Ceramoc، وطلب اليّ مدير هذا المركز، المسيو جان أنوييه، المشاركة في ندوة عن «عمان ـ المدينة والمجتمع»، فكانت ورقة «عمان مدينة المياه».

لقد حاولت، في هذا الكتاب، أن أختار، وأن أتوقف عند بعض الملامح والمحطات، وأعرف سلفاً أن ماتركته أكثر مما دونته، وهذا ماأستطيعه الآن! مع الاشارة إنني، وحدي، المسؤول عن الخطأ والسهو، وقد تتاح الفرصة مستقبلاً لاستدراك الكثير مما فات، خاصة إذا ساعد الآخرون في التنبيه واسعاف الذاكرة.

دمشق أوائل نيسان ١٩٩٤

١

اول صورة تثب للذاكرة عن عمان البلدة – المدينة يوم مقتل الملك غازي .

قبل هذا اليوم لم تكن حدود البلدة ، كما يراها الاطفال ، تتعدى الاحياء التي يسكنون فيها ، فإذا تجاوزوها فإلى امكنة قريبة ، وبصحبة الكبار.

والحياة قبل هذا اليوم ، عادية ، بطيئة ، كأن العالم يبدأ وينتهي داخل كل حيّ او عند تخومه.

أما في ذلك الضحى الربيعي فقد هبط ، بشكل مفاجىء ، صمت ثقيل اعقبه ترقب خائف بعد ان قيل : قُتل الملك غازي!

من الذي قتله ؟ كيف قتل ؟ لا احد يعرف ركض الناس بخوف يشوبه الحزن،تجاوزوا الحيّ دون تردد . وبهمس ، وباشارات سريعة ، اقرب الى التواطؤ، اتجهوا الى امكنة بعيدة ، الى حيث يجب ان يكونوا.

حين خلا الشارع من الناس، وخيّم الصمت، لم يجد الصغير سوى معاذ شقير، الذي كان في مثل عمره، وكانا متجاورين. كان معاذ، أيضاً، مرتبكاً أقرب إلى الخوف، وكانت عيناه تتساءلان: لماذا ذهب الناس؟ أين ذهبوا؟

بطريقة غامضة اكتشفا، ربما لأول مرة، أن هناك عالماً يتجاوز الحيّ الذي يسكنان فيه، وأن الناس الذين يعرفونهم، والذين لايعرفونهم، ذهبوا جميعاً إلى هناك،وكان لابد أن يفعلا مثل الآخرين، فذهبا.

إذن الأمكنة الأخرى ليست بعيدة، والناس هناك ليسوا غرباء!

في وقت سابق افترض الصغير، بشكل سرّي، أن هناك أشياء تعنيه وحده، ولا تعني أطفال الحيّ. فأن تكون أمه من بغداد، وأن تتكلم جدته بلهجتها البغدادية دون حرج، بل وتستغرب الا تكون مفهومة، وتعجب أكثر من ذلك أن لايتكلم

الآخرون مثلها، في الوقت الذي تحاول أمه، وتجهد نفسها، لكي تتكلم بطريقة الجارات، فتنجح مرة، وتفشل مرة، وكان هذا مثار خوف الجدة واستغرابها وتساؤلاتها ... هذه الأمور، وأخرى غيرها، كانت تعنيه وحده، بما في ذلك بغداد والملك. أما الآن، والملك يموت أو يقتل، فيتبين أن الأمر يعني الآخرين بنفس المقدار

في الأيام الماضية، ولتأكيد الصلة ببغداد، خاصة أثناء مجيء النسوة لزيارة أمه،كان ابريق الشاي، الذي تزينه صورة الملك، يُنزل من خزانة الحائط، وكانت تردد الجدة كلمتين غريبتين: "الخرستانة" مشيرة إلى الخزانة، "والرسم" تعبيراً عن الصورة التي تزين الابريق. لم تكن تكتفي بذلك، كانت تؤكد أن هذا "الرسم" لغازي، ويختلف عن "رسم" فيصل، الذي كان مصوراً على الابريق القديم!

الآن ، وبعد أن هبط الصمت الثقيل على الحيّ، بسبب مقتل غازي، يكتشف الصغير أنه لم يكن وحيداً، أو معزولاً عن الناس أو الأحياء الأخرى، وأن ماحصل يعني الكثيرين، يعني الجميع، رغم أنهم لايملكون أباريق تحمل رسم الملك القتيل،ولايتكلمون مثل جدته.

هذه هي المرة الأولى التي يعرف فيها امتداد الحيّ واتساعه، كمكان وكبشر، وأنه يتجاوز بيت أبو شام والحجة أنيسة، وبيوت الحيّ القائمة في ذلك المنحنى الموازي لشارع فيصل. وأن بغداد بمقدار بعدها كمكان ولهجة، فإنها شديدة القرب في نفس الوقت.

هذا هو إذن اول اكتشاف حقيقي للمدينة، وصدف أنه ترافق واصطدم بالموت!

بوجل الأرانب يتجاوز الصغيران الشارع غير المعبد، وينزلقان إلى شارع الملك فيصل، وخلال فترة قصيرة يجدان أنهما أصبحا وسط الجموع.

كان الناس يحملون نعشاً ملفوفاً بعلم، ويسيرون في الشارع العريض. أصوات متداخلة لايمكن تمييزها أو فرزها، وهي أقرب إلى الهمهمة القاسية المليئة بالحزن والغضب، مع موسيقى لايُعرف من أين تأتي، وتختلف عن أية موسيقى أخرى،وتظل هكذا إلى أن يقطعها بكاء حاد موجوع يرتفع ويعلو فوق جميع الأصوات، فيستثير حزناً اضافياً لايلبث أن يتحول إلى نحيب.

يتطلع الصغار إلى كل شيء بخوف. يستغربون أن يبكي الرجال. تتزاحم الأسئلة. وحين يُعرف أن النعش المحمول فارغ تتكاثر الاجابات: "جاءت الملائكة وحملت الميت إلى السماء" "الشهداء يُقتلون ولكنهم لايموتون" "تحول الملك القتيل

إلى طائر". وترتفع الرؤوس بحثاً عن الملائكة، أو عن ذلك الطائر، وحين لايُرى أياً منهما يتطلع الصغار إلى النعش البعيد. كان يبدو، فعلاً، كأنه طير كبير، أو مثل زورق، بحركته المتموجة المضطربة، وهو يتنقل على راحات الأيدي. وحين تتعالى أصوات النحيب والغضب من شرفات شارع الرضا، وكان النعش قد وصل إلى هناك، تسيطر الرهبة وينتشر البكاء عالياً، ولايخففه إلا الصوت الحازم الرتيب الذي يعلو على جميع الأصوات: لاإله إلا الله والشهيد حبيب الله.

يندفع الناس بثقل، يترافق بحزن قهار. يمتلئ الجو بالرهبة أكثر من قبل، وتسيطر رائحة الموت فوق جميع الرؤوس. يبكي الصغار بخوف، وتبدو لهم استحالة العودة إلى بيوتهم سالمين. إنها المرة الأولى التي يذهبون إلى أمكنة بعيدة عن الحيّ بمفردهم، لذلك تبدو هذه الأمكنة غريبة قاسية، ولايعرفون إن كانوا رأوها سابقاً مع الكبار، وهل سيعودون أم سيتلقفهم الموت.

سوف يمرض الصغير بعد أيام، وستؤكد الجدة أن السبب الحقيقي لهذا المرض "إن الولد اخترع وحصر"، لكن الحاجة انيسة تتدخل في الوقت المناسب وبحزم : "المسألة لاعلاقة لها بالخوف، الولد مريض بالحصبة". وسوف يدّثر الصغير بأغطية صوفية ثقيلة، يغلب عليها اللون الأحمر، وسيغرق بالحمى والهذيان في ذلك الربيع الدبق العابق، والحزين ايضاً، وسيقال، لاحقاً، أن الصدفة وحدها، وتدخل الحاجة انيسة، كانا السبب في إنقاذ الصغير من موت أكيد، وسوف يذبح ديك بمناسبة شفائه!

لم تكن الحاجة أنيسة قابلة الحيّ، واحياء كثيرة في عمان، فقط، كانت تساهم بالتطبيب ايضاً، لكنها لاتفعل ذلك إلا في حدود ضيقة، وحين تكون متاكدة. اما إذا ساورها الشك، او رات ان الحالة دقيقة او خطرة، فتطلب أن يتدخل احد طبيبين: الدكتور ملحس او الدكتور سوران.

لقد ساهمت الحاجة انيسة باستقبال المئات من أطفال عمان في فترة الثلاثينات ومابعدها. كانت امراة رضية طيبة، وجهها مليء بالضحك، لها ولدان: معاوية ومعاذ ـ معاوية، الكبير، أخرس، شديد الرغبة بمساعدة الآخرين، مسالم، إلا حين يغضب، إذ يتحول إلى انسان شرس لايتردد في أن يضرب ويكسر دون أن يقيم للنتائج اي حساب!

قبل أن تنتهي الأربعينات سوف يصبح معاوية خياطاً بارعاً. اما معاذ، وبعد انتقال الصغير من الحيّ، ثم من المدرسة العبدلية، فسوف تنقطع اخباره في خضم هذه الحياة التي لاتترك للكثيرين فرصة التقاط الأنفاس.

أم الطاهر، والدة الحاجة أنيسة، جدة الحيّ كله، هكذا يناديها الكثيرون، حتى الكبار. كانت تطيل الجلوس إلى جانب النافذة، في الطابق الثاني، ترقب كل شيء يجري في الحيّ، وكان يُسمع صوتها، بعض الأحيان، بلهجتها النابلسية الغميقة،محذراً طفلاً إذا قسا على آخر، أو إذا تلفظ بكلمة نابية!

كان الطبيبان اللذان توصي الحاجة أنيسة بمراجعتهما، في حالات الضرورة، يقيمان بعيدين، ورغم وجود طبيب في مكان قريب، إلا أن أحداً في الجوار لم يفكر باستشارته أو الاستعانة به.

ففي منتصف طلعة العموري، وفي بيت من طابقين، له شرفة دائرية واسعة،كانت عيادة الدكتور ثيودور زريقات وسكنه. في الطابق السفلي العيادة والقنصلية، وفوقهما دار السكن.

يقول الكثيرون أن الاسم الأول للطبيب لم يكن هكذا في وقت سابق، لكن حين عاد، بعد أن أنهى دراسته، ومعه زوجة أجنبية، عاد باسم جديد!

كان الدكتور تيودور قنصلاً فخرياً لليونان، وربما لدولة أخرى في أميركا اللاتينية، وكان يستقبل الراغبين بالسفر أكثر مما يستقبل المرضى! معظم مرضاه من بدو الكرك ومادبا، وكان يصرّ هؤلاء أن تكون الأبر جزءاً أساسياً من العلاج،ويروى أن بعضهم لم يكن يتردد في أن يستلقي على الأرض، ويرفع رجليه إلى الأعلى، ليسري دواء الابرة في الجسد بسرعة ويعجل بالشفاء!

أما لما هذه الجفوة أو المسافة، بين هذا الطبيب وسكان الحيّ، فكل انسان يقدم الأسباب من الزاوية التي يراها: "متكبر: "وجهه يقطع الرزق" "يفهم بالشؤون القنصلية أكثر مما يفهم بالطب".

ومما يزيد في الجفوة بينه وبين سكان الحيّ الملابس الغريبة التي يرتديها، إذ مايكاد فصل الصيف يبدأ، ومثلما تتغير الطبيعة يتغير. يخلع الملابس القاتمة، والتي يغلب عليها اللون الرمادي أو الأسود، ويستبدلها بملابس بيضاء، شديدة الغرابة والترف:قبعة من الفلين تحجب راسه وقسماً من الوجه والرقبة، وهي بيضاء،ناصعة البياض. بذلة بيضاء، حذاء أبيض، جوارب بيضاء، وفي أغلب العصاري، حين يخرج للتمشي مع زوجته، يلبس قفازات بيضاء أيضاً! قيل لكي لايضطر لمصافحة أحد؛ وقيل أن القناصل هكذا يفعلون بناء لأوامر من حكوماتهم؛ أما الخبثاء، أو الذين لايكنون له الود، فيؤكدون أنه يفعل ذلك بناء لتعليمات مشددة من زوجته!

الدكتور ثيودور بمقدار ماهو كثيف الوجود في تلك الطلعة، خاصة حين يرفع

العلم في المناسبات والأعياد، ويظل يذرع الشرفة الواسعة، ويتطلع، بطرف عينه،إلى المارة، لكي يتأكد أنهم رأوا العلم المرفوع، فإنه بنظر الكثيرين، خاصة من أهل الحيّ، غائبٌ، أو شخص غير هام.

بالمقابل فإن الدكتور سوران، وكانت عيادته في مدخل سوق الخضار، لايوجد أحد في عمان أو حواليها إلا ويعرفه ويكنّ له الود، كما أن عيادته مليئة بالبشر في كل الأوقات، وكانت الممرضة القصيرة السمينة، وهي توزع القطع الحديدية ذات الأرقام، توصي كل مريض أن يحفظ رقمه، لكي يدخل حين يأتي دوره، لكنها تجد صعوبة بالغة إذا خرج مريض من غرفة الفحص وحان وقت دخول آخر، إذ يهب الجميع رافعين "حدايدهم"، وكل يدعي أنه صاحب الدور، فيطل الدكتور سوران بصلعته الكبيرة، طالباً الهدوء والنظام، وبعد أن يتأكد من صاحب الدور، يقول بلهجة أرمنية مرحة، مخاطباً الآخرين، ولكي يطمئنهم أيضاً:

ـ أنا ماعندي بك أو باشا، كل واحد بدورها!

أما الدكتور قاسم ملحس، وموقع عيادته في منتصف شارع الرضا، فكان صاحب رسالة تربوية بمقدار ماكان طبيباً، إذ لايتردد في تأنيب المرضى بطريقة قاسية، لاتخلو من سخرية، خاصة وأن اللثغة في لسانه تخفف من تلك القسوة،إذ يبدو وكأنه يمزح. كان يفعل ذلك حين يكتشف اهمال المرضى أو قذارتهم.

علاقات الدكتور ملحس بالكثيرين ودية، وبعض الأحيان حميمية. لم يكن يتردد في أن يحمل حقيبته الطبية ويذهب إلى أفقر الأماكن وأبعدها. وفي تلك الزيارات يبدي ملاحظات حول نظافة البيوت، وضرورة اغتسال الأطفال،ويوصي، بالحاح، أن يقلّل من وضع السمن البلقاوي في الطعام،ولاينسى أن يتكلم في السياسة مع الرجال!

إلى جانب هذين الطبيبين، كان في عمان، أوائل الأربعينات، الدكتور فرعون،بعيادته المطلة على ساحة المسجد الحسيني.

كانت العيادة، بالاضافة إلى استقبال المرضى، خاصة من أهل الشام، تستقبل شرفاتها قادة المتظاهرين الذين يبحثون عن مكان ملائم لمخاطبة الجماهير التي تتجمع في ساحة الجامع الكبير، بعد أن تنتهي صلاة الجمعة. كانت شرفة العيادة مكاناً نموذجياً، لسعتها ولقربها من أبواب الجامع، وأيضاً، لأنها تطل على الشارع الجانبي المؤدي إلى المخفر المركزي للشرطة، والذي يحدد مدى احتمالات المجابهة فيما لو تطورت الأمور!

بالاضافة إلى هؤلاء الأطباء، كان هناك، أيضاً، الدكتور ثيزيو الطلياني ومستشفاه.

فـفي تجـويف، كـالحـضن، وسط جـبل الأشـرفـيـة، كـانت تنزرع المسـتـشـفى الايطالي. حـين يسـقط المطر تتـألق المسـتـشـفى بحـجـارتهـا البـيـضـاء، وبامـتـدادها العريض، وكأنها طائر ضـخم فرد جناحيه، وسط حديقة كبيرة من أشجار الصنوبر والسرو، هذا عدا عن الزهور الجميلة في المقدمة والمداخل.

يشـبه الدكـتـور الطلياني واحـداً من الكهنة القدامى: طويل، مملوء، له لحـيـة قصيرة، مشذبة، يرتدي باستمرار مريوله الأبيض، وتتدلى على صدره السماعة الطبية. لم يكن يرى وحيداً، فغالباً ماتكون حوله مجموعة من الراهبات الايطاليات اللواتي يرفلن بثياب بيضاء طويلة، وكأنهن في معبد، أو إلى جانب أحد الكهنة. بعد أن يكمل فحوصاته، أو بعد أن يجري عملياته، وكان جراحاً بارعاً،تتولى الراهبات البـاقـي، إذ يشـرحن للـمـريض حـالتـه، ومـايجب أن يفـعله أو أن يمتنع عنه. كـانت طريقـتـهن في الشـرح والتوضـيح تثير المرح الذي يصل، بعض الأحـيـان، إلى حـد الضـحك، كل ذلك من خـلال لغة عـربيـة مكّسـرة، وحين لاتكفي، يلجـأن إلى الوصـف أو التمثيل. وكان ماينقل عن هاته الراهبات من الكلمات أو الحـركات يملأ جزءاً من السـهرات، الأمـر الذي يُنسي المريض الألم بعض الشيء، ويخفف عن أهله في نفس الوقت!

يسكن الطبـيب الايطالـي وعـائلتـه إلى جـانب المسـتـشـفى، في جناح مـلحق بها،تمامـاً مثل مسـاكن الكهنة إلى جانب الأديرة. كـان يحب الطب، ويحب الحـيـاة، وكـانت تُروى عنه قـصص كثيرة، إلى أن كبـرت ابنته، أواخـر الأربعينات، فـتفوقت عليـه كـثـيـراً وسـرقت الأضـواء منه، وقـد اسـتطاعت ذلك بجـمـالـهـا، وروحـهـا الرياضية،وهكذا شغلت وولهت عدداً من شباب عمان!

غير بعيد عن المستشفى الايطالي، مستشفى الست العرجا. كانت للولادة، وربما للأطفـال أيضـا. تديرها طبيـبـة انكليـزية، وقـد تكون أمـيركـيـة، مع زوجـهـا، ويتمان. ويبدو أنه كان للزوجين مـهـمات تتجـاوز المعالجـة، إذ كانا يعرضـان شـرائط سـينمـائيـة من نوع معين، وكـان يوزعـان الكتب المقدسـة، خاصـة العـهد القديم، إلى جانب علب الحليب!

ولأن الناس لم يعرفوا إلا القليل عن هذه المستشفى، ومـهماتـها، فقد أطلقـوا عليها اسم مستشفى الست العرجا، باعتبار أن الطبيبة كانت عرجاء!

كـانت مـسـتـشـفى الطلـيـاني، إذن، الوحـيـدة، تقـريبـاً، في المدينة خـلال فـتـرة الأربعينات، قبل أن يشرع الدكتور ملحس بتأسيس مستشفى في جبل عمان.

أما دائرة الصحة، أو الصحية، كما كان يطلق عليها، وموقعها في نهاية شارع السلط، وكان فيها عدد من الأطباء الذين لم يفتحوا عيادات في المدينة، كشوكت المفتي، أو بعضهم لايستقبل المرضى إلا بنطاق ضيق، مثل مصطفى خليفة، فقد كانت هذه المستشفى للفقراء أو للغرباء، وهي أقرب إلى المستوصف، حيث تتولى اللقاحات، ومعالجة الحالات الطارئة، وتؤوي الذين لايعرفون، أو لا يستطيعون،الوصول إلى المستشفى الايطالي.

وكان هناك الدكتور برنابا، لكن مكانه وصورته غامضة وبعيدة!

زيادة على ماتقدم، كان هناك مركز طبي مخيف وسيّيء السمعة: الكرنتينا.

كانت الكرنتينا، او مركز الحجر الصحي، إلى جانب قيادة قوات البادية، مقابل سينما البتراء، وغير بعيدة عن السيل.

هذه المستشفى تظهر وتغيب تبعاً لظهور الأوبئة او لغيابها، إذ رغم أنها موجودة،وفي نفس المكان، باستمرار، إلا أن احساس الناس بها، أو حتى معرفتهم بوجودها، يتوقف على الدور الذي تقوم به. ففي الأيام العادية تغرق، بطابقها الوحيد والواطيء نسبياً، ضمن حديقة قديمة مغبّرة، بحيث لايفطن لها الكثيرون.

اما حين هجم التيفوس، ثم بعده الكوليرا، واصبح يُجّر من يُشكّ باصابته إليها، وتمنع عنهم، في نفس الوقت، الزيارة، وغالباً مايقضون نحبهم، فقد أصبحت شديدة الرهبة، حتى أن بعض المتطيرين أخذوا يتجنبون المرور أو الاقتراب من هناك.

فعبيدان القحص، بعد أن سمع بوقوع التيفوس، رفض ان يلبي أية دعوة توجّه إليه، واخذ يمر بعيداً عن الكرنتينا. كما تجنب سلوك الشارع الرئيسي، من أجل الوصول إلى بيته، مفضلاً طريقاً طويلاً وملتوياً، لكي لايمر في شارع المصاروة،خاصة أمام بيت أبي حاتم الطيان، بعد أن اصيبت ابنته بالتيفوس وأُخذت إلى الكرنتينا. وزيادة في الحيطة أخذ عبيدان يدلق على يديه كميات من الكالونيا عدة مرات في اليوم للتعقيم، كما امتنع عن مصافحة أحد، أو الأكل عند الآخرين،لكي لايترك أية فرصة للعدوى. كما أخذ يلّف غترته حول وجهه،ويمسك أنفه باصبعين لكي يتنفس بمقدار!

لكن القدر لايأخذ هذه الاحتياطات بعين الاعتبار، او كما ينوي أصحابها، إذ وقع عبيدان فريسة للتيفوس، وأخذ إلى الكرنتينا، وهناك حُلق شعر راسه،وحُلقت لحيته وشارباه، وكان الشاربان "اعز" ما يملك، كما كان يقول ويؤكد، فبدا بنظر

أحد الذين زاروه، وقد استطاع ذلك بصعوبة، أشبه مايكون بعجوز تركمانية، خاصة بعد أن لُفّ رأسه بعصابة سوداء، بحيث أن الزائر أنكره،رغم أن المرض دلّه عليه، ولم تمض أيام قليلة إلا وقضى هناك.

أما ابنة أبي حاتم الطيان فقد قدر لها أن تشفى، وربما لاتزال حيّة إلى الآن!

هكذا كانت ملامح الصورة الطبية في عمان أوائل الأربعينات.

صحيح أن هناك أطباء آخرين، ولكن كانت لهم أوضاع خاصة. فالدكتور يوسف عز الدين، وكان بيته وعيادته مقابل المدرج الروماني، لايعالج إلا أمراضاً معينة، اضافة إلى الأصدقاء والمعارف. وكذلك الحال بالنسبة للدكتور جميل التوتونجي، إذ كان طبيباً خاصاً للقصر، عدا عن كونه سياسياً، وبالتالي لايعالج إلا أشخاصاً أو حالات محدودة جداً.

في فترة لاحقة، بعد منتصف الأربعينات، سوف تصل كوكبة من الأطباء المميزين، طبياً وانسانياً وسياسياً: عبد الرحمن شقير، منيف الرزاز، وبعد فترة، نبيه ارشيدات، جورج حبش ووديع حداد، وآخرون، وبوصولهم لم تتغير الصورة الطبية فقط، إذ أخذت الصورة السياسية ذاتها تتغير، نظراً لما رافق وصولهم من نشاط على أكثر من مستوى.

أما طبيب الأسنان، ابراهيم كاتبي، وموقع عيادته في شارع الملك فيصل، مقابل البنك العثماني، فكان يثير الخوف حين تهدر آلته السوداء بذراعها الطويل، وهي تدخل إلى فم المريض، لتولد ألماً اضافياً فوق الألم الذي لم يكن يترك فرصة لنومٍ في ليالٍ كثيرة سابقة.

كان الكثيرون يحتملون آلام الأسنان، أو يحتالون عليها، عن طريق الاسبرين أو الأدوية المسكّنة، ولايتردد بعضهم في أن يستبقي دخان السجائر في فمه لفترة طويلة من أجل تخفيف الألم، على أن يسلّم نفسه لتلك الآلة السوداء بذراعها الطويل! فإذا زاد الألم عن حد معين، ولم تجد معه العلاجات البدائية، فكان هناك أحد اثنين: البطيخي أو أبو حسن الحلاق. فالبطيخي الذي كان "مركباً" للأسنان ولم يكن طبيباً، يتولى معالجة بعض الحالات. أما أبو حسن الذي يقوم بمهمات كثيرة، على رأسها تطهير الأولاد، وكانت إحدى مهماته الأساسية، فإنه يخلع الأسنان أيضاً ببراعة فائقة، إذ كان يفعل ذلك بخيط، ولايتردد، في أحيان كثيرة،وتجنباً للألم المضاعف، كما كان يقول، في أن يخلع بطريقه الأسنان التي يقدّر أنها ستمرض في وقت لاحق، وتلك التي لاتعجبه!

الأطباء "الشعبيون" في عمان، خلال تلك الفترة، كثيرون، وذوو اختصاصات متعددة، حتى أن بعضهم تجاوزت سمعته الحيّ الذي يسكن فيه، أو الفئة التي ينتمي إليها. صحيح أنه كان للشركس أطباؤهم، وللبدو أطباؤهم أيضاً،لكن في حالات كثيرة، أو نتيجة الضرورة، كان يتم انتقال بعض هؤلاء من حي إلى آخر. كان هؤلاء "الأطباء" يتفقون في بعض الأحيان، لكنهم غالباً مايختلفون في كيفية مواجهة الحالات المستعصية، الأمر الذي يخلق خصومات وتبادلاً للاتهامات، مما يؤدي إلى أن يرفع الجميع أيديهم، ولكن إلى حين، إلى أن يتم استرضاء أحدهم سراً !

فالكسور، أياً كانت صعوبتها، لايُلجأ في معالجتها إلى الأطباء، إلا فيما ندر،لأن "المجبرين" هم أصحاب الاختصاص المعترف بهم، وهؤلاء ، في العادة، ليسوا "متفرغين" لهذا العمل، أو يعتاشون منه، وغالباً مايمارسونه نتيجة ماالكتسبوه بالوراثة أو بالخبرة، وحين يقومون به يفعلون ذلك تبرعاً، أو "صدقة لوجه الله" كما يقولون، وأن وافق بعضهم على تلقي مقابلٍ بطريقة غير مباشرة!

كان هؤلاء يبدون براعة فائقة، وبعض الأحيان شديدة التحدي، خاصة حين يعالجون كسراً أخطأ الطلياني في معالجته!

ثم هناك "الحجامون"، وهؤلاء يعالجون الحصر وضيق النفس والضغط عن طريق الفصد وكاسات الهواء والعلق. وإذا كان العلاج "بكاسات الهوا" يقوم به عادة أحد من أهل البيت، خاصة النساء المسنات، فإن العلاج بالفصد أو بالعلق يتطلب خبرة ودقة مميزة، وغالباً مايقوم به الرجال للرجال، والنساء المسنات للنسوة والأطفال.

أما الكي فكان من اختصاص البدو، وبعض الأحيان الفلاحين، وقلما نجا أحد من أطفال عمان خلال فترة الثلاثينات وأوائل الأربعينات من "كوية" أو أكثر لمعالجة أمراض معينة.

إلى جانب الاختصاصات السابقة، كان هناك أيضاً الأطباء الشعبيون في الاختصاصات النفسية. فالذين يتعرضون للخوف، خاصة أثناء اجتياز المقابر، أو الذين تخرج لهم الساكونة في أحد المنعطفات المظلمة؛ والأطفال الذين يتبولون في فراشهم ليلاً، أو الذين يتأخرون في المشي أو الكلام، وأولئك الذين يقعون "بالساعة"؛ إن هؤلاء وأمثالهم مصابون "بالعين"، ولذلك لابد أن يُلجأ في معالجتهم إلى من يستطيع التغلب على العين الشريرة، واخراج العفاريت من البدن، وليس أقدر من الشيوخ وأصحاب البركات، الأحياء منهم والأموات، على القيام بذلك.

الأسر التقيّة تفضل أصحاب المقامات، لأنهم مجربون وقادرون على الشفاعة! كان على رأس هؤلاء "الفقير". قبره ومقامه في جبل القلعة، وسط مغارة عارية فقيرة، أقرب إلى القذارة، وتخلو من أية مظاهر توحي بالأهمية أو المهابة.

إلى هناك كان يؤخذ الأطفال المرضى. وفي المغارة توقد الشموع، ويطاف بالمريض حول القبر مع الأدعية والابتهالات. وهناك كانت تقدم الأعطيات والنذور، مع وعود، أقرب إلى العلانية، أن "يُذبح خروف عمره أكثر من سنة إذا منّ الله، ببركات الفقير وشفاعته، وشفي المريض المسكين". ويظل يطاف بالمريض حول القبر سبع مرات في كل جولة، على أن تتم الجولة الأخيرة والشموع لاتزال مشتعلة، والكلمات الأخيرة التي تردد: "الله ينّور قبرك يافقير، يامستجيب لكل دعوة ولكل محتاج، وأمانتي عند الله وعندك، فاستجب، يانصير المحتاجين".

كان هذا الطقس يتكرر في معظم أيام الأسبوع، ويزيد ويتضاعف يومي الاثنين والخميس، وكان لايتردد بعض المسيحيين في زيارة قبر الفقير، وتقديم النذور له،إذا شفي مريضاً أو حقق أمنية.

حين أُخذ أحد أطفال العائلة إلى هناك، نظراً لتأخره في المشي والكلام، رافقته الجدة، ولما رأت المغارة الفقيرة والقبر المتواضع، قالت بصوت عالٍ، وهي تهز يديها بسخرية وأسف:

ـ عاب هالفقير، لاباب ولاشباك، وينه ووين العباس!

وحين طُلب منها أن تخفض صوتها، وأن لاتتطاول عليه، لأنه يشّور وصاحب بركات وشفاعات، ردت وهي تضحك:

ـ يبيّن .. شارته عالية مثل البيرق ...

وبعد قليل، وهي تلتفت إلى الناحية الثانية، وتنظر الى الطفل المريض:

ـ إذا هالمقرود حكى أو مشى أقصّ ايدي وأعطيها للكلاب!

غضبت أم المريض، ولم تكلم الجدة لفترة طويلة، لأنها "فاولت" ولم تطلق يد "الفقير" الأمر الذي جعله يحرد ولايستجيب!

ولم تخسر الجدة الرهان تماماً، فقد بدأ هذا الطفل يزحف بعد أن بلغ السابعة،ومشى ابن عشر، ولم يفارق الثقل لسانه أبداً !

من هؤلاء "الأطباء النفسيين" ثلاثة أبرز من غيرهم: أم عيسى، الشيخ صالح البيطار، والشيخ حافظ النوباني.

أول الثلاثة، وربما أهمهم: أم عيسى. امرأة تقية ، قاتمة البشرة، أقرب إلى السواد، يقال أنها لم تر رجلاً غريباً منذ أن مات زوجها، خاصة وأنها لم تغادر بيتها،ولاتفتح الباب إذا سمعت صوت رجل. البيت الذي تسكنه غير بعيد عن المفوضية البريطانية، في السفح الشمالي لجبل عمان.

كانت أم عيسى قبل أن تبدأ المعالجة تدرس الحالة المرضية بعناية، ليس للمريض وحده، بل ولذويه أيضاً! وقد تتطلب مثل هذه الدراسة عدة جلسات، يتخللها "تبييت خيرة" لعل الملائكة الصالحين يزورونها ويساعدونها في المعالجة. ويشترط في هذه الحالة أن تكون المريضة ـ وغالباً مايكون مرضها العقم أو احتمال الطلاق أو "ضعف" الطرف الآخر ـ طاهرة الثوب والنية. فإذا لم تجد "الخيرة"، "لأن الملائكة مشغولون بتسبيح الله أكثر من انشغالهم بأمور الحبل"، كما تقول جارة لأم عيسى، تلجأ إلى الأعشاب والمساحيق، وتصّر أن تشتريها صاحبة العلاقة بنفسها من أبو شام العطار، وأن يتم ذلك بمال حلال. وغالباً ماتضيف إليها أم عيسى أدوية من عندها، وتمزجها كلها، مع الدعاء والبخور، بالماء الذي بات تحت السماء لمدة ثلاثة ايام متواصلة، على أن يتخللها واحد من يومين: الاثنين أو الخميس، وبعد أن تمزج الدواء بكثير من المهارة والصبر، تعطي الجرعة للمريضة وهي تقول: "معافاة والمعافي الله".

المريضات اللواتي شفين يذكرن الكثير عن "قدرات" ام عيسى وبركاتها، فقد جاءهن أولاد بعد سنين من الانتظار! وعاد الرجال بعد هجر طويل، كما عادت "القوة" إلى الذين غادرتهم في أوقات سابقة! وبذلك بدت ام عيسى أقدر من الأطباء الذين عجزوا عن معالجة مثل تلك الحالات المستعصية! اما النساء اللواتي لم تفدهن أدوية أم عيسى، فكن يذكرن الكثير من السوء عن المرأة الساحرة!

لم تكن أم عيسى تتقاضى أجراً بشكل مباشر، وإذا وافقت فكانت تطلب ان يُنذر لها، مع عربون: حبة تمر، كما كانت تطلب من المريضة وذويها الدعاء لله لكي يرزق عيسى طفلاً، ولايهم ان يكون ذكراً او انثى!

الشيخ صالح، حذّاء الحمير والمسحر في رمضان، لم يكن "الطب":اختصاصه الأول او الأهم، ولكن كان "يضطر" إلى ممارسته حين يعجز "الحكماء"، وبعد أن ييأس اهل المريض، وتفشل جميع الوسائل.

كان الشيخ صالح، رغم الالحاح، ورغم وجود المريض، يلجأ إلى تأجيل العلاج يوماً بعد آخر، نظراً "لانشغالاته"، او لأن "الحالة تحتاج إلى صفنة" كما

يقول! وخلال ذلك كان يراقب المريض وذويه بنظرات مكتشفة، ولايتردد، بعض الأحيان، في أن يهجم بشكل مفاجيء على المريض، وأن يمسك برأسه وينظر بتحديد إلى عينيه، "لأن الرعبة تكوي، يأولاد الحلال" كما يقول.

حين يقرر الموافقة على المعالجة يأمر أهل المريض أن يأتوا به في اليوم التالي: بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس!

في اليوم المحدد، وفي الساعة التي حددها، وبعد أن يؤتى بالمريض، يكون الشيخ صالح في زيه الرسمي: قلبق أسود تزينه في الوسط خرقة خضراء، وعلى الخرقة مجموعة من الأوسمة والنياشين. ورغم أن الشيخ صالح البيطار لم يكن شركسياً، إلا أنه يصر على ارتداء القلبق الذي أهداه إليه معمر شركسي، قيل أنه حجّ عشر مرات وزار القدس مائة مرة!

بعد أن يستعرض الشيخ المريض وذويه، وكأنه يستعرض قطعة عسكرية،ويكون عادة في منتهى الحزم والجدية، يصدر أوامره:

- ابطحوه وامسكوا اليدين والرجلين ولاتتركوه يتحرك.

ومعنى ذلك أنه سيمتطي بغلته - ويصر على أنها فرس كريمة - ويمر فوق المريض،ويجب أن يكون المرور خلال المرات السبع من الشرق إلى الغرب.

لم تكن "العبرة" أو "الدوسة" العلاج الوحيد الذي يلجأ إليه الشيخ صالح،ففي حالات أخرى: "التكبيس"، وحالات ثالثة: "تفلة البركة".

كان أهل المريض يسألونه مداورة:

- ها يا شيخنا: دوسة أو كبسة؟

وحين لايجيب، يسألونه مرة أخرى، فيرد بغضب:

- اللي يريده الله يصير.

فإذا ألحوا أكثر يرد بسخرية وهو يهز رأسه:

- شحاد ومشارط ..

وبعد قليل:

- بعد ماخلص الرجّال حاملينه وجايين عند الشيخ صالح ...

وتتغير اللهجة تماماً:

ـ شو شايفين الشيخ صالح صار عيسى ابن مريم، يحيي الموتى؟

بعد أن ينهي الشيخ صالح علاجه، يصرخ بأهل المريض:

ـ خذوه والشافي الله!

وغالباً مايلقى المريض مصيره فيموت خلال فترة قصيرة من الزمن، ويكون علاج الشيخ صالح هو الأخير.

يرفض الشيخ صالح، في معظم الحالات، ان يتقاضى اجراً، ويغضب إذا تحدث أحد عن ذلك، لكن لايمانع إذا أرسل أحد الميسورين من أهل المريض الى بيته، أثناء غيابه، خروفاً أو تنكة سمن، وحين يبلغ بذلك يقول بلهجة ساخرة:

ـ إن الله يرزق الانسان من حيث لايحتسب.

وفي جنازة المريض الذي عالجه، يحرص ذوو الميت أن يكون الشيخ صالح موجوداً، دلالة أنهم استنفذوا كل الوسائل.

كان الشيخ صالح يمشي في مقدمة المشيعين، وعلى مسافة من الآخرين،ويحرص أن يكون وحيداً، وقد ارتدى ملابسه الرسمية، بما في ذلك الوشاح الأخضر، وكان صوته يعلو بالتكبير بين فترة وأخرى، خاصة عند المنعطفات أو الأماكن الهامة، فيعرف الجميع أهمية الميت وعراقة نسبه، والجهود التي بذلت من أجل انقاذه!

اما الشيخ حافظ فلا يرقى الى هذا المستوى، كما لا يتعامل بالقضايا "الكبيرة"،إذ كانت مهمته مقصورة على كتابة الحجب، ومعالجة الأمراض البسيطة، خاصة مايتعلق منها بالكآبة والحزن والخوف، اضافة إلى قضايا البطالة الطويلة وسوء الطالع.

كان الشيخ حافظ يكتب أوراقاً تتضمن آيات وأدعية، ولاتخلو من ارقام ورموز. بعد أن ينتهي من كتابتها يضعها في غلاف جلدي يحسن صنعه، وكان أهل المريض، في أحيان كثيرة، يضيفون إلى الحجاب خرزة زرقاء وشبّة، وفي حالات معينة سن ذيب. لقاء ذلك كان الشيخ يتلقى مقابلاً بسيطاً، ولامانع أن يكون عيناً،مثل كمية من القمح أو العدس أو الزيت.

ومثلما كانت تفعل أم عيسى في مجال "الطب"، كان هناك درويش آخر في عمان يمارس الطب قليلاً، ولكن يمارس أكثر من الطب كشف السرقات والمؤامرات الغامضة.

كان ضعيف البصر، "لكن الله فتح قلبه وكشف له الأسرار"، كما يقال عنه. لم يكن يقدم نفسه كصاحب مهنة من هذا النوع، ولكن الذين يزكونه يذكرون الكثير من أعاجيبه!

حين يوافق على القيام بكشف المستور لابد أن تستغرق مهمته أياماً طويلة، وخلال هذه الأيام يجب أن يفرد له مكان خاص للإقامة،وأن يهيّأ له طعام جيد، لأنه لايأكل وحده، إذ "يعزم معه الملائكة الصالحين والعارفين"،وهؤلاء هم الذين يساعدونه في كشف المسروقات، ومعرفة السارقين، ويشاركونه الطعام أيضاً!

جاء ذات يوم، بعد وساطات كثيرة وانتظار، إلى بيت عبيدان، ليكشف اللصوص الذين سرقوا بعض الحليّ الذهبية.

أفردت له زاوية فسيحة في قبو الدار، بعد أن نُظّفت وبخوت وعطرت. وأخذت صواني الطعام تنزل إلى هناك أكثر من ثلاث مرات في اليوم الواحد،ومعها الفاكهة، وبين وجبة وأخرى كانت أباريق الشاي والقهوة، وحين تهدأ الحركة قليلاً كان يرتفع صوته طالباً الماء البارد!

أطل عليه الصغار ذات يوم، بعد أن فرغ من الطعام وبدأ "العمل". كان يضع أمامه طاسة مليئة بالماء، وكان يفرد غترته على رأسه وعلى جزء من الطاسة،وتخرج من فمه كلمات غامضة، يمكن أن يفهم منها ، بصعوبة، أسئلة موجهة إلى مجهولين، يطلب منهم أن يدلوه على السارق، مع وعود يكررها بالحاح: "... وراح أغرّقكم بالعزايم". وحين سمع حركة الصغار عند باب القبو، وانتبه لوجودهم، اضطرب، ولم يتردد في أن يلتقط حجراً ويقذفهم به، مع مجموعة من السباب المقذعة!

في وقت لاحق سيوجه اللوم للصغار، لأن الشيخ كاد يصل إلى اللصوص "لولا أن الشياطين جاءوا في اللحظة الحاسمة وأفسدوا عليه كل شيء !"

ومدد الشيخ اقامته أسبوعاً آخر، وزادت طلبات الأكل والشراب، وفي نهاية ذلك الأسبوع تم "الكشف" ووصل إلى تحديد المجرمين. أما الأوصاف التي أعطاها لللصوص فكانت تنطبق على كثيرين من أهل الدار والجوار، الأمر الذي خلف بعد رحيله، وبعد أن تقاضى أجراً كبيراً، مشاكل وخصومات لم تنته، ولم تظهر الحلي أبداً!

٢

كان اكتشاف عمان المدينة – البشر، من خلال صدمة الموت. ولسوف يرتد الطفل إلى أيام سابقة ويتساءل عن بعض الذين "ذهبوا"، وايضاً لكي يستعيد الاجابات التي كان يتلقاها: "سافروا"، ولايقال أي شيء عن هذا السفر الطويل الغامض وامكانية العودة أو موعدها. وليتذكر اجابات أخرى: "انتقلوا الى السماء، ذهبوا إلى الجنة"، دون أية توضيحات عن كيفية الانتقال، أو الوسيلة التي ذهبوا بها. ثم ماهي الجنة، ولماذا لاتكون هنا ويراها الجميع ويعيش فيها الجميع؟

تتوالد الأسئلة في العقل والقلب، ومعها المخاوف، وحين تبلغ اللسان،ولاتكفي الأجوبة التي تقال، وتعاود الأسئلة من جديد، لايتردد الكبار في أن يصرخوا طالبين من الصغار الكف عن هذا الموضوع.

في وقت ما بدا الموت في صورة أخرى، وكانت تعكسه أم علي الشرشوحة.

فهذه المرأة التي لايُعرف متى تستقر في بيتها، كانت تشاهد عدة مرات في اليوم الواحد تنتقل من مكان إلى آخر، مرتدية ملاءتها الزّم الواسعة، الكالحة اللون،وعلى خصرها ولد عليل، كما كان فمها يدور "بالبانة" التي تطقّ برتابة والأخبار والقصص والاشاعات. لم تكن لتتوقف أكثر من الوقت الذي يحتاجه ابلاغ الأخبار الجديدة: " فلانة تخاصمت مع زوجها" " فلانة سيتزوج زوجها عليها، وستبقى عنده لتخدمه وتخدم زوجته الجديدة" "الحاج عمر يحضر عزيمة كبيرة للجمعة الأخيرة من رمضان" وماشابه من الأخبار.

ورغم أن لهذه المرأة عدة أوصاف أصبحت لها بمثابة أسماء اضافية تميزها، كأن يقال عنها: البيرق، أو البورزان، وسميت أيضاً الراديو، إلا أن أكثر الأسماء تداولاً، وانطباقاً عليها: الشرشوحة. كانت تعرف، وتسمع، بعض الأحيان، هذه التسمية، لكن تتظاهر أنها لاتعنيها، أما حين نادتها الجدة ذات يوم بهذا الاسم، وقد ظنته اسمها، فقد ردّت عليها بغضب:

ـ الشرشوحة أنت وأمثالك اللي مابيعرفوا يقدروا الناس!

وغادرت دون أن تقدم نشرتها الاخبارية!

ولم تفهم الجدة سبباً لغضب أم علي إلا بعد فترة، وبعد أن شُرح لها معنى هذه التسمية! كانت أم علي لاتخفي فرحتها باقتراب العيد، بل وكانت تنتظره،كالأطفال، بلهفة، ليس باعتباره ايام فرح وراحة، وإنما لأنه الفرصة والمناسبة لزيارة المقابر!

تبدأ استعدادات أم علي الشرشوحة ليوم العيد في وقت مبكر، فما أن تدوي مدافع الاثبات، ويُسمع صوت أم كلثوم وهي تردد: ياليلة العيد، ومايكاد الليل ينتصف حتى تبدأ رحلتها باتجاه المقابر.

الذين يسكنون على السفوح الجنوبية الغربية من جبل عمان لايترددون في المراهنة أن أول "لوكس" متوجه نحو المقابر هو لأم علي!

كانت، كما يروي الكثيرون، تبدأ بالبكاء والندب وهي تجتاز بوابة المقبرة، ثم ينفجر وسط الظلمة فجأة صوت عويلها، وكان يسمع إلى مسافات بعيدة، ويبالغ بعض ساكني جبل عمان فيؤكدون أنهم كانوا يسمعون هذا الصوت!

بعد أن تذرف أم علي الكمية الضرورية من الدموع على "المرحوم"، الذي غادرها باكراً وكسر ظهرها كما تقول، تنصرف بهمة كبيرة إلى تنظيف القبر وماحوله، ثم ترشه بالماء وتطيبه بماء الزهر، وتضع عليه قطعة الزرع الريانة التي حملتها، "لأن المرحوم كان يحب الخضرة والماء والوجه الحسن". وبعد أن تنتهي من هذه المهمات تطلب من مرافقيها أن يجلبوا كمية اضافية من الماء لاستعمالها في أغراض شتى، بما فيها صنع الشاي!

ويمر وقت طويل، بضع ساعات أغلب الأحيان، قبل أن تبدأ مواكب الأضواء بالتوجه نحو المقبرة، وتعرف أم علي القادمين واحداً واحداً، تسميهم بصوت عالٍ على ملإٍ من الذين حولها، محددة درجة قرابة الزائرين بالميت، وظروف الوفاة،ونوع

الجنازة التي اقيمت للمتوفي، وتفاصيل أخرى لاحقة عما حصل بعد الوفاة من اختلاف الورثة، والخصومات التي قامت بينهم، الأمر الذي جعل فلاناً يزور وفلاناً يمتنع عن الزيارة!

حين يتزايد عدد زوار القبور، ويصبح من غير المجدي الاستمرار بعدّهم أو مراقبتهم، تحاول أم علي الشرشوحة أن "تتقّل" نفسها، مفترضة أن على الآخرين واجب زيارتها وتعزيتها، فإن تباطؤوا، أو لم يقوموا بهذا الواجب، لاتلوم أحداً ولاتأخذ على خاطرها، "لأن المرحوم، ابو علي، صارت عظامه مكاحل، وياما مات بعده ناس". ولذلك تبادر هي إلى زيارة الآخرين ومواساتهم.

كان اغلب زوار المقبرة يعرفونها، او على الأقل راوها من قبل. وباعتبار أن الرجال يتأخرون بزيارة القبور، إذ لايفعلون ذلك إلا بعد صلاة العيد، فلا بد أن تستغل أم علي هذه الفسحة من الوقت للمرور على اغلب القبور، وبعد أن تقرأ الفاتحة، بطريقتها الخاصة السريعة، لابد أن "تذيع" بعض الأخبار، وتحاول أن تسمع، بالمقابل، أخباراً أو تستنتجها، لتقوم، بعد ذلك، بنقل الحصيلة كلها إلى القبور الأخرى!

هذه الصورة للموت، رغم خفتها، لاتفقد الموت رهبته، باعتباره حدثاً استثنائياً يثير الخوف والتساؤل. فحين تتوجه جنازة لمسلمٍ أو لمسيحي، وكان التشييع يجري على الأقدام، ولم يلاحظ اشتراك سيارة إلا في حالات نادرة، ربما لنقل احد افراد الأسرة من المرضى او المسنين الذين يصعب عليهم السير، وتبدأ الجنازة بالتوجه إلى جنوب المدينة، وبعد أن تسلك الطريق ذاته، وكأنها قافلة مسافرة نحو مأدبا، إلا أنها في مكان معين من طلعة المصدار تأخذ جنازات المسيحيين الجانب الأيسر،لتصعد التلة القاسية نحو الكنيسة الصغيرة في زاوية المقبرة، حيث تجري الطقوس الأخيرة، ثم يوارى الميت التراب، أمّا جنازات المسلمين فتواصل الطريق،وقبل أن يبلغ التل ذروته، ووراء سور متواضع، ناحية اليمين، تصل إلى مقبرة المسلمين.

لم تكن هذه الأمكنة، بالمواقع التي تحتلها، مجرد اراضٍ للدفن، أو لاعلان نهاية انسان ما، كانت، اكثر من ذلك، خاصة لارتفاعها واطلالها على أجزاء واسعة من المدينة، مساحة للتامل والذكرى، لاعادة الأسئلة، وايضاً لكي تنبه كل انسان إلى النهاية التي تنتظره، فلا يسرف بالثقة او الوهم.

فالطريقة التي يعلن فيها الموت، ثم المراسيم الكثيرة المرافقة، وطريقة تصرف

الناس وردود أفعالهم حين يعرفون، ثم وهم يشاركون، وذلك الحزن الذي يظهر فجأة، ومايصدر من تصرفات أو أوامر، وغالباً من أناس لم يكن يُحس بوجودهم أو أهميتهم من قبل، يعطي الموت طابعاً خاصاً، احتفالياً أغلب الأحيان.

فما أن تُسمع، عند الضحى، الأجراس وهي تدق بتلك الطريقة الرتيبة، حتى تخلق احساساً بالحزن والنهاية، ليس عند ذوي الميت فقط، وليس لدى الطائفة التي ينتمي إليها، وإنما لدى الجميع، المسلمين والمسيحيين. بل أكثر من ذلك، ومن الذكريات المبكرة التي يحملها أطفال المسلمين، وهم يسمعون تلك الدقات، أن تبدأ الأسئلة: من مات؟ لماذا مات؟ وأين يذهب الموتى؟

أما حين تكتمل المراسيم، وتبدأ الأرجل المسنة المتعبة تنتقل ببطء لتصعد التلة اليسرى، مع الأطفال والشموع، وصوت جرس كنيسة المدفن الشاحب والضعيف، والخوري الذي يهتز حزناً أو نتيجة العادة، فإن لوحة الموت تتبدى ثقيلة قاسية، وتعني كل انسان في عمان، أياً كان دينه.

ليس ذلك فقط، فأولاد المسلمين، نتيجة المراقبة الدقيقة، وذلك الحرص لمعرفة كل شيء، يكونون موجودين ومنفعلين كالآخرين، وربما أكثر من بعض المشيعين الكبار، حيث يرافقون الجنازة، ويراقبون كل حركة. حتى الأطفال الذين لايشاركون، نتيجة الخوف، والذي يصل حد الرهبة، فإنهم يتابعون، عن بعد، الحركة البطيئة وهي تتسلق الجبل، ويسألون عن كل شيء، لكي يداروا خوفهم، ومع ذلك يحسون بالفقد والوحشة، إذ يعرفون أن شيئاً منهم قد غادرهم إلى الأبد.

بل أكثر من ذلك، وكان هذا مثار استغراب وتساؤل، كيف يكون بعض الناس في موتهم أكثر أهمية مما كانوا وهم أحياء! فجأة يكبرون، يخلفون فراغاً وحزناً لم يكن يُحسّ بمثله عندما كانوا يدبون على هذه الأرض، فتنطبع أسماؤهم وهيئاتهم في الذاكرة لاتبارحها لسنين طويلة لاحقة، أو تعود إليها كلما جدّ شيء يماثلها أو يذكّر بها!

في الجهة الأخرى، عبر الشارع، مع ميل للأرض واضح نحو الغرب، تتمدد قبور المسلمين. كانت أكثر عدداً وأكثر تواضعاً، مع استثناءات قليلة. حين تصل الجنازة إلى هناك تصل بسرعة، وكأن حامليها يشعرون بضرورة الانتهاء من هذا الواجب في أسرع وقت ممكن، تماماً كمن يسلّم امانة ثقيلة لصاحبها، ورغم البساطة والسرعة، وكأن الموت أمر محتوم، بل وضروري، فإنه يولد خوفاً في قلوب الأطفال. وكان هذا الخوف، رغم التكتم عليه، والتظاهر بعكسه، لايختفي ولايزول.

فالكوابيس التي تلاحق الأطفال في نومهم تجعل الكثيرين يهبون فزعين،وتلك الهلوسات التي تعبر عن نفسها بالصراخ والبكاء، تجعل الأمهات والجدات يخفن من هذه الحالة ويحسبن لها ألف حساب.

صحيح أن الأمهات والجدات كن يحملن الماء إلى الأطفال، وكن يقرأن على رؤوسهم الأدعية والآيات، ويطلبن بإلحاح أن يقرأ الطفل سورة من القرآن، فإن كان أصغر من أن يفعل ذلك، فلا أقل من أن يردد وراءهن بعض الأدعية، أو أن يكرر اسم الله حتى ينام!

وفي اليوم التالي لابد أن يؤتى بطاسة الرعبة، فيبدأ البحث عنها في بيوت الجوار، وغالباً مايعثر عليها في أحد البيوت الشامية! وبعد أن يسقى الطفل الماء بهذه الطاسة ثلاث مرات، لابد أن يزول رعب الليل الفائتة، وتعود الأمور إلى ماكانت عليه قبل الكابوس!

الجدة لم تقتنع بهذه الطريقة، ولاتعترف لهذه الطاسة بأية أهمية، ولذلك تلجأ إلى أسلوب أكثر فاعلية: تأتي بورقة بيضاء، بمساحة الكف، وبدبوس تحرق طرفه بعود ثقاب، تبدأ: مع كل شكّة دبوس في الورقة تذكر أسماً، اسم أحد الحساد المحتملين، من الأقارب والجوار، تفعل ذلك وهي تردد: هذه عين فلان، وهذه عين فلانة، وهذه عين فلانة، وتحصر في ذهنها جميع الأسماء التي قد يكون أحدها أصاب الطفل بالحسد، وبعد أن تأتي على جميع الأسماء، وتعجز عن تذكر غيرها،تقول: "العين اللي شافته وما صلّت على النبي تلقى حوبته "، ثم تقوم بحرق الورقة، وتضع بقاياها في كأس ماء صغير، وتمسح جبهة الطفل ووجهه ويديه. كانت تفعل ذلك قبل النوم، وفي الختام تتظاهر أنها تتفل عليه وهي تردد:

دللول يا الولد يا ابني دللول

عدوك عليل وساكن الچول

دللول يُمّه دللول

دنام والنومة عوافي .

وغالباً لاينام الطفل، إذ يطالب بمقابل اضافي: أن تحكي له الجدة حكاية،ويجب أن تكون طويلة، فتبدأ حكاية مريم الزنارية!

وإذا كانت عادة أهل عمان، خلال تلك الفترة، أن لايلجأوا للأطباء إلا في الحالات القصوى، وبعد أن يستنفدوا جميع الوسائل والأدوية الشعبية، فإن من

الأمور التي كانت تثير الاهتمام كيفية مواجهة المرض. فالناس إذا بخلوا، أو أبدوا حرصاً زائداً، فإنهم لايبخلون بالدواء أبداً. أكثر من ذلك كان الكثيرون يتبرعون لاحضار أدوية متعددة، مع ذكر فوائدها، والحالات التي شفتها، بحيث تتوافر كميات من الأدوية لايحتاجها المريض، أو لايتطلبها المرض! لذلك تتوجد دائماً،في أغلب البيوت، أدوية بكميات كبيرة، خاصة من الأعشاب، كالميرامية والبابونج واليانسون والزهورات اضافة إلى ماء الزهر، وأنواع أخرى من المواد المركبة والمساحيق. وكان الكثيرون، زيادة في الحيطة، خاصة في فصل الشتاء، يتناولون شراب هذه النباتات لتقوي أجسادهم، وتكون أقدر على مواجهة أمراض البرد.

ومثلما لاتعترف الجدة بطاسة الرعبة، فإنها قليلة الثقة بالأدوية والنباتات التي لاتعرفها. ولذلك كانت تحرص في كل سفرة من سفراتها إلى بغداد على أن تحمل بالاضافة لابريق الشاي ذي الرسم الجديد، والاستكانات، والتي لاتتناول الشاي بغيرها، كانت تحمل معها مجموعة من العقاقير والأعشاب، إذ تضعها في صرر أو في زجاجات صغيرة. ومن الكلمات التي كانت تتردد في البيت، بشكل مفاجىء، وفي حالات المرض، "وين الشيشة الفلانية" وتظل عيون الصغار مفتوحة بتساؤل، وبخوف أيضاً، لمعرفة هذه "الشيشة"، ماذا تعني وماذا تحوي،إلى أن يُكتشف أنها زجاجة الدواء ، التي تبحث عنها!

ومثلما كان لأهل عمان، مسلمين ومسيحيين، مقابرهم، فقد كانت هناك مقابر صغيرة متناثرة هنا وهناك.

من تلك المقابر واحدة لأهل الجزيرة العربية، كانت غير بعيدة عن رأس العين،إلى جانب سوق الحلال. تحتل هذه المقبرة سفحيّ الوادي الضيق من الجهتين. قبورها شديدة التواضع، إذ لاتتعدى كومات صغيرة متوالية من التراب،مع حجارة غير مشذبة، متفاوتة الحجم، وهي التي تحدد القبور، ولابد أن يكون هناك حجر أكبر من الحجارة الأخرى فوق القبر، حيث يكون رأس الميت،وبمواجهة القبلة.

هكذا كانت أغلب القبور، إلى أن قامت قبور مشيدة، لها شواهد، وكانت في معظم الحالات لغير البدو، فإذا جرى الحديث عن الموت والقبور يردد البدو باختصار وبحزم: أكرم القبور ما ساوى التراب!

وإذا كان للموت في المدن طقوسه، ويرافقه الكثير من المظاهر، فإن موت هؤلاء الراحلين سريع وخالٍ من أي احتفال أو شكليات، إذ لايكاد يُعرف بموت فلان حتى

تجري عمليات غسله وتكفينه، ثم الصلاة عليه في الجامع المتواضع القريب من سوق الحلال، أثناء ذلك يكون بعض المعارف والأقارب قد حفروا القبر، وخلال ساعة،وبعض الأحيان أقل من ذلك، تتم مواراة الميت التراب، ولايرافق التشييع والدفن أي بكاء أو عويل، كما لايُنتظر أحد، ولايعقب ذلك سوى ذبيحة أو أكثر تذبح لروح المتوفى، ويعاود الناس حياتهم العادية.

ظلت هذه المقبرة قائمة في هذه الأرض العراء إلى أن طوقتها البيوت من ناحيتي الشرق والغرب، وكان الطريق الذي يصل هاتين الناحيتين يتخلل المقبرة، وكثيراً ماجرى الرهان بين الصبية، وحتى الكبار، على امكانية اجتيازه بانفراد ليلاً، خاصة في وقت متأخر، وأثناء غياب القمر، لأن الذين يجتازونه نهاراً بشكل طبيعي ودون تردد، يتجنبونه ليلاً، ولديهم مايقولونه في تعليل ذلك! وكثيراً ماتسببت تلك الرهانات بخسائر فادحة، وعلى أكثر من مستوى، لأنه كان يتخللها الكمائن،والأصوات المرعبة، اضافة إلى تساقط حجارة لايُدرى من أين، وهذه تؤدي إلى الفزع والصراخ، وبالتالي إلى خسارة الرهان، حيث يكون من جملة الشروط، الاتيان بخرقة مربوطة حول شاهدة قبر بعينه، أو وضع علامة على قبر محدد!

كان الذين يعجزون عن الوفاء بتلك الشروط، لايخسرون الرهان فقط، بل ويخسرون أيضاً الاستقرار والشجاعة، وقد تصل الأمور إلى حد زيارة بعض الشيوخ من أجل المعالجة!

لكن مقبرة رأس العين لم تستمر طويلاً، إذ ماكاد القسم الثاني من الأربعينات يبدأ حتى طُلب من أقرباء الموتى نقل رفات موتاهم، ومن لم يفعل، لسبب أو لآخر، تولت البلدية هذا الأمر، ثم سوّت أرض المقبرة مع ماحولها، وأصبحت، كما يقولون، أثراً بعد عين!

والكلمات الأخيرة حول صدمة الموت، والتي لا تزول من الذاكرة، ويشبه أولها الحلم، وتختلط بأشياء كثيرة، منها: عدم التصديق، الغرق في غابة خضراء بشكل مفاجىء، عدم القدرة على الفرح أو اللعب، وحين يعود الصغار من هذا المشوار الاجباري، يكتشفون أن الأب قد مات، وأنه شيع أثناء غيابهم، وحين يبدأون بالبكاء، يؤخذون مرة أخرى، إلى بيت أحد الأقرباء لكي يبقوا هناك بضعة أيام.

صورة هشة، مهزوزة، لايمكن الجزم إن كانت قد وقعت بالفعل، وهكذا، أم أن الأحاديث اللاحقة، اضافة إلى الخيال كوّنتاها، وأصبحت أول صلة بالموت الشخصي، ثم جاءت وفاة الملك غازي لتعطي للموت شكلاً حاداً وأكثر تجسيداً.

أما حدث الموت الثاني، والذي أثار تساؤلاً مشوباً بالخوف، فهو موت هاني الجقة.

كان هاني لاعب كرة لامعاً، وكانت له صورة تشع بالنضارة وتثير الخيال، وفجأة تسمع عمان أن هاني قد توفي نتيجة التهاب الزائدة الدودية.

كان يوماً شديد الحزن والقسوة، إذ بالاضافة إلى الموكب المهيب الذي شيع فيه،فإن لحظات اخراجه من البيت، وما رافقها من نواح وعويل، وركض الأم وراء النعش، وكانت منفوشة الشعر، مشقوقة الثياب، لم تترك أحداً ممن رأى المشهد، أو حتى سمع به، إلا وذرف الدموع على غياب هذا الشاب الذي كان يعد بالكثير.

الموت الآخر الذي آثار حزن الأطفال وخوفهم: موت أحمد اسماعيل.

كان أحمد صبياً صغيراً، ربما أصغر تلامذة الصف الثالث. لم يكن شديد السمرة، لكن نتيجة الهزال، وبسبب الريح الباردة التي كانت تسفع وجهه في مشواره اليومي من نهاية المهاجرين إلى العبدلية، جعلته يبدو، وقد أصابته الحزازات، وتقشّر وجهه في بعض المواضع، أكثر سمرة من الآخرين.

ذات صباح، وماكاد التلاميذ يدخلون الصف، دون أن يحس احد بغياب أحمد اسماعيل، حتى دخل معلم الصف، الأستاذ داود، وبكلمات حزينة، لاتخلو من شفقة وحزم، أبلغ التلاميذ أن سيارة دهست زميلهم أحمد وقتلته، وطلب منهم أن يقفوا دقيقة حداد على روحه!

انقضت سنوات كثيرة على غياب أحمد اسماعيل، لكن صورته لاتزال ماثلة، قوية، وربما أقوى من صور أكثر تلامذة الصف الذين ظلوا أحياء!

وموت آخر يترجع كالصدى بين فترة وأخرى، رغم كونه متوقعاً، نتيجة المرض والانتظار: موت حمدي منكو.

فهذا الرجل الذي ارتبط اسمه بالغنى العريض، وكان مثالاً للتواضع والاستقامة، ظل يشاهد في الفترة الأخيرة من حياته يذرع الساحة السفلى من البيت الواسع، والذي كان طابقه الثاني بمستوى الشارع ، كان المرض قد أرهقه،وتردد الحديث، همساً، أن أيامه في هذه الدنيا لن تطول.

ومثلما كان البيت هادئاً، مغلفاً بالصمت، عاد، بعد تلك الولولة الحادة الموجوعة التي مزقت الصباح، إلى صمته، رغم أن الموت قد هجم وانتزع ذلك الرجل. إذ ماعدا الحركة السريعة، الوجلة، والأعداد المتزايدة من الرجال الذين

أخذوا يتوافدون، ثم تلك الآلة المرعبة التي حُملت وأدخلت، وكانت المرة الأولى التي تشاهد، من هذا القرب: طاولة غسل الموتى، فقد ظل كل شيء يجري بخفاء وحذر، ماعدا همسات وكلمات هنا وهناك، حتى إذا انتصف النهار، وحان وقت التشييع، فقد ضاق الشارع بالبشر. ولأول مرة يُرى الطربوش على الصندوق الذي كان فيه الجثمان، وبدأ الموكب يتحرك، لكن بصعوبة، حتى إذا خلا الشارع أحس الكثيرون بالفراغ الأقرب إلى الخواء، وأحسوا بالحزن الشديد.

قال أحد الرجال، وكان شديد التأثر:

- يمكن أن يؤرخ لعمان يوم كان حمدي منكو حياً، ثم لما غادر هذه الدنيا!

وموتاً آخر تتذكره عمان، وكان مفاجئاً، أقرب إلى عدم التصديق، موت ماجد العدوان، ليس لأهمية الرجل فقط، بل ولأنه ترافق مع دعوة كبرى كان يعدها ذلك اليوم، وكان يفترض أن يحضرها أهم شخصيات البلد، خاصة السياسية.

فمثل عادته في هذه الدعوات، هيأ الرجل الكثير، عدد الخراف التي ذُبحت،عدد أفراد العشيرة الذين حضروا، مايرافق هذا الحضور من صخب واستعداد، اضافة إلى الخيول، واحتمال أن يقام مهرجان لاستعراضها، وربما لسباقها، بعد الوليمة، كما نُصبت الخيام على أطراف الملعب المقابل للبيت، وفي حديقة الصنوبر، وأوقدت نيران القهوة في أمكنة عديدة، فبدا وكأن كل شيء يشير إلى أن هذه الدعوة ستكون أهم الدعوات وأكبرها في عمان.

يذكر الذين كانوا إلى جانب ماجد العدوان، أن الرجل لم يهدأ لحظة واحدة، إذ كان ينتقل بهمة وبسرعة من مكان إلى آخر لكي يطمئن أن الأمور تسير على أحسن وجه، وكما خطط لها، وفجأة، بين الضحى والظهر، غاب الرجل. وبمرور الوقت، واستمرار الغياب، أخذت التصرفات والحركات تشي بأن شيئاً ما وقع قبل الظهر بقليل بدا الأمر أكثر جدية، وربما خطورة، مما قدّر أي انسان، وماأكد ذلك الحركة السريعة، والهمس الخائف الذي صدر من بعض الذين دخلوا إلى البيت وخرجوا. أما حين وصل الدكتور التوتونجي، وبدا مسرعاً وهو يغادر السيارة ويدخل البيت، فقد وصل الاحساس إلى درجة الخطر، وأن الأمر يعني ماجد العدوان، ولاأحد غيره.

حين أعلنت الوفاة بعد الظهر بقليل، لم يستطع أحد أن يستوعب الأمر، حتى أن الكثيرين رفضوا التصديق، وقالوا ذلك بصوت عالٍ.

أما حين وصل الملك فلم يصدق الكثيرون أعينهم، فالعادة أن يكون الملك آخر من يصل إلى المآدب والاحتفالات، أما وأنه جاء في هذا الوقت، وبهذه الطريقة،فقد تأكد الجميع أن ماحصل يفوق أي توقع: إنه الموت!

قال الكثيرون أن أياً من الذين كانوا في البيت، أو حواليه، لم يذق لقمة واحدة طوال ذلك اليوم. وقال غيرهم أن الطعام الذي أعد للوليمة وزع على الفقراء. وقيل أن نساء البيت، لما وقعت المصيبة، صببن الماء على النار فأطفأنها، وقيل اهلن عليها التراب. وأكدت نورة البيشي، وهي من أصدقاء الأسرة، وقد رددت ذلك أمام الكثيرين، إن النار وحدها انطفأت لما علمت بموت ماجد العدوان!

٣

شجرة اللوز تحمل لوزاً، وشجرة الجوز تعطي جوزاً، والكرمة تعطي العنب. قد يكون العنب اسود او أخضر، مستديراً أو بيضاوياً، صغيراً أو كبيراً، لكنه يبقى في النهاية عنباً!

كل الأشجار والنباتات تفعل ذلك. أما أن تعطي شجرة ، بمفردها، اللوز والمشمش معاً، فأمر يصعب تخيله.

أُخذ الطفل الذي لم يُقبل في المدرسة العبدلية، لصغر سنه، لكي يرى الشجرة العجيبة. هكذا قيل له في ذلك الصباح.

نزل الدرجات العشرين الحادة، العالية اكثر من درجات أخرى، فوجد الباب مفتوحاً، راى أطفالاً يكنسون الباحة الفسيحة، واحداً يرش الماء واثنين يكنسان. قالت له امه: انظر! راى الشجرة. راى اللوز في جانب والمشمش في جانب اخر،تمعن بالأوراق فوجدها مختلفة من جهة لثانية. نظر بامعان إلى الساق ليتأكد ان ليس في الأمر خدعة او خطأ: الساق واحد، ومنه تتفرع الأغصان، أما الثمر فنوعان مختلفان. فرح كثيراً في داخله لهذا الاكتشاف!

بعد أن سلمت امه على الشيخ حافظ، ثم على ام أمين وامينة، وكان الطفل مشغولاً بالشجرة العجيبة، وبعد ان تأكد واطمأن، كاد يعتبر الزيارة انتهت، ويمكن ان يغادر كما جاء، لكن الشيخ حافظ طلب اليه بحزم، اقرب إلى الأمر، أن يدخل إلى الصف، اذهلته المفاجأة، فهو لم يأت لكي يصبح تلميذاً في هذا المكتب، لكنه لم يقو على الاعتراض بصوت عالٍ. نظر إلى امه طالباً ان تقف إلى جانبه وتمنع هذه الكارثة، لكن امه، لاول مرة، تبدو مختلفة، شعر انها تتخلى عنه، تتركه وحيداً في مواجهة هذا الرجل الذي سمع عنه الكثير قبل ان يراه. كاد يقول شيئاً، كاد

يمتنع، لكن كلمات الشيخ، وكانت أوضح من المرة الأولى، لم تترك له أية فرصة.

قال له:

ـ امش قدامي!

حين نظر إلى أمه في محاولة أخيرة لأن تكون معه ، لأن تحميه قالت ،وهي تحاول الابتسام :

ـ سيدك الشيخ حافظ راح يعلمك القراءة والحساب، وراح تصير أشطر من اخوتك!

وبطريقة خفية، دون تهديد، اهتزت الخيرزانة في يد الشيخ، وحين تحرك لم يجد الطفل مفراً إلا أن يتحرك أمامه.

إنه اليوم الأول في الكُتّاب!

سوف تنقضي سنوات كثيرة على ذلك اليوم، لكنه لايزال محفوراً في الذاكرة،كأنه وقع بالأمس ،بالأمس تماماً: رائحة المكان، عيون الأطفال التي تراقب القادم الجديد، كلمات الشيخ القاسية، نظراته الحادة، وأيضاً طريقته حين يمشي،بعد أن يكون قد جلس فترة طويلة على الكرسي في مواجهة التلاميذ!

لن ينتهي أبداً اليوم الأول في "المكتب"، لن يتوارى ، بل أكثر من ذلك، إنه يتجدد ويعاود الظهور في اللحظات الصعبة بعد كل تلك السنين، ويكتسب بعداً اضافياً، خاصة أيام العطل!

فالطفل الذي لم يمض وقت طويل على انتقاله إلى بيت جديد في جبل عمان،عاد حزيناً وغاضباً من "المكتب"، عاد وحيداً لأن البيت لم يكن بعيداً. شعر أنه مخدوع، وأن الجميع تخلوا عنه، كما شعر أن تلك الشجرة العجيبة لم تكن أكثر من مصيدة، وسيحاول أن يقاوم جميع الخدع والأشجار التي من هذا النوع فيما سيأتي من الأيام، وسيبقى يردد لنفسه:

شجرة اللوز تعطي لوزاً

شجرة الجوز تعطي جوزاً

وحتى الكرمة، مهما تعددت أنواعها، لاتعطي، في النهاية إلا العنب. أما أن تعطي الشجرة جوزاً ولوزاً، مشمشاً وعنباً، وأن يكون لها ساق واحدة، فليست أكثر من خدعة لصيد الأطفال.

ولا يتأخر الطفل لكي يعلن احتجاجه وتمرده، وأنه يصر على عدم الذهاب ثانية إلى المكتب. ولكي يؤكد تصميمه يرفض الأكل ويعلن الاضراب، فيسمع جدته تقول لأمه:

ـ حرام. زغيّر، وباچر خاف يحصر ويتوجع!

وحين تؤكد الأم أن لامفر من ذهابه ثانية، خاصة وأن المدرسة الحكومية لم تقبله لكي يذهب مع اخوته، ترد الجدة بغضب حزين:

ـ قبل سنة جرّيناه من حلق السبع، مات إلا شويه، فشراح تقولين لروحك باچر إذا توجع؟

ويستمر الاضراب عن الطعام إلى مابعد العصر، وحين تذهب الأم لزيارة،وبنوع من التواطؤ بين الجدة والحفيد، يأكل الطفل، لكن مقابل ذلك على الجدة أن تقف إلى جانبه في مواجهة الضغوط التي سيتعرض لها، لاجباره على الذهاب ثانية إلى المكتب. تعده الجدة، لكن تسأله عن سر الشجرة العجيبة، فيرد بغضب:

ـ مثل ما الشيخ يضرب الأولاد يضرب الشجرة، ويقول لها لازم تعطي اللوز والمشمش، وهي مسكينة، وحدها، مامعها أحد، تخاف وتسوي مثل مايريد!

لايعرف الطفل من أين أتاه الجواب أو أين سمعه، لكنه سيعجب الجدة، وسيحملها على سؤال الأم حين تعود ماإذا كان الشيخ "سحر" الشجرة وجعلها هكذا، فلما تؤكد الأم ان ليس في الأمر سحر من أي نوع، وأن الشجرة "مطعمة"، والشيخ لايضرب إلا الأولاد الكسالى، وعيب أن لايتعلم الولد، ترد الجدة بطريقةٍ لتؤكد تضامنها:

ـ خاف ناكل أصابعنا ندامة باچر إذا صار فَد شي موبالبال ولا بالخاطر.

وتنهي الأم المناقشة طالبة أن يُقفل الموضوع. ويعلن الطفل ان اضرابه مستمر إلا إذا تم التراجع عن قرار ارساله إلى المكتب، وحين يخيم الصمت يواصل اضرابه،وتداهمه الكوابيس في تلك اللليلة.

في اليوم التالي، في الصباح الباكر، سيأتي عبيدان، وباختصار شديد سيقول:

ـ يا الله

وذهبا معاً. كان عبيدان صامتاً طوال الوقت، وكان الطفل يسير وراءه، على مسافة خطوة، وكان صامتاً أيضاً. سوف ينزلان الدرج، الواحد وراء الآخر،ويستقبله الشيخ حافظ بتساؤل، ولأن ليس لدى عبيدان الكثير ليقوله، بعد التحيات والسؤال عن الصحة والأحوال، فقد سلّم الطفل بطريقة احتفالية:

ـ ياشيخنا: اللحم لك والعظم لنا، وهذا عندك أمانة!

وقبل أن ينصرف قال بطريقة صارمة، وهو ينظر إلى الطفل:

ـ وانشاء الله اسمع أنك غلطت أو قصّرت.

وبدأت الرحلة القاسية في مواجهة الحياة.

كان مكتب الشيخ حافظ هو السجن الأول الذي يتردد عليه الطفل. كان يقع في أول جبل عمان، على السفح الجنوبي، نهاية شارع خرفان، بين درج الكوربا ودرج جويبر يُنزل إليه بدرجات حادة، تتوسط الباحة الخارجية الشجرة الملعونة. إلى يمين الداخل الدار التي يسكنها الشيخ وعائلته، يُرتقى إليها بدرجات ثلاث، لتبدأ علية تظللها دالية عنب كبيرة، كانت هذه العلية، معظم أيام السنة، مكان استقبال الضيوف "والمراجعين"، والمكان الذي يقيل فيه الشيخ، وأيضاً حيث تجلس أم أمين لتقوم بمعظم الأعمال المنزلية، من تقميع البامية إلى تنقية الرز والعدس، إلى قراءة فناجين القهوة أو قراءة راحات الأيدي، لمعرفة شؤون الرزق والحب ووقائع الأيام الآتية!

المكتب في مواجهة الباب الخارجي تماماً، وهو عبارة عن غرفة فسيحة، لها شباكان كبيران، الأول إلى يسار الباب، يطل على الباحة، وكثيراً ماأمال الشيخ كرسيه ليرقب الحركة من خلاله. والشباك الثاني وسط الحائط القبلي، يتيح رؤية مساحة كبيرة من جبل الأشرفية وأطرافاً من السيل. أما الشباك الثالث، الغربي، فهو عالٍ، يسمح فقط بانارة الغرفة، ولا تبين من خلاله إلا أجزاء من السماء،وحين تتسلل الشمس الغربية عبره يظهر موشور عريض مغبّر، ويظل هذا الموشور يتحرك ويتغير تبعاً لمسقط الضوء.

أما طريقة جلوس التلاميذ، فالكبار، تلاميذ الصف العالي، كما يطلق عليهم،وعددهم بين الأربعة والخمسة، وهؤلاء هم الذين صمدوا وواصلوا، وأصبحوا الآن على وشك التخرج، إذ ستجري لهم الختمة في نهاية الموسم الدراسي، كان هؤلاء يجلسون في الوسط، مقابل الشيخ، وكانوا يدرسون الصغار أيضاً، وبعض الأحيان يؤدون خدمات يكلفهم بها الشيخ خارج المكتب.

الصفان الآخران، ويضم الأول الصغار، المبتدئين، على يسار طاولة الشيخ،والمتقدمون عليهم إلى يمين الطاولة.

تبدأ الدراسة في المكتب الساعة السابعة صباحاً أيام الصيف، والثامنة خلال فصل الشتاء. يبدأ فصل الصيف عندما تزهر شجرة اللوز والمشمش، أي عندما تزهر الشجرة العجيبة، يقول الشيخ بطريقة فخمة لكي يعلن بداية الفصل الجديد:

ـ إذا كان في واحد بينكم أعمى وماشاف زهر اللوز خليه يحضر ايديه بكرة!

وإذا كانت العادة أن تبدأ الدراسة نشيطة متلاحقة: رؤية "المراحم" التي تبرر غياب أحد التلاميذ في يوم أو أيام سابقة، إلى تدقيق واجب الخط ـ الوظيفة، إلى تسميع بعض الآيات، فغالباً مايتسلل صوت أم أمين عند الضحى معلناً مجيء زائر يريد أن يرى الشيخ، ولأمر لاعلاقة له بالدراسة، كان صوتها يأتي من العلية:

ـ ياابو أمين ... ضيوف!

ويستغل الشيخ أول فرصة ليتوقف، مكلفاً العرفاء أن ينوبوا عنه.

كان سلامة يتولى "الادارة" لجميع الصفوف أثناء غياب الشيخ، لكن لايجرؤ على الجلوس وراء طاولته، أو استعمال العصا التي يتركها نيابة عنه! وكان آخر يتولى الاشراف على تلاميذ الصف الثاني، كما يتولى "المبرزين" من هذا الصف "التسميع" للتلاميذ الصغار.

العادة أن تبدأ الأمور جدية، أقرب إلى الصرامة، لكن لاتلبث أن تتراخى،ويتغاضى الشيخ عن هذا التراخي، إلا إذا زاد عن حد معين، عند ذاك يتنحنح بصوت عالٍ ليشعر سلامة بالأمر، ومإن تصل هذه الاشارة حتى يضرب سلامة الطاولة بقبضة يده ليضع الجميع أمام مسؤولياتهم! وهكذا تنتظم الأمور مؤقتاً، حتى إذا انتهى الشيخ من المهمات الطارئة، وبعد أن يودع ضيوفه، ويصبح احتمال دخوله متوقعاً بين لحظة وأخرى، تعود الصفوف إلى انتظامها بطريقة مبالغ فيها ، ويتبارى التلاميذ في اظهار الانضباط والجدية ، فالذين " يسمعون " يرفعون أصواتهم بطريقة تمثيلية، والعرفاء يبدون حرصاً زائداً في التصحيح وطلب الاعادة، لكن هذه الحيل لاتفوت الشيخ، فما أن يدخل، وهو يهز رأسه عارفاً بما جرى خلال غيابه حتى يخرج صوته متوعداً:

ـ تيوس، الواحد منكم مايسوى الخبز اللي ياكله .....

وبعد أن يجلس وراء طاولته، ويقبض على العصا، يقول بعد أن يتنحنح:

ـ الانسانية لاتنفع معكم، لكن والله لاخلي العصا تهري جنابكم!

وويل الذي يقع في يد الشيخ غير حافظٍ درسه، أو غير كاتب واجبه، إذ يتلقى في هذه الحالة عقاباً مضاعفاً.

للشيخ حافظ قاموس خاص من الكلمات والتعابير، وله طقوسه في التصرف أيضاً. من الكلمات التي يرددها: تيس، حمار، بزونك. أما كلمة خنزير إذا أطلقها على أحد التلاميذ فلابد أن تعقبها عصا أو اثنتان. ومن التعابير الأثيرة، والتي أصبحت مثل لازمة: "داهية تسمك" "موت ياخذك" "طلطميس، الله عامي عينك وقلبك ويارين أهلك يحطّوا على ظهرك جلال حتى تجيب حق علفك".

هذه الصفات يحاول أن يطلقها على الأفراد، والتصرفات تبعاً لما يتسم به الشخص أو الحالة، لكن في أحيان كثيرة يتجاوز ذلك، كما حصل يوم هرب الديك:

ففي صباح أحد الأيام صاحت أم أمين أن الديك قفز عن الحائط وهرب، وطلبت النجدة والمساعدة.

أرسل الشيخ اثنين من الصف الأعلى للقبض على الديك. بعد أن طارداه طويلاً، وبصعوبة قبضا عليه وجاءا به مخفوراً إلى الشيخ، ماإن رآه حتى انهال عليه:

ـ يقصف عمرك. داهية تسمك، الله ياخذك ....

وبعد قليل، وقد هدأ غضبه قليلاً:

ـ ولك أنت ماتساوي العلف اللي تاكله، وفوق هذا متعبنا؟

كان الديك، وهو مقبوض عليه أثناء الفترة الأولى، يسمع ويتلفت، وفي لحظة مناسبة استطاع أن يفلت ويطير إلى ظهر الطابون. حتى ذلك الوقت كانت شتائم الشيخ تتوالى، أما حين صار الديك بعيداً وآمناً، فأخذ يصيح، وكأنه يرد على شتائم الشيخ أو يسخر منه، الأمر الذي جعل كل من رأى المشهد يغرق في الضحك، حتى الشيخ أخذ يضحك وهو يضيف:

ـ والله لاحبسك، ياابن الحرام، حتى تتخ عظامك!

سلامة، أحد اللذين كُلفا بالقبض على الديك، قال بصوت عالٍ، بعد أن تلفت، وقد أصبح التلاميذ في الشارع، وكان الجميع يتحدثون عن الديك:

ـ موته من الجوع فراح المسكين يتسبب!

سيظل مكتب الشيخ حافظ هكذا إلى أن يبني طابقاً ثانياً، وتكون أرضية هذا الطابق مرتفعة قليلاً عن مستوى الشارع، وسوف يتم اقامة درج يصل بين الطابقين، ثم لايلبث الطابق الأعلى أن يستقل، خاصة بعد أن تزوج أمين.

وإذا كان للمكتب في وقت سابق باب واحد، وظل هكذا بالنسبة للتلاميذ، فإن الشيخ لم يعد مقيداً أن يسلك هذا الطريق في الدخول أو الخروج، أكثر من ذلك أصبح يلجأ إلى التمويه، إذ يخرج من باب ويأتي من آخر، لكنه يفعل ذلك بشكل مباغت وسريع، لكي يعرف كيف تجري الأمور أثناء غيابه! ونتيجة هذه المداهمات كانت توقع عقوبات استثنائية، خاصة على العرفاء. كان، وهو يشمر عن ساعديه ليبدأ، وبعد أن يكز العريف في صدره بالعصا، وبعض الأحيان بقبضة اليد، يطلب منه أن يفتح يده، ويهدر بصوت مخنوق:

ـ من أمنَك لاتخونه ولو كنت خاين ...

وتعلو نبرة صوته مع سقوط العصا على اليد الممدودة ...

ـ واحنا امنّاك، ياخنزير، لكن طلعت النم واحد!

لكن العريف لايترك الأمر يمر هكذا، ففي لحظة مناسبة، وبطريقة لاتخلو من براعة:

ـ الحق عليّ، ياسيدي، بس قبل الضرب اسمع.

ولابد أن يسمع الشيخ، وهنا تبدأ قصة تطال احد التلاميذ الذين لهم حظوة لدى الشيخ، كأن يكون هو المتسبب بهذه الفوضى، أو أن تنقل عنه قصة حدثت خارج المكتب، أو تنقل ألفاظ أو أوصاف قالها بحق الشيخ. ولأن القصة تُروى أمام الجميع، بمن فيهم صاحب الحظوة، لابد أن يحصل رد أو اتهام مقابل، الأمر الذي يعقد المشكلة ويدخلها في طور جديد، مما يجعل الشيخ يوقف الضرب ويطلب من الجميع أن يخرجوا إلى الباحة، ليبدأ بعد ذلك تحقيقاً يعتمد على سؤال بعض الذين يثق بهم، إلى أن ينتهي إلى حل من نوع ما، وغالباً مايكون ضرب الاثنين: العريف والمتهم الآخر، وقد يتجاوز الأمر هذا الحد ليطال غيرهما أيضاً.

براعة سلامة، ونوع المساعدة التي يقدمها، تجعل الشيخ يستبقيه بعد انصراف التلاميذ وإلى مراضاته أيضاً، ويبدأ اليوم التالي وكأن شيئاً لم يحصل، سوى أن صاحب الحظوة قد تراجعت منزلته كثيراً!

تمضي الايام ثقيلة قاسية، لكن في نهايتها ضوء، إذ لابد أن يُقبل الطفل في المدرسة، ويكون مع اخوته، الذين أخذوا يعكّرون، بشكل متعمد، أيامه في المكتب، اذ أخذوا يكررون قصصاً مخيفة عن المرات التي غضب فيها الشيخ، وكيف كسّر عصاه وهو يضرب، لم يكتف بذلك انتزع من شجرة الرمان المزروعة في الزاوية قضباناً وانهال مجدداً على التلاميذ. كانوا يرددون مثل هذه القصص،ويروون، بالمقابل، مقاطع من التمثيلية التي يهيؤونها لتعرض في نهاية العام الدراسي، كما يتحدثون عن المباريات التي جرت بين مدرستهم ومدرسة أخرى، أو التي ستجري في الاسبوع القادم؛ الأناشيد التي تردد في بداية كل يوم، وتلك التي تحفظ خلال الاسبوع. ولابد أن يكون نتيجة المقارنة المزيد من الغّم والانتظار.

ذات يوم جاء أحد الأقرباء، وكان يعمل في التجارة، ولما عرف أن الطفل أرسل إلى مكتب الشيخ حافظ ضرب كفاً بكف أسفاً، وبعد أن هز راسه عدة مرات،وليثبت خطأ هذا القرار، أجرى امتحاناً للطفل:

ـ صار لك شهور في المكتب، وتعلمت الكثير، وأريدك الآن أن تقول لي: أيهما أثقل: كيلو الصوف أم كيلو الحديد!

أجاب الطفل، بارتباك، أن كيلو الحديد أثقل. ويعاود هذا القريب السؤال بالصيغة ذاتها، لكن ببطء، لكي يتيح فرصة أطول للتفكير والمقارنة، ويصر الطفل، لايعرف لماذا، إن كيلو الحديد أثقل.

ويعاود القريب السؤال، ولكن لا يتوجه هذه المرة إلى الطفل، وإنما يتوجه إلى الآخرين، وحين تبدو الحيرة على أكثر من وجه، يقول هذا القريب:

ـ يامسترخص اللحم عند المرق تندم!

ويشرح للطفل، للحاضرين، أن الكيلو هو الكيلو، سواء أكان حديداً أم صوفاً، ذهباً أم تراباً. ويستغرب أكثر الحاضرين، لكنهم يصمتون!

وفي نهاية الزيارة يصرّ هذا القريب على ضرورة انتقال الطفل إلى مكتب الشيخ سليم. لايكتفي بهذا الاصرار، يتعهد أن يتولى الأمر بنفسه، وهكذا تبدأ الرحلة الثانية، السجن الثاني، والذي لايمكن مقارنته بأي سجن آخر.

فمكتب الشيخ سليم لم يكن له وحده، إذ كان معه فيه الشيخ زكي، ولفرط التداخل أصبح الاثنان واحداً، رغم اختلاف الهيئة، واختلاف المهمات.

كان هذا المكتب وسط السوق، في الجهة الغربية من الجامع الحسيني، ولأن

للشيخين مهمات اضافية، عدا تدريس القرآن، وتعليم الأولاد القراءة والحساب،فإن الصورة التي ارتسمت بالأذهان، وفاقت أية صورة أخرى، ارتبطت بالشيخ سليم

الشيخ زكي قصير، شديد السمنة، يطفح وجهه بالنضارة والحمرة، خاصة بعد أن ينتهي من مهمته الأساسية: الأذان. كان عند ذاك يبدو شديد الرضا عن نفسه،نظراً للجهد الذي بذله في الصعود والنزول من أجل الأذان، وأيضاً لأن صوته كان قوياً صافياً ورخيماً. عدا عن ذلك فإنه المسؤول الأول عن التعليم!

أما الشيخ سليم، الطويل الضامر، فكانت تغطي إحدى عينيه "لقطة"، فتبدو هذه العين غائمة، مختلطة، أقرب إلى البياض. كانت مهماته، إضافة إلى تعليم التلاميذ التجويد، أن يؤم المصلين، وأيضاً، وهذه أخطر المهمات، وأكثرها رعباً: تغسيل الموتى.

كان تجار السوق، وأغلبهم من الشام، يفضلون أن يكون أولادهم في هذا المكتب، لقربه من متاجرهم، بحيث يمر الأولاد، بعد انصرافهم، على متاجر الآباء ليتعلموا المبادئ الأولى للمهنة وأسرارها من خلال المراقبة، ومتابعة المفاوضات أثناء البيع والشراء. كان الآباء، في مثل هذه الحالات، يبدون براعة اضافية، لكي تكون دروساً للأبناء، خاصة حين يكتشفون الأسرار، من حيث الأسعار التي اشتروا بها السلعة، والأسعار التي وافقوا على أن يبيعوا بها؛ كانوا يفعلون ذلك بعد أن تتم الصفقة، وبعد أن يغادر المشتري، الفلاح أو البدوي، والذي يتظاهر،بأشكال متعددة، إنه كان غالباً ولم يكن مغلوباً، وإنه أرغم البائع على الامتثال لشروطه!

ولاينسى الآباء أن يبعثوا مع الأطفال الحاجات التي تم شراؤها خلال النهار،وهم بهذه الطريقة يضمنون شيئين اثنين: نقل الحاجات، وقد يكون بعضها ثقيلاً، دون يتكلفوا أجراً لنقلها، والشيء الآخر: يطمئنون أن الأطفال سيذهبون إلى البيت مباشرة، دون تأخير، وبذلك يتأكدون أن ملابس الأطفال لن تتعرض للوساخة أو التمزيق وهم يجرون وراء بعضهم، بعد أن شعروا بالحرية في أعقاب يوم طويل في المكتب!

ليس ذلك فقط، إن معرفة الآباء بالشيخين، نتيجة التردد على الجامع، لسبب أو آخر، يحكم المراقبة، ويضمن بالتالي حسن التربية!

مجرد أن تكون للشيخ سليم علاقة بالموتى يقوم حاجز رهيب بينه وبين الآخرين، خاصة الأطفال. فإذا أضيفت الكشرة، والعين الغائمة، والتي يحار

الأطفال هل ينظرون إليها أو لاينظرون، ومايتولد نتيجة ذلك من رضا الشيخ أو استيائه، ثم تلك الحركة السريعة العصبية التي تميزه دائماً، ويزيدها نحول جسده وغرقه في تلك الجبة الرمادية، فيبدو وكأنه بنيان قديم على وشك أن يتفكك ويتداعى، لكنه وهو يفعل ذلك لابد أن يسقط على الآخرين أيضاً. كل هذه الأمور تجعل الشيخ سليم انساناً يولّد مشاعر كثيرة، لعل أبرزها الخوف والنفور في آن واحد.

حين أخذ ذلك القريب الطفل إلى مكتب الشيخين، وقد استقبله الشيخ زكي،سمع سؤالاً حيّره: "أهذه هي البضاعة؟" وحين تلقى الاجابة هزة رأس، لم يتوقف الشيخ عن الابتسام، وكانت يده السمينة، وقد وضعها على كتف الطفل،تشكّل ثقلاً هائلاً، أكثر من ذلك تقيم سداً بينه وبين العالم الخارجي، حتى ليبدو كل شيء، قبل هذه اللحظة، أكثر رأفة، بما في ذلك مكتب الشيخ حافظ!

إن المعلومات حول "المكاتب" والشيوخ تنتقل بين الأطفال بسرعة خارقة، تماماً كما ينتقل البرق، فالصورة عن هذا "المكتب"، وعن الشيخ سليم بالذات، تشبه حد السكين: قاسية، لئيمة، ومليئة برعب غامض.

لايقتصر الأمر على هذا، فرغم اختلاف الشيخين من حيث الهيئة، وأيضاً المهمات، إلا أنهما يبدوان شيخاً واحداً، اندمجا بطريقة عجيبة!

قال الشيخ زكي لكي يطمئن قريب العائلة:

ـ الله راضي عليكم، ياحاج، وخلصكم من الساحر، كاتب الحجب. لو ظل،هذا المسكين، عنده كان طلع مزمّر بالدنيا مطبل في الآخرة ...

وبعد قليل، وبلهجة ودية تحمل الكثير من الاطراء:

ـ لكن الله سبحانه وتعالى الهمكم ونوّر قلوبكم!

ابتسم هذا القريب أكثر مما تعوّد لهذا الثناء يأتيه من شامي، خاصة وأن تقديره للشوام فيه الكثير من الاحتفاء، "لأن كل مايفعلونه يدل على العقل والشطارة". بانت أسنانه الكبيرة وهو يبتسم، وردد كلمات غامضة.

تابع الشيخ زكي بحفاوة زائدة:

ـ لايكون لك فكر، ياحاج، البضاعة وصلت، وانشاء الله ماتكونوا إلا راضين!

وبعد قليل، وزادت ابتسامة الرجلين، تابع الشيخ زكي:

- ومن هون للعيد، الله يعيده علينا وعليكم بالصحة والسلامة، راح تشوفوا الفرق، وراح تقدّروا تعبنا!

كان مكتب الشيخين في الجهة الغربية للجامع، له باب يقود إلى الصحن مباشرة. يتألف من غرفتين فسيحتين، تبدو كل واحدة منهما أكثر اتساعاً حين تكون فارغة، أما إذا اكتظت فإنها أشبه بحظيرة للغنم.

الغرفة الداخلية للصغار والثانية للكبار.

حين لايشغل الموت الشيخ سليم يتولى صفاً من الاثنين، بينما يتولى الشيخ زكي الآخر. ورغم انفصال الغرفتين إلا أن الدوي الصادر من احداهما لايلبث أن يسري إلى الأخرى، ولذلك يبدو الجو مشحوناً، دائماً، بأصوات كثيرة متداخلة، وغالباً ماتكون صماء لاتصل بوضوح أو لاتفهم، ولذلك يكون انتقال الكلمات داخل الصف ثقيلاً ملتوياً، تماماً كمن ينظر للأشياء من وراء زجاج محجّر، أو كمن ينظر في الماء. فليست الكلمات التي تقال في الصف وحدها التي تسمع، وإنما تختلط مع تلك الآتية من الصف الآخر، من السوق، من أمكنة بعيدة، والتي تصل عبر النافذة، عبر صحن المسجد، الأمر الذي يجعل "الحفظ" شديد الصعوبة، مما يثير الشيخ زكي، فيعتمد على الفلقة لكي تكون أداة توصيل لهؤلاء الذين لايريدون أن "يحفظوا"! وغالباً ماكانت ترفع الفلقة كل يوم!

إذا انشغل الشيخ سليم لابد أن يتولى أحد مكانه، وغالباً يكون أحد الكبار من الصف الآخر، وبعض الأحيان عريف الصف. والشيخ زكي يتدحرج، مرة بعد أخرى، بين الصفين، لكي يتأكد أن الأمور تسير بشكل طبيعي. كان، وهو يتحرك،يشبه البطة السمينة، أو كما يرتج الماء في وعاء كبير. كان كل عضو فيه يتحرك بمفرده، ولولا ذلك الثوب الذي يحكمه حزام قوي من القماش المائل إلى الصفرة لتبعثر، لما أمكن لهذه الكتلة الهائلة من اللحم أن تبقى واحدة أو متماسكة!

الطربوش الأحمر، القاتم في الشتاء، الاقل قتاماً في الصيف، لايغادر رأس الشيخ زكي. كان يتعمد أن يرتديه باستمرار لكي يبدو أكثر طولاً، فإذا اضطر إلى خلعه، خاصة في بعض أيام الصيف، فكان يفعل ذلك لفترة قصيرة، ريثما يمسح صلعته من العرق، أو ليثبت منديلاً تحت الطربوش. إذا ثبت المنديل يبدو انساناً مضحكاً، وقد تدلت زوايا المنديل الأربع من كل النواحي، الأمر الذي كان يضطره لأن يرفع المنديل بعض الأحيان، خاصة إذا لمح ابتسامات من نوع معين.

صلاة الأطفال في الجامع الزامية، خاصة وقتي الظهر والعصر، وإذا كانت

مثل هذه الصلوات تؤدى بطريقة آلية، لأنها أقرب إلى الواجب، فإن صلوات أخرى كانت تؤدى بطريقة عصبية، وتثير الكثير من الرهبة، كانت مثل هذه الصلوات تتكرر بين فترة وأخرى، إنها الصلاة على الموتى! وكانت تتفاوت من حيث العناية والاهتمام، تبعاً لأهمية الميت، ومدى حرص الشيخ سليم على ذلك!

أكثر من مرة أُخرج التلاميذ من الصفوف، وطلب إليهم أن يحضروا جميعاً،وبطريقة احتفالية، "لأن الميت عزيز" أو "لأن الميت رجل صالح، والصلاة عليه تكسب المؤمن ثواباً اضافياً" وصلاة من هذا النوع تولّد في قلوب الأطفال خوفاً لاينتهي، وهذا الخوف يلاحقهم في الليل والنهار.

قالت الجدة، بعد أن عرفت بعض التفاصيل التي اسرّ لها بها الحفيد:

- أخذتوه لمكتب السحّار، أبو شجرة الزقزم، قلنا هذا اللي الله قسمه، ضمينا همنّا ودردرنا، وقلنا مايخالف ...

تستريح قليلاً ثم تتابع بلهجة جديدة، وكأنها تخاطب نفسها:

- شلون مصيبة هذي؟ شلون بلوى ابتلينا بيها؟

وتعود إلى اللهجة السابقة:

- شوفوا ... شلون صار المسكين، صار جلد وعظم. راح يموت، وماكفاكم، صار يصلي على الموتى...

وتغيرت اللهجة، أصبحت غاضبة تماماً:

- قولوا لي، شنو تريدون يصير: حفار قبور؟

واختلفت اللهجة مرة أخرى، أصبحت ساخرة:

- وين القراية؟ وين النشيد؟

ولم تجد الاحتجاجات ولا الكوابيس او سخرية الاخوة، إلى أن حدثت تلك الواقعة: فذات يوم، كان الشيخ سليم يعلّم الأولاد الصغار سورة "إنا أعطيناك الكوثر". كان يتلوها مجوّداً، ويطلب أن يُردّد وراءه بنفس الطريقة وبنفس الغنّة،ومن أجل الوصول إلى الإجادة والايقاع الصحيح أخذ يهتز اهتزازاً رتيباً،ويطلب من التلاميذ أن يفعلوا مثله، ولأن "الحال" أخذه "والدور" سيطر عليه كان يغمض عينيه، أو بالأحرى يغمض عينه الصحيحة. وفجأة دبّ صوت الفزع. كان في البداية

صوتاً واحداً ، ثم أصبح أصواتاً كثيرة. لم يقتصر الأمر على الأصوات وحدها إنما رافقها الهرب ورفع الأرجل والتدافع.

ماكاد الشيخ يفتح عينه حتى رأى عدداً كبيراً من الضفادع يتقافز في كل مكان!

وبسبب الفوضى والصراخ واخراج التلاميذ من الصف الأول ثم من الصف الثاني، لم يُعرف بدقة من الذي أتى بالضفادع، أو من الذي أطلقها!

إنه يوم مشهود من أيام مكتب الشيخين، فقد انتهى ذلك اليوم بالكلمات التالية التي أطلقها الشيخ سليم:

- معكم من اليوم لبكرة، إمّا تعترفوا من قام بالعملية، أو حضروا حالكم لعقاب ماشفتم مثله!

وانتشرت أخبار، أخذت تتأكد لحظة بعد أخرى، أن العقاب الذي سيوقعه الشيخ سليم بالتلاميذ أن يحبسهم في غرفة الموتى، الغرفة التي تعوّد الأطفال الا ينظروا إليها، وكانت في مدخل الجامع، ناحية اليسار، إذ كان يجري فيها غسل الموتى الفقراء، أو الغرباء الذين لابيوت لهم، وكان الأطفال يتعمدون عدم الاقتراب من تلك الغرفة، ويلجأون ، أغلب الأحيان، إلى الدخول والخروج من الباب الشمالي.

تراجع الشعور بالفرح الداخلي الذي تولد نتيجة الانتقام من الشيخ، خاصة بعد أن زال الفزع المفاجىء الذي أعقب اطلاق الضفادع، وحل مكانه الشعور بالندم ثم بالخوف، أما حين تأكد أن العقاب سيكون الحبس في تلك الغرفة، فقد سيطرت حالة من الرهبة أقرب إلى الرعب.

أما كيف نقل الطفل إلى أمه وجدته ماحصل فقد كان يتكلم وهو يبكي، وكان بكاؤه أقرب إلى الغيظ، ثم أعلن أنه لن يذهب الى المكتب مهما حصل، وإنه يفضل أن يموت هنا لا في تلك الغرفة المرعبة.

وبكثير من الجهد أمكن الوصول إلى تسوية مؤقتة: "لاتروح للمكتب بكرة، وبعدها نشوف".

ولم يعد الطفل نهائياً إلى مكتب الشيخ سليم.

ولأنه من غير اللائق، أو المناسب، اعادته إلى مكتب الشيخ حافظ، فقد تم

الاتفاق، بعد أيام طويلة من المناقشة والاقناع والمحاولات، أن يلحق بمكتب الشيخ عبد، ولفترة محدودة، ريثما يُرتب أمر قبوله في المدرسة الحكومية.

يقع مكتب الشيخ عبد في الشابسوغ، غير بعيد عن المدرج الروماني. كان الشيخ رجلاً مسناً أقرب إلى العجز، إذ لايستطيع النهوض إلا بصعوبة، وإذا مشى لابد أن يستند على أحد أو إلى الجدار.

أما المكتب فهو عبارة عن غرفة واحدة في زقاق طويل مغلق، على جانبي الزقاق بيوت من طابق واحد أو طابقين. لم تكن تمديدات المياه قد وصلت إلى معظم هذه البيوت، ولذلك كانت إحدى مهمات التلاميذ جلب الماء للشيخ، ولرش الزقاق، وأيضاً للذين يستعينون به طالبين مساعدته "لأن الطبخة احترقت ياشيخنا" أو "لأن الضيوف سيصلون بين لحظة وأخرى". كان الشيخ عبد لايتردد في تلبية مثل هذه الطلبات، لأن النتائج التي تترتب، كمقابل، لهذه المساعدة، لن تتأخر، خاصة وأن الشيخ كان وحيداً دون عائلة، وكان يقبل أن يتقاضى أجوره لقاء تدريس التلاميذ مواد عينية كالبيض والزيت والعدس، كما يقبل أن تُدفع الأجرة أسبوعياً بدل أن تكون شهرية.

يجلس الشيخ في صدر الغرفة، والجلوس في هذا المكتب على الأرض، بعد أن ينزع الأطفال أحذيتهم في المدخل ناحية اليسار، لأن الزير الكبير، المملوء دائماً،كان يحتل الناحية اليمنى للمدخل. ولاحاجة للحديث عن رائحة المكان،خاصة وأن الهواء لايدخل إلا من الباب فقط، اذ تخلو الغرفة من أي نوع من الشبابيك.

لدى الشيخ عصا طويلة تكاد تصل إلى جميع الأطفال، وكانت، أغلب الأحيان، مرفوعة فوق الرؤوس، لاستعمالها عند الضرورة، أو للاشارة إلى بعض الحروف والكلمات المرسومة على اللوح!

معظم تلاميذ المكتب في "صف" واحد، لأن مستواهم متقارب، ولذلك فإن الدرس، أي درس، للجميع، وغالباً ماتقتصر الدروس على قراءة القرآن، وبطريقة منغمّة قليلاً، خلافاً لطريقة الشيخ سليم الفخمة.

إذا نظر الانسان إلى الغرفة أثناء الدروس يشهد كتلاً صغيرة تهتز كالنوابض، كانت تهتز إلى الأمام وإلى الخلف، تماماً كما يفعل الشيخ. أما الأصوات فإنها أقرب إلى النشاز، ولذلك تتحول الكلمات إلى ضجة صماء يصعب تمييزها، حين يلاحظ الشيخ سهواً من أحد التلاميذ، وأكثر مايتبدى ذلك من غياب

حركة الشفاه أو الجسد، فلا بد أن يستعمل عصاه، ويعاود الجسد نواسه متناغماً مع الحركة العامة.

وهكذا تنقضي الساعة في هذه الرياضة الاجبارية، حتى إذا انتهت كلف الشيخ بعض التلاميذ الكبار لجلب الماء، وطلب من المتقدمين أن ينسخوا آية أو صفحة من كتاب القراءة، والتفت إلى الصغار المبتدئين.

كان يطلب من أحد التلاميذ الكبار أن يخط على اللوح عدداً من الحروف يمليها عليه ويبدأ، يردد والصغار وراءه:

الألف لاشين عليها

والباء نقطة تحتيها

والتاء نقطتين فوقيها

وتظل هذه الأنغام تتردد بشكل بدائي، وبطريقة ببغائية إلى أن يتعب الشيخ أو يمل، فيكلف أحد التلاميذ الكبار أن يحل مكانه في ترديد العبارات السابقة، إلى أن تتحول إلى شيء أقرب إلى الغناء، عند ذاك ينهي الشيخ الدرس، خاصة وأن هناك ضرورة لكي يؤمن غداءه، ولأن يستريح

قبل أن ينقضي شهران تم قبول الطفل في المدرسة العبدلية، وانتهت الرحلة الأولى في الكتاتيب، عدا بعض العطل الصيفية.

قالت الجدة بعد أن أُعلن عن نهاية الرحلة الأولى، وهي تتطلع إلى الطفل بمودة:

ـ شوفوا شلون صار المسكين: جلد وعظم، وكان راح يموت . .

وبعد قليل كأنها تخاطب نفسها :

ـ وين القراية .. وين النشيد؟

وخفضت صوتها أكثر من قبل وهي تضيف:

ـ ظلاّم، مايخافون من الله، كانوا يريدونه يغسّل الموتى أو يصير حفار قبور!

٤

عند تلاقي الطريق النازل من جبل عمان، من ناحية الشمال الغربي، بطريق وادي السير، وعلى بعد أمتار من قيادة الجيش، مقر كلوب باشا، وغير بعيد عن المفوضية الانكليزية، ثم السفارة بعد ذلك، كانت المدرسة العبدلية.

والعبدلية واحدة من المدارس الابتدائية الثلاث الحكومية في عمان أوائل الأربعينات. ولكونها في غرب المدينة فقد التحق بها عدد كبير من التلاميذ الذين يسكنون في تلك البقعة الواسعة، بدءاً من رأس العين والمصدار، مروراً بالمهاجرين، ثم سفحي الجبل الجنوبي والشمالي، حتى السوق، خاصة في الجهة الغربية منه إلى طريق وادي السير.

أما المدرسة الثانية فهي العسبلية، وتقع شرقي المدينة، بالقرب من المدرج الروماني. ثم مدرسة العجلوني في جبل اللويبدة، وكان عدد التلاميذ في هذه المدرسة أقل من المدرستين السابقتين.

ثم هناك مدرسة التجهيز أو الثانوية، وكانت تضم بعض الصفوف الابتدائية،اضافة إلى خريجي المدارس الثلاث السابقة الذين يريدون مواصلة الدراسة الثانوية حتى الصف العاشر، إذ يفترض بعد ذلك أن يلتحق الناجحون والقادرون بمدرسة السلط لكي ينهوا الدراسة الثانوية هناك.

تقع مدرسة التجهيز في منتصف السوق، ولاتبعد إلا مسافة قليلة عن الجامع الحسيني وقهوة المنشية. فيها باحة واسعة مليئة بالأشجار والأدوات الرياضية، وربما كانت في فترة سابقة ثكنة عسكرية.

وإذا كان لمعظم المدارس باب واحد يدخل ويخرج منه التلاميذ، فإن للعبدلية بابين الأول نظامي ويستعمل في الصباح وعند الانصراف، والآخر يتسلل منه

التلاميذ المتأخرون، أو الذين يودون الهرب عندما تتاح لهم الفرصة! كان هذا "الباب" عبارة عن فتحة في الجهة الخلفية من السور، نهاية السفح الحاد، حيث توضعت المدرسة في ذلك التجويف بين شارعين، الأول من الأعلى، ويطل مباشرة على المدرسة، والثاني يقود إلى السوق وطريق وادي السير من جهة، وإلى جبل عمان من الجهة الثانية

عدد الصفوف في العبدلية خمسة، وهي موزعة على طابقين، في الطابق الأول الادارة، أو بالأحرى المدير، وغرفة المعلمين، وفي الجهة المقابلة الصفان الرابع والخامس. أما في الطابق الثاني فالصفوف الثلاثة الأولى، اضافة إلى باحتين صغيرتين، واحدة جنوبية، والأخرى شمالية.

العادة أن يصطف التلاميذ كل صباح في الباحة الجنوبية لأداء نشيد "عاش الأمير" بعد أن يكون المدير، يوسف الجيوسي، قد استعرضهم، ليتأكد من اللياقة والنظافة، وكانت العصا، أغلب الأحيان، لاتفارق يده، إذ يمر ببطء، ورأسه يرتفع وينخفض بطريقة آلية، وهو يتفحص الوجوه والملابس، وحالما ينتهي من الاستعراض يصرخ فيخرج صوته حاداً:

ـ استرح

تتحرك الأجساد المشدودة، ترتخي قليلاً، لكن الايعاز الثاني لايلبث أن يشدها مرة أخرى:

ـ استعد

وبعد الاستعداد:

ـ إلى اليمين در.

ثم بعد قليل:

ـ سر بالتتابع

ويبدأ الصف الخامس بالتحرك، أما الصفوف الأخرى فتبدأ بالتحرك الساكن،حيث ترتفع الأرجل وتنخفض بانتظام إلى أن ينتهي الصف الخامس فيتبعه الرابع، وهكذا حتى الصف الأخير.

وإذا كانت صفوف الصباح تأخذ هذا النسق، فإن للانصراف نسقاً آخر، إذ يصطف التلاميذ في طابورين كبيرين، حسب مكان السكن. يتجه الطابور الأول

نحو جبل عمان والآخر نحو السوق، ولابد أن يخرج التلاميذ بانتظام إلى مسافة معينة، وهذه المسافة، رغم التشديدات المستمرة، لايمكن أو لايجري التقيد بها في أغلب الأحيان، إذ تتضاءل سلطة العرفاء أو تنعدم مع كل خطوة يبتعد بها الطابور عن المدرسة.

الباحة الشمالية، وهي سطح الادارة وصفوف الطابق السفلي، يتجنبها التلاميذ في معظم الأحيان، لأن لا أحد يجرؤ على الركض أو الصخب هناك، خوفاً من العقاب، اضافة إلى أن المعلمين، في حالات معينة، يفضلون التمشي والتدخين في هذه الباحة.

اليوم الأول في المدرسة يوم خاص، لاينسى. ففيه يبدو كل فرد وكأنه انسان آخر. المدير والمعلمون والتلاميذ. حتى الآذن، أبو حلمي، يبدو في اليوم الأول انساناً مختلفاً: يقف في نهاية الساحة، عند قمة الدرج، وقد ارتدى ملابس أنيقة لاتختلف عن ملابس المعلمين، حركته سريعة تنم عن قلق، ونظراته موزعة بين الطوابير وبين نقطة في الأعلى، وكأنه ينتظر شيئاً أو أحداً، الأمر الذي جعل أغلب التلاميذ يتساءلون ويتطلعون، ولم تعرف اجابة لهذا التساؤل إلا بعد فترة من الزمن، إذ عرف الجميع أن خوف الآذن ناجم من خوف المدير، لأن بيت عبد القادر التنير، المفتش، يطل على المدرسة مباشرة، وهذا بالاضافة إلى المراقبة، يعني احتمال زيارة المفتش للمدرسة في أي وقت، خاصة وأن مثل هذه الزيارة تحدث دوياً يستمر وقتاً غير قصير، وتخلف نتائج تنعكس على الجميع. لذلك كانت وقفة الآذن تحكي خوفاً لايمكن كتمانه أو تمويهه، وكانت "عيناه عشرة على عشرة" كما طلب منه المدير، لكي لاتقع زيارة مفاجئة من المفتش.

ومن أجل تجنب هذا النوع من المفاجآت عقد أبو حلمي، في وقت لاحق، حلفاً ضمنياً بينه وبين سمير التنير، ابن عبد القادر، إذ مايكاد يراه حتى يحييه ببشاشة، ثم يسأله عن صحة البابا "ومتى سيشرفنا بزيارته"، ولأن اجابات الطفل لاتكفي،وأغلب الأحيان سلبية، خاصة حول موعد الزيارة، فقد كان أبو حلمي لايرتاح ولايهدأ إلا بعد أن يتأكد بنفسه من تجاوز المفتش للمدرسة وتوجهه نحو وزارة المعارف.

في اليوم الأول، وبطريقة ماكرة، لاتخلو من براعة، مثّل كل انسان في المدرسة دوراً ، فالمدير بدا أكثر صرامة، والمعلمون، خاصة الجدد، بدوا أكثر ارتباكاً، أما التلاميذ فكانوا أكثر نظافة وتهذيباً مما هم عليه في العادة. حتى

خيزرانة يوسف الجيوسي التي اهتزت تهديداً في الصباح، لم تلبث أن استعملت عدة مرات أثناء اصطفاف التلاميذ في طوابير الانصراف، خاصة مع الصغار الذين أخطأوا في اختيار الطابور الذي يجب أن يلتحقوا به.

ولأن سمير التنير طالب مستجد، وفي الصف الأول، فقد افترض المدير أن زيارة المفتش لابد أن تكون متوقعة بين يوم وآخر، وفي وقت أقرب مما تعود عليه في السنوات السابقة، ولذلك بذل جهداً خاصاً، بالتعاون مع معلم الصف، لكي يتقن التلاميذ نشيد: "أنا القهوة".

لقد مضى على تعلم ذلك النشيد مايزيد على الخمسين سنة، لكن صداه لايزال يتردد:

أنا المحبوبة السمـــرا   اجلى بالفناجيــــــــن

وعود الهند لي عطـــر   وذكري شاع في الصين

كان المدير يقف في الزاوية البعيدة عن الباب، وقد استبدل عصا الخيزران بمسطرة، وأخذ يردد النشيد، وهو يوقّع بالمسطرة على راحة يده الممدودة، كان يفعل ذلك، لكي يخلق نغماً يساعد التلاميذ على حسن وسرعة تعلمه. بعد أن يعيد النشيد مرتين أو ثلاث مرات يطلب من كل تلميذ أن يردده على انفراد. ورغم قصر المسطرة، إلا أن لذعة ضرباتها لاتُنسى حين تقع بحرفها على يد الذي يخطئ أو لايجيد النغم!

وإذا كان يوسف الجيوسي حازماً أقرب إلى الصرامة، فإن حجمه الصغير يعطي انطباعاً مغايراً، خاصة إذا ترافق مع الصوت الحاد الذي يشبه الاستغاثة. ولقد تأكد هذا الانطباع بعد ايام من بدء الدراسة، حين جاء بملابس الكشافة.

كان يرتدي بنطالاً قصيراً وقد علق مجموعة من الأوسمة، اضافة إلى القياطين التي تتدلى من الكتفين، أما السدارة فوق رأسه فقد بدت شديدة الغرابة، إذ لم يتعود التلاميذ رؤيته إلا بالطربوش. بدا بهذه الملابس أصغر سناً وحجماً،ولايختلف عن تلاميذ الصف الخامس. أما حين رافق التلاميذ برحلة إلى عين غزال، بعد عدة شهور، وكان بملابس الكشافة أيضاً، فقد كان مرحاً، ورآه الكثيرون يضحك بطريقة أقرب إلى القهقهة!

وسوف تتأكد هذه الصورة للأستاذ الجيوسي حين استبداله، بعد فترة، بمدير العسبلية: سليمان عطور.

فالمدير الجديد، والذي كان يسكن غير بعيد عن المدرسة العبدلية، في الطابق السفلي لبيت عصفور، أقرب إلى هيئة ضابط، خاصة ضابط تركي، بشكله وسلوكه وطريقته في الكلام!

كـان يرتدي، أغلب الأحـيـان، السـواري، وهو البنطال الذي يرتديه الخيالة،اضافة إلى الحذاء عالي الرقبة، ويضع على رأسه القلبق القوقازي في الأيام غير الماطرة. اما حين تمطر السماء فيستبدل القلبق بغترة، فيبدو وكأنه متنكر، إذ بعد أن كان شكله أقرب إلى شكل كمال أتاتورك، يظهر في الغترة وكأنه أحد الأفندية في الثورة السورية وقد ارتدى الملابس الافرنجية وجاء ليتخفى بين البدو!

مشية سليمان عطور، في الذهاب إلى المدرسة أو العودة منها، عسكرية، شديدة الانتظام والصرامة. أما في المدرسة فلا يتغير في المشية سوى سرعتها، تصبح أكثر بطئاً وثقة، وأقرب ما تكون لخطوات قائد يستعرض قواته ويفكر بأمر خطير في نفس الوقت، وما يزيد انتظام الخطوات الصوت الذي يخلفه الحذاء، اضافة إلى اهتزاز العصا!

ومثلما كانت للأستاذ عطور مشية خاصة، كانت له مجموعة من العصي.

الأولى للشارع: قصيرة، غليظة، فيها نتوءات صغيرة، خاصة في القسم العلوي، وهي من النوع الذي يستعمله كبار الضباط، وربما كان لديه أكثر من واحدة رغم تشابه الألوان. أما الثانية، وكان يستخدمها في المدرسة، وخارج الادارة، فهي من الخيزران الغليظ، لها رقبة، وأطول من العصي العادية، وأشبه ماتكون بالعكاز. كان يقتصر استعمال هذه العصا على الوكز والشد، فإذا رأى تلميذاً في وضع يخل بانتظام الصف وكزه في صدره لكي يصبح بسوية الآخرين. أما إذا أراد معاقبة أحد المذنبين فيقلب العصا، وبخفة يعلّق رقبة ذلك التلميذ بعقفة العصا ويجره، وبصوت يخرج من بين الأسنان يطلب منه الانتظار عند باب الادارة.

وفي الادارة يبدأ دور العصا الثالثة، وهي خيزرانة ليست طويلة وليست قصيرة،ليست غليظة وليست رفيعة، وتستعمل للضرب فقط.

يندر أن يكون تلميذ مرّ بالعبدلية، وربما بالعسبلية، خلال ادارة سليمان عطور،ولم تنله واحدة من العصوين الثانية أو الثالثة. كان يعتبر العصا أفضل معلم، خاصة للكسالى والمذنبين، وكان رغم قسوته، عادلاً، لايفرق بين غني وفقير،

بين كبير وصغير، لأنه كان يعاقب الشيطان، كما قال ذات مرة في حفلة نهاية السنة، داخل التلميذ، هذا الشيطان الذي يلهي عن الدراسة أو يحرض على التدخين والهرب من المدرسة!

في حالات الخطأ، وبعض الأحيان، الاهمال: "لابد من كم عصا لمن عصى" وكان عدد العصي يتناسب مع حجم الخطأ أو الاهمال، وأغلب الأحيان على اليدين، أما في حالة الخطأ الجسيم، كالهرب من المدرسة أو التدخين، فلا بد أن يجلس المخطئ على الأرض ماداً رجليه، بعد أن يكون قد تلقى الأمر الذي لايحتمل أية مناقشة: "اخلع". وبطريقة بارعة يدوس سليمان عطور على قصبتي الساقين، ليثبت القدمين، ويبدأ الضرب والعد معاً، دون أن يوجه نصائح، دون أن يصرخ أو يشتم، وبعد أن ينتهي، ويكون التلميذ قد أوشك على التلف، تخرج الكلمات القليلة، وتكون شديدة الوضوح:

- إذا هربت مرة ثانية ... إذا دخنت مرة ثانية .. راح تموت بين يدي!

وبعد قليل وبصوت مليء بالقسوة:

- فهمت؟

ويكون الجواب هزات رأس متواصلة، فيصرخ :

- ياالله .. انقلع من وجهي.

وبطريقة المرعوب يهرول التلميذ، وهو يحمل حذاءه، غير شاعر أو غير عابئ بالألم، فقط يريد أن ينجو!

ومن "رأس روس" الدرس الأول الذي يتعلمه التلاميذ في الأيام الأولى، إلى "في أول تشرين الأول تفتح المدارس أبوابها ويعود التلاميذ إلى مدارسهم بعد العطلة الصيفية" بداية قراءة الصف الثالث، يجد التلاميذ أن الكلمات التي خطوها على الألواح في نهاية السنة الدراسية الماضية لاتزال موجودة. من تلك الكلمات: "الوداع يامدرستي الحنونة، الوداع إلى لقاء قريب"، ويجدون أن العطلة الصيفية، رغم طولها، قصيرة، لكن مع ذلك فهناك علاقات وصداقات لايمكن أن تكون إلا في المدرسة، ويكتشفون أن كل شيء تغير، وأنهم تغيروا أيضاً، يعرفون ذلك وهم ينظرون إلى بعضهم، وحين ينظرون إلى معلميهم والمدير، فيتذكرون أشياء كثيرة عزيزة.

فالأستاذ داود لم يعد ذاك الذي يصرخ ويضرب فقط، بل الصورة الأوضح له،وهم يلتقونه من جديد، ذاك الذي يضحك مثل طفل تكركره أمه، وهو يرى أحد التلاميذ يقلد حركاته وطريقته في الكلام أثناء الحفلة في نهاية السنة الدراسية. كما يتذكرون أنه ذاك الذي أوقف الدرس فجأة حين سمع العصافير تزقزق بطريقة غير مألوفة، وكيف التقط الحية التي ابتلعت عصفوراً، بعد أن أدركها وهي تدخل شقاً في الجدار، إذ أمسك بذيلها، وبعد أن راوغها باشعارها أنه يتركها، جرها بقوة ولاحها في الهواء مرتين أو ثلاث مرات ثم ضربها بالارض والحائط فسقطت تتلوى فداس رأسها وقتلها، وكان العصفور الذي ابتلعته لم يزل يتلوى في بطنها.

وفي الدرس الأول، والتلاميذ ينظرون إلى الأستاذ داود ليكتشفوا أية تغيرات حصلت خلال ذلك الصيف، يتذكرون كيف وقف السنة الماضية بحزن بالغ ومؤثر،وهو يبلغهم بوفاة زميلهم أحمد اسماعيل، الذي داسته سيارة، وكيف طلب منهم أن يقفوا بضع دقائق حداداً على روحه. ومما قاله في ذلك اليوم، أن أحمد اسماعيل، لو قدر له أن يبقى حياً، وأن يواصل دراسته، لربما أصبح ذات يوم رجلاً كبيراً وخطيراً، وأن كل واحد منهم يمكن أن يكون هكذا في المستقبل إذا اجتهد، فشعروا بالاعتزاز والحزن معاً وشعروا بالهّم ايضاً.

لم يكن الأستاذ داود وحده الذي يثير فضول التلاميذ وتساؤلاتهم، كان الأساتذة الآخرون كذلك.

فالأستاذ مولود، بروحه الساخرة، وخطه الشديد الجمال والأناقة، وجسده الرياضي القوي، رغم قصره، وتلك البراعة التي يتميز بها وهو ينقف قطع الطباشير على أولئك الذين يشاغبون أو يتكلمون أثناء درسه ... الأستاذ مولود يثير الفضول لتعدد مواهبه ونشاطاته، فقد تعود أن يراه التلاميذ، بعد الانصراف من المدرسة وأيام العطل، وهو يعلف البقر، أو يساعد في حمل أكياس الحنطة، وهو ينضح الماء من البئر. ورأوه ذات صباح يجرف الثلج عن سطح البيت، فتجرأوا ورشقوه بكرات من الثلج، ضحك كثيراً وهو يستند إلى "الكريك"، وأشار إليهم، بجمع يده: أن انتظروا، فظنوا أنه سينتقم منهم في أحد دروسه، لكن ماكادوا يستديرون إلى الناحية الثانية من المنعطف حتى انهالت عليهم كتل من الثلج المندوف، فلما رفعوا رؤوسهم رأوا الأستاذ مولود!

لقد تعلم أكثر تلاميذ العبدلية، خلال تلك الفترة، الخط الجميل، أو حب الخط، من الأستاذ مولود، ولم يكن الشركسي الوحيد الذي يتمتع بهذه الموهبة،كان شوكت، زميل الصف، لايقل عنه موهبة، إذ يخط نهاية كل سنة كلمات جميلة وسط

يدين تتصافحان بقوة، دلالة الصداقة والمودة، ويهديها إلى رفاقه. كما كان هؤلاء الرفاق يستعينون به لكي يخط لهم أسماءهم على دفاترهم. أما الكلمات التي تُخط على اللوح في وداع سنة مدرسية وانتظار التي تليها، فكان شوكت يتفنن في خطها وتزيينها.

لايقتصر عمل الأستاذ مولود على التدريس فقط، إذ كان يتولى التدريبات الرياضية، والاشراف على تمثيلية نهاية السنة.

تطلع، ذات يوم، بدهشة، إلى أحد التلاميذ، وكان يردد النشيد، وقبل أن ينتهي، قال له بانفعال، وبكثير من الحزم: تعال.

وهذه الكلمة الصغيرة تثير فزعاً في قلب أكثر التلاميذ جراة، لأن الجميع يعرفون الصفعة القوية، والتي تترك آثاراً ليس على الخد، بل وفي الأذنين أيضاً، وقد تستمر أياماً، حين يصفع الأستاذ مولود أحد التلاميذ نتيجة خطأ ارتكبه. صحيح أنه لم يلجأ إلى هذه الطريقة إلا مرات قليلة، لكنه جعل الجميع يخشونه ويحاولون عدم ارتكاب خطأ يثيره.

ماكاد التلميذ يصل إلى الطاولة التي يقف قربها الأستاذ مولود، وكان خائفاً مرتبكاً، حتى قال له:

- ردد معي: ياطير الحمام ابكي على فرقتي

ياطير الحمام احمِ مدرستي

ضج التلاميذ في ضحك متواصل، لأن الأستاذ مولود لم يكن يلقي كلمات،كان يغني، وكان يريد من التلميذ أن يفعل مثله، والتلميذ الذي فوجئ،وأخذ ينقل نظراته بين الأستاذ ورفاقه، لا يعرف كيف يتصرف أو كيف يستجيب. بعد أن هدأ الضحك، وقد شارك فيه الأستاذ مولود أيضاً، قال:

- أريد واحداً مناسباً لكي يغني هذه الأغنية في تمثيلية نهاية السنة...

وبعد قليل وهو يتمعن بوجه التلميذ:

- أنت الذي سيغني هذه الأغنية.

وهذا ماحصل بالفعل، لم يقتصر الامر على أن يؤدي ذلك التلميذ تلك الأغنية، أصبح اسمه، منذ ذلك اليوم: يا طير الحمام!

والأستاذ زغلول، وكان يسكن في جبل اللويبدة، مقابل العبدلية، صدف مرات كثيرة أن راقبه التلاميذ وهو يغادر بيته في طريقه إلى المدرسة وتراهنوا، وكيف أن الذين يربحون الرهان يبتسمون ويتغامزون، وحين لايفهم الاستاذ زغلول سبباً للابتسام أو الحركات يصبح عصبياً، ولأنه لم يتعود الضرب كان يصرخ بأعلى صوته:

ـ ياأبو حلمي ... ياأبو حلمي

وما إن يظهر الآذن حتى يطلب منه ان يأخذ اثنين أو ثلاثة إلى الادارة، ويشير إلى آخر من ابتسم، الى من نظر إليه بطريقة لم ترقه، ويوقع المدير العقوبات على هؤلاء، وتكون غالباً خفيفة، دون أن يعرف الجرم الذي ارتكبوه!

والأستاذ ابو كلام، رغم أن سبابة يده اليمنى مقطوعة، كان يحسن استعمال القلم والطباشير، والمسطرة أيضاً، ببراعة، اعتماداً على الابهام والاصبع الوسطى. كان يخط على دفاتر الواجب كلمات لفرط ماكررها، أصبحت مألوفة وذات دلالة محددة: يكتب للكسول أو المخطئ: "الكسل طريق الفشل"،"العقل للعمل لا للهبل"، ويكتب للمجِّد: "ربي زدني علما" أو "من طلب العلا سهر الليالي". وكان يخط على اللوح، بحروف كبيرة وواضحة، وإن لم تكن بجمال خط الأستاذ مولود، كلمات اذ يطلب من التلاميذ استعمالها في جمل مفيدة وذات معانٍ هامة، وويل لمن تكون جملته ركيكة أو ليست ذات معنى كبير، ثم يصبح ليس فقط موضع سخرية الأستاذ، بل وسخرية التلاميذ أيضاً. فإذا لم تكف السخرية فلابد عندئذ من استعمال المسطرة. كان الأستاذ أبو كلام شديد البراعة وهو ينقر اصبع التلميذ بمسطرته، إذ تنزل المسطرة بخفة وقوة، خاصة على ظاهر اليد والأصابع. كان يقول للتلميذ: "ضع اصبعك على الكلمة" فما يكاد يشير إليها حتى يحس بالنقرة وكأنها المسمار ينغرز في الظفر، فيخرج وهج من العينين قبل أن تتوقد اليد من الألم.

وإذا كان الذي درسهم الأستاذ أبو كلام قد استفادوا منه، وتعلموا الكثير، فإن الشيء الذي لم يتعلموه أبداً طريقته في استعمال المسطرة! حتى الرهانات التي كان يجريها التلاميذ فيما بينهم، بأخفاء السبابة ثم باستعمال المسطرة، كانت تبوء بالفشل.

حين أبلغ الصغير جدته عن براعة الأستاذ في ضرب التلاميذ الكسالى على

أيديهم وأصابعهم، رغم عدم وجود السبابة في يده، تطلعت إلى سبابة يدها اليمنى، حركتها أكثر من مرة، ثم قالت:

ـ كل ذي عاهة جبار ...

وبعد قليل وبصوت حنون:

ـ وأنت، يابعد عيني، شاطر وماشاء الله عنك.

أما حين جاء ذكر الموضوع مرة أخرى فقد قالت الجدة بهمس، وكانت تريد أن يسمع الصغير:

ـ يغار من أصابعهم، يريد يكسرها، حتى كلهم يصيرون مثله!

ولما جرى الحديث بين الجدة وأم الطاهر، وهذا مانقل وأصبح موضوعاً للتندر به، فكان السؤال الذي حيّر المرأتين ولم تجدا له جواباً:

ـ هذا ... إذا صلى شلون راح يتشاهد؟

مع أول أمطار الخريف اختل نظام الاصطفاف، لأن المطر الذي كان ينهمر على عمان في تلك السنين كان يأتي مبكراً وغزيراً. وحين يأتي المطر تغرق الساحة الجنوبية، وتصبح امكانية انزلاق الأحجار والأتربة متوقعة وخطرة، الأمر الذي دفع المدير إلى ادخال التلاميذ فوراً إلى صفوفهم. أما الخروج بطوابير، وكان الهدف منه اظهار الانتظام وتعليم الآخرين الدقة والنظام، فكان مستحيلاً، لأن الفوضى التي تترافق مع سقوط المطر، لعدم القدرة على السيطرة، ثم ذلك الهوس الذي كان ينتاب التلاميذ وهم يعرضون انفسهم للمزاريب، وتفاخرهم ايهم أكثر بللاً، جعل الادارة تصرف النظر عن ضرورة الخروج في وقت واحد أو بشكل نظامي، إذ تركت للأساتذة فسحة يتصرفون خلالها حول انسب توقيت لخروج كل صف.

وبتقدم أيام الخريف، ثم دخول الشتاء، ومع تزايد قصر النهارات، أصبح الانتظام اقل من السابق، وكانت هناك اسباب وحجج لاتنتهي: "أخذت العجنة للفرن، أستاذ" "زحمة التموين، استاذ" "ماعندنا ساعة، استاذ" "راحت عليّ نومة ودوخة بسبب الفحم، استاذ".

ولأن الناس، تلك الأيام، فقراء او أقرب إلى الفقر، ولأن تلك الفترة كانت شديدة الصعوبة، يفترض أن يعمل الجميع، أن يساهم كل فرد في الأسرة بجهد من نوع ما لكي تستمر الحياة، وبالتالي لكي يستطيع التلاميذ أن يواصلوا دراستهم.

كانت الأعذار التي يقدمها التلاميذ مفهومة من قبل الأساتذة، وإن لم تكن مقبولة دائماً من الادارة. ليس ذلك فقط، أصبح الباب الخلفي للمدرسة باباً رئيسياً للكثيرين، خاصة للذين يسكنون في جبل عمان، نظراً لقربه، ولأنه يجنبهم المرور قرب الادارة، وبالتالي لايتعرضون لعين يوسف الجيوسي أو لخيزرانة سليمان عطور. حتى أبو حلمي، الذي يجلس على كرسي قرب باب المدير، وكان مكلفاً بتوقيف التلاميذ المتأخرين، أصبح لا "يراهم" وهم يتسللون، أو يلجأ إلى استعمال يده وحدها للكلام، حيث يحركها مشيراً إلى فمه بالتزام الحذر والهدوء، وضرورة الاسراع قبل أن ينتبه أو يحس المدير! عملية تواطؤ واسعة ومستمرة بين الجميع، وكان كل واحد يقوم بدوره باتقان شديد!

الاساتذة كانوا أكثر تسامحاً ورغبة بالمساعدة، خاصة وهم يرون الوحل يغطي ملابس الصغار أثناء انزلاقهم من الباب الخلفي، أو يرون بقعة الماء تتجمع بعد أن يتكوم التلميذ في مقعده، أو حين يفرك يديه لمقاومة البرد الذي تسلل إلى العظام.

كانت تلك الفترة بالغة الصعوبة على الجميع، فالحرب العالمية التي انفجرت قبل فترة، وكانت تبدو بعيدة أول الأمر، لم تلبث آثارها أن أخذت بالظهور، فالصفوف الطويلة التي أصبحت تملأ شارع السلط، من أجل الحصول على التموين من البلدية، اضطرت الكثير من العائلات لأن تستعين بأولادها للحصول على البطاقات أو لحمل الأرزاق. والعائلات التي كانت تعتمد على السقائين في جلب الماء أصبحت تعتمد على الأولاد لهذا الغرض، وكذلك الأمر بالنسبة لحمل العجين إلى الفرن، وماشابه ذلك من أعمال يستطيع الأطفال والصبية القيام بها.

ثم إن "الساعة" التي يحصل عليها الأطفال الآن بسهولة، والتي منها عدد في كل بيت، كانت في تلك الفترة نادرة. حتى الأساتذة لم يكن أكثرهم يملك واحدة منها، كان الاعتماد على الجرس، وبعض الأحيان الأذان، في تحديد المواقيت!

أما الساعة التي يحملها الأستاذ مولود، وكان لايخفى اعتزازه بها، وربما لأكثر من سبب! فإن صوت اغلاق غطائها، وسط صمت التلاميذ، كان يحرّض مخيلة ورغبة كل تلميذ لو أنه يستطيع امتلاك واحدة مثلها، رغم أنها ساعة جيب كبيرة وقديمة، وكان لها سلسلة مربوطة باحكام في عروة السترة!

ولذلك فإن عذر بعض التلاميذ عدم وجود ساعة في بيوتهم مفهوم، خاصة في الايام التي تحجب الغيوم الشمس، وبالتالي عدم امكانية معرفة الوقت!

إذا تعذر وصول أو مجيء عدد من التلاميذ، خاصة أولئك الذين يسكنون في الضفة الأخرى من السيل، لأن المياه ارتفعت في المجرى، وغيبت الأحجار التي كانت تشكّل جسراً للانتقال، وتعذر عليهم بالتالي أن "يقطعوا"، فلابد أن يقدموا عذراً، ويجب أن يكون خطياً، لأن الادارة لاتكتفي بالأعذار الشفوية. وغالباً ماتقدم أوراق، انتزعت على عجل من دفتر مدرسي، وكان بعض الطلبة متخصصاً بكتابتها لأنفسهم ولغيرهم، وتتضمن صيغة واحدة أو متشابهة. كانت الصيغة كما يلي:

"عطوفة مدير المدرسة العبدلية المحترم أدامه الله

نرفع إلى عطوفتكم أسمى آيات الاحترام والتبجيل، راجين من الله أن يديم عليكم الصحة والعافية، أما بعد.

نرجوا (!) غض النظر عن غياب ولدنا (فلان) نظراً لانحراف صحته؛ (أو نظراً لغيابه لأسباب قاهرة)، ولكم جزيل الشكر وعظيم الامتنان. ولي أمر الطالب.

والادارة تقبل هذا العذر أغلب الأحيان، لكنها تعرف أن السبب الحقيقي للغياب مختلف، كأن يكون حذاء التلميذ مثقوباً، أو أن لديه صندلاً ولايملك حذاء،وربما لايملك معطفاً يقيه المطر والبرد. ورغم هذه المعرفة فإن تهذيباً من نوع نبيل يمنع البحث أو التقصي عن سبب الغياب، إلا إذا تكرر كثيراً، أو في أوقات متقاربة.

المرات التي كان "يحد" فيها السيل عديدة تلك الأيام، ومعنى ذلك أن ينقطع عدد كبير من التلاميذ، ومعناه ايضاً أن تأخذ الدروس نسقاً مختلفاً، كأن يؤجل أخذ درس جديد، أو تكون مناسبة لأن يتحدث الأستاذ في أمور خارج المقرر، وغالباً مايكون مثل هذا الحديث من القلب وهاماً، وربما أكثر تأثيراً من الدروس المقررة،حتى ليبدو الأستاذ شخصاً مختلفاً عما عرفه التلاميذ من قبل، أو سيكونه حين تطلع الشمس في يوم جديد لاحق!

أما أيام الثلج في عمان فإنها لاتشبه غيرها من الأيام. فحين يهجم البرد الشديد، ورغم تحذيرات الكبار بضرورة ملازمة الصغار للبيوت، وعدم التعرض للبرد، وما قد يلحقه من أذى أو مرض، فإن الصغار حين يسمعون أو يقدرون احتمال سقوط الثلج، يصبح نومهم في تلك الليالي قلقاً متقطعاً. اكثر من ذلك يستيقظون ويتطلعون من النوافذ لكي يتبينوا ماإذا سقط الثلج ام لا، وحين يتأكدون من سقوطه يتساءلون ماإذا "علم" واستقر، لأن الثلج إذا علم له معنيان كبيران

واستثنائيان: لامدرسة في اليوم التالي؛ "وكم" من اللعب والمرح لا يتاح إلا في حالات نادرة، بما في ذلك رشق الكبار والصغار، الرجال والنساء، بالثلج، دون خشية أو حذر، وبعض الأحيان، وبحجة اللعب، الانتقام من الخصوم!

وبين النوم واليقظة بانتظار اليوم التالي، تكون الجدة، التي قامت للصلاة، أول من يبشر الصغار بسقوط الثلج، وإنه علم!

تقول الجدة، وهي توقظهم بحنان قاسٍ:

ـ قوموا ... قوموا، شوفوا شنو صاير بالدنيا.

وحين يهبون بسرعة، على غير عادتهم، وينظرون إلى الجدة ثم إلى ماحولهم،يعرفون إنه الثلج، ومع ذلك يتراكضون للنوافذ، لفتح الباب، لكي يتأكدوا، وبعد أن يلمسوا الثلج بأيديهم، ويقدروا سماكته، تندفع الأصوات دون نغم ودون انتظام:

ـ بيضة ... بيضة ... سنة بيضة!

والجدة التي لم تألف الثلج، رغم أنها رأته بعينها، لاتزال تستغرب وتتساءل من أين يأتي أو كيف يسقط، ولاتزال تردد بصوت مسموع:

ـ سبحان الله، القادر. أي نعم القادر على كل شيء!

وفي وقت لاحق، في الليل، وهم حول المنقل، يستعرضون وقائع اليوم، تقول الجدة لنفسها، ولايهمها أن سمع الآخرون أو لم يسمعوا، بعد أن تبرع الصغار لاعادة ماتعلموه في درس "الأشياء". تقول:

ـ هذي السما مثل القاع ما ينحزر عليها، ومايندري شنو ببطنها!

وبعد قليل، بصوت منخفض:

ـ سبحان الله، القادر!

أما كيف مضى ذلك اليوم، وماذا وقعت خلاله من أحداث، فإن إعادتها أو تلخيصها أمر يكاد يكون مستحيلاً، إذ لم تكن هناك فسحة للتوقف، للتأمل، منذ الصباح الباكر وحتى اضطر الصغار للعودة إلى البيت، بعد أن لاحظ الكبار أنوفهم المحمرة، وآذانهم التي تقلصت، وبعد أن ثلّجت الأيدي والأقدام.

كان الصغار يلعبون بالثلج، وكانوا يحرصون، في البداية، على ألا يبددوه، إذ

يجب أن يبقى لكي لايذهبوا إلى المدرسة! سيصلون مدرستهم ومدارس اخرى بكل تأكيد، لكن ليس مثل باقي الأيام. سيذهبون في الوقت الذي يشاؤون، وبالطريقة التي تروقهم.

وعمان التي تستفيق على البياض يغمرها طويلاً رضياً تشعر بالفرح الأقرب الى الزهو، فالثلج هو "مونة الأرض" كما يقول الكبار ويؤكدون، وهو أحد المؤشرات أن هذه السنة ستكون من سنوات الخير، خاصة وقد ضاقت الأرواح بالمصاعب التي تزداد يوماً بعد آخر.

ما إن يتأكد التلاميذ أن لا دراسة في ذلك اليوم، وهذا التأكيد هم الذين افترضوه، ثم اعتبروه حقيقة ثابتة لاتقبل الاختلاف أو الجدل، حتى يندفعوا كالذئاب الضالة في كل اتجاه بحثاً عن " ضحايا". يفعلون ذلك براحة ضمير وقناعة، والاهل الذين لايخفون فرحهم بالثلج، لايستسلمون بسهولة، لكن لا يتشددون، حتى إذا مضت ساعة من الوقت، ولايعرف اين أصبح الأطفال، يبدأ الكبار بتهيئة مايتطلبه الوضع الجديد. صحيح أنهم يمازحون بعضهم بكرات هشة من الثلج يرمونها بود، ودون اتقان، لكنهم يلتفتون أكثر من ذلك إلى ما ينبغي عمله. يعمد الرجال إلى جرف أسطح المنازل، لأن الثلج سيؤذي الأسطحة الطينية التي دُحلت جيداً أوائل الخريف، إما لثقله أو لأن ذوبانه البطيء سيخلف آثاراً لاتلبث أن تظهر يوماً بعد آخر، أما النسوة، ويكن أقرب إلى الفرح والمزاح، فلا يلبثن أن يستخرجن، من مخابئ لم يفطن إليها أحد من قبل، أغذية حفظت لمثل تلك الأيام!

والذئاب الصغيرة التي خرجت بحثاً عن الصيد، وبعد أن اشتبكت فيما بينها مرات عديدة، لايخلو بعضها من مكر وبراعة، وخطط أيضاً، لاتلبث أن تتحول إلى مجموعات صغيرة، كل مجموعة تذهب في اتجاه أو مكان مفترضة أنه الأفضل.

كانت مدرسة المطران أحد الأهداف الأساسية التي يقصدها تلاميذ العبدلية،لتصفية حسابات كثيرة وقديمة! إذ بالاضافة إلى وجود طرف آخر بالتأكيد،باعتبار أن في مدرسة المطران قسماً داخلياً، فإن اتساع المكان، بما يحيطه من ملاعب وأرض خلاء، يوفر كميات كبيرة من الثلج للمعركة، ويتيح مجالاً واسعاً للمناورة، إذ يمكن التقدم والتراجع تبعاً لقوة الخصم! هذا عدا عن الغيرة،وربما الحسد، الذي يشعر بهما تلاميذ العبدلية وهم يقارنون أنفسهم بتلاميذ المطران!

معارك الثلج، في بعض الأحيان، لاتخلو من غدر وقسوة، إذ يلجأ بعض التلاميذ إلى وضع الحصى في كرات الثلج، أو الى تصليبها بحيث تصبح أقرب

إلى الحجر، ويتم ذلك من خلال رصها المستمر، ومن خلال ترطيبها بالماء. كما يلجأ البعض إلى قذف الكرات من أماكن قريبة جداً، أو على مواضع حساسة في الوجوه. ويلجأ آخرون إلى التعامل مع "الخصوم" بقسوة مبالغ فيها، كأن يستفرد بأحد الخصوم ويجتمع عليه الكثيرون.

العادة أن لاتطول المعارك، إذ يتعب المتقاتلون أو يملّون، ولذلك يجري الانتقال من مكان إلى آخر ، وفي هذا الانتقال تقع المفاجآت ، كأن يلتقي تلاميذ العبدلية بالأمير طلال ، وكثيراً ما حصل ذلك ، إذ كان يتمشى على رجليه، وأغلب الأحيان بمفرده، وحين يلمحون الابتسامة على وجهه لايترددون في أن يرشقوه بكرات خفيفة، فيرد عليهم بالمثل، ويستمر الأمر بعض الوقت إلى أن يقول "كفى"،ويمضي، ويمضون.

وقد تقع، أيام الثلج، أمور محزنة وأخرى مضحكة، كأن ينزلق بعض المسنين،أو يتلقون ضربات أقسى أو اكثر مما يحتملون؛ أو أن يقع الأستاذ بين أيدي تلامذته، أو يلبس أحدهم ملابس لا تتلاءم مع هذا الطقس، وعند ذاك يتفنن التلاميذ في اظهار براعاتهم، والتي لاتخلو من قسوة، لكنهم يعرفون أيضاً متى يتوقفون.

وبنات المدارس اللواتي يجازفن في مثل هذا اليوم بالذهاب إلى المدرسة،وكانت للاناث مدرستان حكوميتان في عمان، الأولى في شارع خرفان، والثانية في شارع وادي السير، للتأكد من وجود دراسة أو عدم وجودها، كثيراً ماأصبحن عرضة لقسوة مضاعفة، فالست ميسر، مديرة مدرسة شارع خرفان، التي تقف عند الباب، لاتكتفي بارجاع البنات، بعد أن توجه لهن لوماً قاسياً لأنهن جازفن بالمجيء في هذا اليوم، تشير إلى مجموعة من المتربصين، واصفة اياهم بأولاد الشوارع،والذين يستغلون الثلج ليتحرشوا، وبعد أن تصرخ بقسوة طالبة منهم أن ينصرفوا، ترسل الآذنة لمرافقة التلميذات لبعض الطريق.

وفي الشارع، وبعد أن تتلقى التلميذات كرات الثلج من هنا وهناك، يقابلنها بالصراخ والضحك، لاتلبث النخوة أن تدب في صدور أكبر الشباب سناً فيصبحون هم الحماة، إذ يصرخون طالبين من الآخرين أن يكفوا ويتأدبوا، وهكذا تتوالى لعبة التوقف والاستمرار إلى حين عودة التلميذات إلى بيوتهن، وقد أصبحن كالقطط المبللة بشعور مسبلة، ولكن أصبحن أيضاً في حالة من الاشراق والوجوه المحمرة والضحكات التي تشبه الصهيل!

من الوجبات الخاصة التي تُصنع في مثل هذه الأيام "السويق" وهي عبارة عن مزج الثلج بالدبس وتقديمه بعد الفطور أو بعد الغداء. وإذا فات التلاميذ الوجبة الصباحية، لأنهم بدأوا غزواتهم مبكرين، وتاهوا في أنحاء متعددة من المدينة،فلابد أن تحرص الأمهات والجدات على اختيار ثلج نقي لم يقربه أحد لكي يصنعن هذه الوجبة بعد الغداء، ويقبل عليها الصغار بنهم للذتها، ولأنها تمدهم بطاقة جديدة لما تبقى من النهار.

اللعب بالثلج بعد الظهر يصبح ثقيلاً، ولايقابل بالتسامح، كما هو الحال في أول النهار، نظراً لذوبان الثلج ولامتزاجه بالوحول، وأيضاً لأن حالة من الاشباع سيطرت على الكثيرين، وهذا مايدفع بعض الفتيان لصنع أشكال فنية، يختارون لها أمكنة عالية أو فسيحة، لكي يظهروا براعتهم، وكثيراً مابرزت البراعة أو المبالغة في التماثيل، والتي تصبح في وقت لاحق أهدافاً، أو مجالاً لتحالفات أو خصومات من نوع أو آخر!

عند الغياب تهدأ الحركة، ويأوي الناس إلى منازلهم مبكرين، ولأن الفحم والحطب فاكهة الشتاء، كما يقال، فإن الكثيرين يبالغون، خلافاً للأيام الأخرى،في تحضير المواقد، واختيار الحطب الجاف أو الفحم الكبير؛ وحول المواقد تبدأ الأحاديث وذكريات الأيام المشابهة ورواية ماحصل من أحداث ومفارقات خلال ذلك اليوم. وإذا كانت مثل هذه الأحاديث تروق للصغار، فإن الكبار يفكرون بالأيام الآتية، ومايجب أن يفعلوه أو أن يستعدوا له.

الأيام التالية إمّا أن تكون أصعب وأشد قسوة، أو تنفرج. فإذا هجم البرد، ومعه الريح، فلابد أن يتجلد ماتخلف من الماء أو ماتبقى من الثلج، ولذلك يصبح المشي، خاصة في المنحدرات، خطراً وشاقاً، وتصبح الانزلاقات متوقعة، مع ماتخلفه من كسور وأذى، وفي مثل هذه الأيام ينشط المجبرون والعطارون والمشايخ!

مواصلة الدراسة بعد يوم أو أيام الثلج ليست سهلة، فإذا لم يحد السيل، نتيجة ذوبان الثلوج، أو بسبب امطار جديدة، فإن الشعور بالبرد يفوق الأيام الأخرى،خاصة وأن المدفأة الوحيدة في المدرسة في غرفة المدير، كما أن البرودة التي تعشقت الجدران والسقوف خلال فترة الغياب، والريح التي تهب من كل الأنحاء، نتيجة الفراغات بين البيوت وبين الأحياء في عمان، تلك الفترة، تجعل العبدلية مستودعاً للبرد، والذي ينبع من كل مكان، ويصل إلى كل عضو من أعضاء الجسد!

كانت أصابع وليم فهمي تثلج، ليس فقط حين يسقط الثلج، وإنما معظم أيام الشتاء. وكانت، وهو يمدها لكي يراها زملاؤه التلاميذ، تبدو محتقنة غليظة وتميل قليلاً إلى الزرقة، رغم القفازات التي يرتديها منذ أيام البرد الأولى. أما صالح الكباريتي، ابن مدينة العقبة الدافئة، فكانت شفتاه تزرقان أيام البرد الشديد،وبعض الأحيان ترتجفان. أما نبيه عماري، ومن أجل الدفء، فلم يكن يمانع أن يتلقى بعض العصي من الأستاذ عطور، وأن يبقى في غرفته بعض الوقت لكي يتدفأ!

الملابس التي يرتديها معظم التلاميذ ترد البرد قليلاً لكن لاتمنعه، وفي الأيام التي تظهر خلالها الشمس، كان الأستاذ مولود يطلب من التلاميذ أن يركضوا حول الباحة عدة مرات، لكي يسري الدفء في عروقهم، قبل أن يبدأوا الدراسة.

أخيراً، في أوائل أيام الربيع، وعلى غير توقع، جاء المفتش عبد القادر التنير.

جاءت الزيارة بعد أن تأكد أبو حلمي أن البيك تجاوز المدرسة في طريقه إلى الوزارة، لقد أبلغ المدير بذلك، وكان يعتقد أن اليوم سيكون مثل الأيام الأخرى،لكن ماكاد التلاميذ ينهون الفرصة ويعودون إلى صفوفهم، حتى وصل المفتش.

كان عبد القادر التنير مربوعاً أقرب إلى الطول، او هكذا بدا للتلاميذ، وهم يرونه عن قرب، خاصة حين قارنوه بالأستاذ الجيوسي، الذي رافقه، وكان إلى جانبه طوال الوقت، وهو ينتقل من صف إلى آخر. كان يرتدي بدلة رمادية شديدة الأناقة. أما طربوشه فأكثر ثباتاً على رأسه، إضافة إلى أنه يميل للحمرة الداكنة مقارنة بطربوش المدير. أما حين بدأ التلاميذ بتلاوة نشيد "أنا القهوة" فقد كانوا في أسوأ حالاتهم وأكثرها ارتباكاً، بدا ذلك ليس من ملاحظات المفتش، وإنما من شكل وحركات المدير، إذا تجهم وارتجف، ومع ذلك فان هزات رأسه، للتشجيع أو للوم، لم تتوقف! ورغم أن معلم الصف والمدير كانا يريدان لو تتاح لهما الفرصة ليشاركا في اختيار من يقرأ النشيد ومن لايقرأه، وكانا يودان لو أن سمير التنير بين القارئين، إلا أن اختيار المفتش العشوائي، وتجاوزه لابنه، خلفا في نفس المدير حالة من الخيبة أقرب إلى الاحباط، ولقد تأكد هذا بعد الزيارة وقبل الانصراف، إذ جاء أبو حلمي يحمل ورقة صغيرة للمعلم، وحين رأى التلاميذ وجه الآذن الشاحب،ثم ارتباك المعلم بعد أن قرأ تلك الورقة، تأكدوا أن الأمر أسوأ مما قدروا.

قبل أن ينتصف الربيع حدث أمر غير متوقع.

وإذ استبد الحزن بالجدة، وكان حزناً اقرب الى الغضب. وإذ بدا غامضاً أول الأمر، ولايُحكى عنه بوضوح او بشكل كامل، إلا أن الكلمات المتناثرة والحركة غير العادية أشارت إليه، وإن لم تحدده. لقد عُرف أن شيئاً غير عادي يجري في بغداد، ويجب أن تذهب الجدة.

أما حين طلب منها أن تنتظر وقتاً اضافياً، لعل الأمور تصبح اكثر وضوحاً، فقد ردت:

ـ شنو تريدون مني: إن أسمع خبر موتهم حتى أروح؟

وحين لم تتلق جواباً تابعت، وكانت الغصة تخنق صوتها:

– انهجمت بغداد ،ويعلم الله أنْ ماظلت فيها طابوقة فوق أختها، هجموها أولاد الحرام.

ولم تتأخر الجدة، سافرت بعد بضعة أيام.

وأصبحت عمان، في هذه الفترة، مدينة الصمت المدوي، فالكبار أصبحوا اكثر سرية فيما يقولون أو يفعلون، خلافاً للأيام السابقة حين كانوا يتحدثون عن هتلر والمحور، إذ كانوا يفعلون ذلك دون حرج، وكانوا يشتمون الانكليز دون خوف. الآن اصبحوا اكثر حذراً، واخذ اسم بغداد يتكرر ويتردد أكثر من أية فترة سابقة.

لم تمض أيام إلا وحدث شيء انحفر في ذاكرة التلاميذ إلى الأبد: المظاهرة.

طُلب إلى الصغار، تلاميذ الصفوف الثلاثة الأولى، أن يعودوا إلى بيوتهم. وبسرعة وبراعة، وباتفاق بين داخل المدرسة وخارجها، توجه تلاميذ الصفوف العليا، مع الآخرين الذين جاءوا، لتبدأ أول مظاهرة يراها الصغار.

في الليل سيجري حديث كثير حول الأسواق التي أغلقت، والجموع التي شاركت، وماقيل في المظاهرة وماقيل لها، وكيف أن الأمير، استقبل زعماء المتظاهرين بعد أن اعترض الخيالة طريقهم، ثم افسحوا لهم بالمرور.

وماحصل بعد ذلك دوّنه التاريخ.

حين أوشكت السنة الدراسية على الانتهاء، وبعد أن قدمت الامتحانات وظهرت النتائج، اقيمت حفلة في الباحة الجنوبية، حضرها المدير والمعلمون وجميع التلاميذ، اضافة إلى عدد من الضيوف.

يتذكر التلاميذ الصغار أن التمثيلية التي قدمت في هذه الحفلة، كانت خفيفة،قصيرة، لاتتعدى الشخصين.

الأول تلميذ يريد أن يواصل دراسته ليصبح طبيباً، والثاني ترك الدراسة والتحق بالعسكرية، وحين يسأل التلميذ صديقه السابق هل ارتقى وتقدم فيرد هذا بالايجاب والتأكيد، فيسأله التلميذ من جديد، هل أصبح عريفاً أو شاويشاً فيرد الآخر أنه أصبح أكبر وأكبر، فيسأله هل أصبح رئيساً فيجيب أنه أصبح أكبر وأكبر،وهكذا إلى أن يستنفذ التلميذ أسماء الرتب التي قد يرقى لها أي عسكري،فيطلب منه أن يحدد المرتبة التي وصل إليها، فيهز هذا رأسه عدة مرات ويقول:

ـ أصبحت مساعد طباخ، ومهمتي تقشير البصل في المطبخ!

وتضج الباحة بضحك متواصل، ويتوارى الممثلان، وبعد أن يهدأ الجو يوزع المدير، الأستاذ يوسف الجيوسي، جوائز على المتفوقين، وتنتهي السنة الدراسية.

٥

فجأة بدأ "تزريق" الشبابيك، وأخذت الدوريات تجوب عمان ليلاً لكي تتأكد أن الأضواء لاتتسرب إلى الخارج، وأن الجميع ملتزمون بالأنظمة الجديدة التي أوجبتها ظروف الحرب!

قبل ذلك كان الحديث قد بدأ همساً، وبشكل أقرب إلى الغموض، أن الحرب قد وقعت. أية حرب؟ أين؟ لماذا؟ من يحارب من؟ أسئلة لم يكن الكبار يجيبون عنها بوضوح، أو بطريقة ترضي فضول الصغار. والصغار الذين اندفعوا بحماس للمشاركة في عمليات "التزريق"، ثم أصبحوا كل شيء في هذه العمليات، إذ كانوا يذيبون "النيلة" في الماء ثم يطلون الشبابيك ومناور الأبواب، مالبثوا أن شعروا بخيبة الأمل: أين هي الحرب؟ لماذا لم تصل؟

وإذا كانت العادة ألاّ يجاب عن أسئلة الصغار، فإن أسئلة المسنين لايمكن أن تمرّ دون جواب. فالجدة حين رأت الحركة النشيطة حولها، ورأت الحذر، الأقرب إلى الخوف، في الكلام والتصرفات، سألت في إحدى الليالي، وبطريقة لاتخلو من غضب:

ـ شنو صاير بالدنيا؟

وحين تطلعت إليها العيون باستغراب لايخلو من لوم، تابعت:

ـ الأتراك وخلصنا منهم ومن مصايبهم، هسّا منو بعد؟ وعلى ويش يتحاربون؟

وتبرع أكثر من واحد ليشرح للجدة عن الحرب التي وقعت منذ فترة، وعن احتمال امتدادها ووصولها إلى هنا، وبالتالي لابد من الحيطة، بما في ذلك الالتزام بالتعتيم وعدم الحديث بصوتٍ عالٍ...

قاطعت الجدة، وهي تسأل بسخرية:

ـ خير.. ليش يابا... يريدون يسدوا حلوقنا؟

وأوضحوا لها من جديد المخاطر التي قد تقع فيما لو رأت الطائرات المعادية الأنوار أو سمع الجواسيس الأخبار. قالوا ذلك بطريقة لاتخلو من مبالغة أو سخرية، وكأنهم يرددون ماسمعوا أو ماقيل لهم، وهم غير مقتنعين، لكن لابد لهم من الامتثال لما تطلبه الحكومة!

كانت الجدة تسمع لكن دون اهتمام، وكانت تهز رأسها بسخرية، فلما خيّم الصمت لحظة قالت:

– شلون عقل،شلون حچي ،كأنْ ماكو بالدنيا غير هالسراج اللي مايضوّي روحه وخايفين منه .....

وبعد قليل وبسخرية أشد:

ـ هذول الانكليز شياطين، يريدون يخوفوا كل الناس، يريدونهم ينشبوا، لأن الحرامي مايجي إلا بالظلمة وبسكوت.

ولأن المسنين يتحدثون لأنفسهم، لبعضهم، فحديثهم، أغلب الأحيان،يضيع،لايسمعه الكبار، أما الصغار فيسمعونه بطريقتهم الخاصة. أكثر من ذلك، السراج نمرة ٣ الذي نزعت مراته، لكي يقلّ ضوؤه فلا يتسرب إلى الخارج، ثم ذلك اللون الأزرق الداكن الذي طُليت به الشبابيك، وكاد أن يستعمل في طلاء زجاجة السراج أيضاً، مالبث الصغار أن خففوه إلى أقصى درجة، حتى إذا طُليت به الزجاجة بدت غريبة جميلة ومختلفة عما ألفوه من قبل، لكن ذلك لم يستمر إلا أياماً.

وحين عجز الصغار عن معرفة مايجري بالفعل، لجأوا إلى الجدة يسألونها، فأخذت تحكي لهم ليلة بعد أخرى عن السفر برلك، ولكي ترضي ضميرها، وحتى تبدو عارفة بكل مايجري، كانت تقول بين قصة وأخرى، بين فترة وأخرى:

ـ كل حرب سفر برلك، كل حرب قتل ومقتول، كلها هجمان بيوت!

لم يكن الآخرون، معظم الآخرين، يعرفون أكثر من الجدة، في ذلك الوقت،وإذا عرفوا فبعض الأسماء التي لم تسمع بها الجدة، وحتى لو سمعتها لاتستطيع اعادتها لصعوبتها، أو لأنها تبدو لها غير مألوفة أو لاتحبها.

كان عدد الراديوات في عمان، ذلك الوقت محدوداً، وفي بيوت الأغنياء فقط. وهذه الأجهزة، بالاضافة إلى قلة عددها، ورغم حجمها الكبير، لا "تسحب" إلا محطات قليلة، كانت محطة الشرق الأدنى إحداها. ولأن ميول معظم الناس لاتتوافق مع هذه المحطة فلم يكونوا يسمعونها او يعولون على أخبارها. بالمقابل كان الكثيرون يريدون سماع محطة برلين، وهذه المحطة ليس من السهل التقاطها، اضافة إلى كونها ممنوعة، ولذلك كانت تتخذ الاحتياطات الكثيرة اثناء سماعها، إذ يجب أن يوضع الراديو في غرفة داخلية، وليس في غرفة الضيوف، كما هي العادة، ويجب أن تُراقب بدقة الشوارع والدخلات التي تؤدي إلى البيت. كان الصغار هم الذين يتولون المراقبة، إذ يحتمل أن تتم عمليات المداهمة في أية لحظة، ومن شأن ذلك التعرض لعقوبات قد تكون قاسية، بما في ذلك مصادرة "الجهاز".

من التعابير المألوفة، والتي كانت تستعمل للإبلاغ عن وصول دورية الشرطة،أن يصرخ الصغار، حين يلمحون الدورية: "لمعت"، فقد كانت تزين قبعات رجال الشرطة، ذلك الوقت، قطع معدنية لامعة، وكانت هذه القطع، بالاضافة إلى أنها لافتة للنظر، شديدة البريق، ويمكن أن تُرى من بعيد. هذه الصرخة كفيلة أن تنتقل بسرعة إلى فوج المراقبة الثاني في البيت أو حواليه، وبالتالي يمكن أن يُغلق الراديو،ويُسدل عليه الغطاء المزركش المشغول بعناية، والذي هيأته نسوة البيت في الأيام الأولى لوصول الراديو، وكان يغطى به أثناء فترات عدم البث.

إن صرخة من هذا النوع تثير الدورية، وتجعلها تتحرى بدقة اكبر، وقد تؤدي هذه التحريات بعض الأحيان إلى اشكالات، كأن تُلقى على الدورية، من مكان خفي، وفي الظلمة، "توزيعة" والتوزيعة عبارة عن كمية من التراب الناعم أو الرمل توضع في كيس صغير من الورق غير محكم الاغلاق، بحيث تنتشر محتوياته بسرعة على "الهدف"، ومن شأن ذلك تعقيد الموقف، وربما فتح تحقيق أو استدعاء المختار، وقد تحصل أشياء أخرى أيضاً.

لقد كان الراديو الوسيلة الأساسية لمتابعة أخبار الحرب. كان صوت يونس بحري من راديو برلين يثير الطرب وهو يقول "حي العرب"، وكان هناك متخصصون في سماعه ونقل مايقوله إلى الآخرين، مع اضافات وتعديلات يرونها مناسبة، أو تلائم الذين تلقى عليهم. فهتلر حين يُنقل اسمه إلى الآخرين يصبح أبو علي، ويصبح اسم ستالين أبو يعقوب. أما أخبار الحرب فتتلخص بكلمات قليلة: "قوات المحور تتقدم، تكتسح، تتوغل" "رومل يزحف، يسيطر، وقوات الحلفاء تتراجع، تنهزم" وهكذا.

ورغم ان الأردن، رسمياً، كان إلى جانب الحلفاء، وأعلن دخوله الحرب، إلا ان عواطف الناس، بصورة عامة، كانت إلى جانب المانيا، ويمكن فهم وتفسير هذه العواطف بسهولة، فالموقف تجاه اليهود أبرزها، يضاف إلى ذلك أن النظرة نحو الانكليز، وإلى الفرنسيين، لم تكن ودية، بل معادية، نظراً لكونهما المستعمرين المباشرين. ثم إن مجيء عدد اضافي من الانكليز في هذه الفترة، وتعزيز بعض الوحدات، خاصة قوا ت البادية، والتي كانت الزرقاء مقراً لها، جعل الناس يتخوفون ويتحسبون أكثر من قبل.

كان الراديو اذن الوسيلة الأولى والأهم في متابعة اخبار الحرب، ومع أن بدير وتجاراً آخرين اقاموا، منذ وقت مبكر، مولدات كهربائية، إلا أن الكهرباء لم تصل إلى الكثير من البيوت، نظراً للكلفة العالية لقاء "الساعة" والتمديدات، لذلك فإن البيت الذي تنيره الكهرباء وفيه راديو لابد أن يقصده كثيرون من الأقارب والجوار،ومعنى ذلك اعباء ومصاريف قد تحتمل في الظروف العادية، لكن في زمن الحرب، ومع تزايد المصاعب، تصبح مرهقة، وهذا ما بدأ يشعر به الناس يوماً بعد آخر.

فالسكر الأحمر، الذي لم يكن معروفاً في عمان من قبل، اصبح السكر الوحيد، تقريباً، فقد اختفى، او شح إلى اقصى حد، السكر الأبيض بأنواعه المتعددة: الناعم والكعاب وذاك الذي يشبه الاكواز الكبيرة، والملفوف بورق أزرق داكن. والشاي الذي كان يعدّه الكثيرون على السماور، بطريقة لاتخلو من ترف،إذ كانوا يلقمون الابريق الصغير مرات عديدة، ماامتدت السهرة، وما إن يجيء ضيوف جدد، أصبح لايقدّم إلا بمقدار، وبعض الأحيان لايقدم.

إن طريقة استعمال السماور، التي كانت تبرع بها الجدة، تم التخلي عنها تماماً،"لأن الوقت وقت حرب" كما قيل حين جرى التساؤل، فقد أصبح الشاي يقدم على طريقة الفلاحين، أي بابريق واحد، لذلك امتنعت الجدة عن تناوله لبضعة أيام، إذ كانت تقول أنه مرّ، وأن مرارته زادت بعد أن احترق! وحين اخذ راسها يؤلمها، وأن لاشيء يشفيه ويعدلها سوى الشاي الذي كانت تشربه بكثرة من قبل، تم الوصول إلى تسوية: أن يُعطى لها ماتستحقه من الشاي تحضره بنفسها وبطريقتها الخاصة، وقد تم العمل بهذا الاتفاق لبعض الوقت، لكن ما مرت أسابيع حتى قالت باحتجاج، وهي تعيد كمية الشاي المخصصة لها:

- يحرم عليّ اشرب الشاي او احط الحنة بايدي مادامت الناس جواعا والدنيا قتل ومقتول.

وهكذا توقفت الجدة عن تناول الشاي وعن الشكوى، ولكي لايُكسر القسم الذي اخذته على نفسها، تم الالتفاف عليه بطريقة لاتخلو من مكر، إذا وافقت أن تشرب "الكونداغ" أي أن تملأ الاستكان إلى ثلثيه تقريباً بالماء الساخن، ثم تضيف إليه قطرات من الشاي حتى يتكحل، فإذا اقترح عليها أن تُزاد كمية الشاي المضافة،لكي يتكحل بالفعل، كانت ترد بإباء:

ـ زيادة الكحل بالعين تعمي!

اكثر من ذلك كانت تروي للصغار قصصاً عن "الحرب العمومي" كما تسميها مرة، وعن السفر برلك كما تسميها مرة أخرى، وهم يحاولون أن يتجرعوا الشاي الأقرب إلى المرارة الذي يُقدم لهم، كانت تقول:

ـ احمدوا ربكم واشكروه الف مرة ، لأن اكو شاي تشربونه ...

و تتوقف قليلاً، تنظر إليهم بامعان، ثم تضيف:

ـ بذيك الحرب، بالسفر برلك، ماكنا نلقى كسرة خبز ناكلها، كنا ننام على الطوى...

تتذكر أشياء كثيرة، فتتابع بحدة:

ـ والشاي، إذا صدف وشربنا، صبر، علقم، ماينشرب، وإذا الله فتح على ابن آدم يشربه "نظرلما".

ويسألها الصغار عن معنى هذه الكلمة العجيبة، والتي يسمعونها لأول مرة،فتتهلل أسارير الجدة، تشعر لنفسها بنوعٍ من الميزة، فتشرح للصغار أن بعض العائلات التي استطاعت أن توفر لنفسها الشاي أيام الحرب العمومي، كانت تعجز عن توفير السكر الضروري، ولذلك لجأت تلك العائلات إلى الاكتفاء بالنظر إلى السكر الموضوع في مكان عالٍ أو بعيد، واستمرت في تناول الشاي، وتختم الجدة هذه القصة بأن تقول:

ـ وسبحان الله .. يصير الشاي المرّ بحلوقهم حلو، يصير مثل العسل!

وبعد قليل وقد تغيرت لهجتها، أصبحت واثقة أكثر من قبل:

ـ وهذا موقيل عن قال، هذا مجرب، وهذا اللي چان يصير ...

ولكي لايقطع أحد عليها الطريق ويجادلها حول صحة هذا الكلام تتابع:

ـ شرط أن تكون نية الواحد سليمة ويحس مع الآخرين.

لم يكن السكر وحده، تلك الأيام، عزيزاً وتتناقص كمياته يوماً بعد آخر أو يتغير لونه، كانت معظم المواد كذلك. فالخبز الذي كان من القمح الصافي، وكان أقرب إلى البياض، مالبث أن دخله الشعير، ليس من قبيل الغش، وإنما نتيجة اضطرار الناس إلى خلطه، بنسب، لمواجهة الصعوبات التي تتزايد بسبب ارتفاع الأسعار،بعد أن أصبحت كميات كبيرة ومتزايدة منه تذهب إلى فلسطين ومصر،وربما إلى أماكن أخرى من أجل اطعام الجنود.

كانت المطاحن، أو بالأحرى المطحنتان الرئيسيتان، مطحنة المفتي ومطحنة ملحس، على طرف السيل عند الجسر. وكان يوم توصيل "الطحنة إلى البابور" يوماً حافلاً، إذ بالاضافة الى ضرورة استئجار حمار، وكانت لدى عائلة الصبيحي،في جبل عمان، حمير للنقل، من المناسب، بل من الضروري، أن يرافق الطحنة عدد كاف من الشباب الأقوياء، من العائلة أو الأصدقاء، لتحميل الشوال أولاً، ثم لتنزيله، وأيضاً لمشاركة الطحان في العمل، أو على الأقل للمراقبة، وغالباً مايستغرق ذلك وقتاً غير قصير، بحيث يرجع الذين رافقوا الطحنة معفرين، وكأن الواحد منهم خرج لتوه من كيس الطحين!

أما مايدفع لقاء الطحن فيكون غالباً عيناً، وهذا يقتضي الكثير من الانتباه في تحديد الكميات، ثم استلامها، وما يستحق عليها من مقابل. وكذلك الحال بالنسبة لحفظ الدور، إذ كان يصادف، في أحيان كثيرة، وجود أعداد كبيرة من الناس والدواب في ساحة المطحنة.

كانت العائلات في عمان تهيّء العجين في البيوت، وهذا يقتضي أن يتم اعداده في ساعات مبكرة خلال فصل الشتاء، ولابد أن يُغطى العجين جيداً حلال هذا الفصل لكي "يتخمر"، أما في فصل الصيف فكانت العملية تجري في الليل المتأخر. فإذا أصبح العجين جاهزاً يخبز في البيت أو يحمل إلى الفرن.

لدى معظم عائلات الشركس الطابون، وهو عبارة عن فرن من الخزف يعدون فيه الخبز وأنواعاً أخرى من الأطعمة، ولايستسيغون الخبز إلا إذا أعد بهذه الطريقة. أما بالنسبة لمن هم من أصول فلاحية أو بدوية فكانوا يستعملون الصاج، وكانت ربة البيت تقوم بهذا العمل، وفي حالات قليلة هناك امرأة بدوية، يطلق عليها اسم الخبازة، تتولى المهمة، ثم إلى جانب الصاج غالباً مايوجد فرن بدائي يحضر فيه الخبز الكماج، اضافة إلى أنواع مختلفة من الأطعمة.

الذين لايملكون مثل هذه الأفران، أو يفضلون خبزاً من نوع آخر، يلجأون إلى

فرن السوق، كما كان يطلق على أي فرن، أياً كان موقعه. والغالب أن يكون لدى صاحب الفرن صبي، لكن معظم العائلات تستعين بأولادها لايصال العجنة على الأقل، لكي تتم مراقبة "تقريص" العجين وعد الأرغفة، على أن يتولى صبي الخباز اعادتها إلى البيت. والعادة أن تخبز العائلة لعدة ايام، خاصة في فصل الشتاء، وكان الخبز يوضع في معجن، وقد زاد التنبيه على الأطفال، في هذه الفترة، للاقتصاد، وأن يأكلوا كسرات الخبز قبل أن يقسموا رغيفاً جديداً.

لم تكن الأفران، خاصة بين الأحياء، تبيع الخبز، لأن لا أحد تعود شراءه، أما تلك التي تبيعه فقليلة ومحصورة وسط السوق، ومن الكلمات التي كانت تتردد كثيراً في تلك الفترة: خبز السوق مافيه بركة، ولم يكن يشتريه إلا الغرباء أو المضطرون، وكان الذين يقولون مثل هذا الكلام يدللون على صحته بأن خبز السوق إذا بات لايعود صالحاً للأكل.

خلال فترة الحرب موّل عبيدان القحص فرناً في حي المصاروة، فلاقى نجاحاً كبيراً، رغم وجود أفران عديدة قبله: فرن عارف بالمصدار، وفرن الحوراني بالقرب من اللاسلكي في جبل عمان، وآخر مقابل بيت السعودي، ورابع غير بعيد عن مطبعة السمان، اضافة الى أفران أخرى متفرقة. بعد أن نجح الفرن الجديد،واستقطب زبائن كثيرين، جاء من همس في أذن عبيدان: "عمان بحاجة إلى خبز افرنجي" إذ لم يكن معروفاً ذلك الوقت إلا المشروح وخبز التنور والكماج،ولذلك تحمس للفكرة ولم يتأخر في تنفيذها، ومن أجل الترويج لهذا النوع من الخبز، كان عدد من الاطفال، وعند المنعطفات، يحملونه وينادون عليه. وكان الذين يشترونه لايترددون، في حالات معينة، أن يجعلوه "غماساً" إذ يلفونه بالخبز المشروح ويأكلونه، لأن الطحين الذي استعمل لصناعة هذا الخبز كان الزيرو - الأبيض. لكن لم يكتب لهذا النوع من الخبز مستقبل مشرف، لأنه إذا صدق مايقال عن خبز السوق أنه إذا بات لايؤكل، فيصدق أكثر مايكون على هذا النوع من الخبز!

وإذا ظل الناس يدبرون أمر القمح، بشكل أو آخر، عن طريق ما يزرعونه، أو عن طريق المبادلة، فإن موادّ أخرى كانت أكثر مشقة وأصعب منالاً. فالرز والشاي والزبدة والسكر أصبحت غالية الثمن وشديدة الندرة، ولم تنقض فترة على بداية الحرب حتى تم اللجوء إلى بطاقات التموين.

كان الناس يتجمعون بالمئات في شارع السلط، مقابل البلدية، لساعات طويلة، من أجل الحصول على المواد التموينية. وبعد الزحام والانتظار، كانوا يستلمون

مايستحق لهم، حسب عدد أفراد الأسرة. وهذه المواد القليلة في الغالب، لم تكن دائماً جيدة، أو في أوعية مناسبة، الأمر الذي يؤدي إلى تلف أو هدر قسم منها. كما كان البعض يلجأ إلى بيع مايستحق له، خاصة من المركرين، وكان هناك من يشتري سواء من المحتاجين أو من التجار.

وتزداد المصاعب التي تواجه الناس، ويزداد فقرهم، عدا فئة من التجار. فالمتسببون والذين يقومون بخدمات، خاصة للبدو وللرعايا التي كانت تتوافد من أمكنة كثيرة سابقاً، وأولئك الذين كانوا يسافرون الى الأقطار المجاورة في تجارات صغيرة، هؤلاء وغيرهم كثيرون، ضاقت بهم السبل، واصبحت معاناتهم كبيرة ومتزايدة. ومن الذكريات الموجعة عن تلك الفترة أن الكثيرين باعوا أعز مايملكون!

فبعد أن باع الكثيرون مايملكون من الذهب والفضة، لم يترددوا في بيع اشياء أخرى كانت ضرورية.

باعوا أول الأمر النحاس، واستبدلوا الأدوات النحاسية بأخرى من الألمنيوم،ثم باعوا الصوف.

كان الصوف ينزع من الفراش والوسائد، وبعد أن يُغسل ويجفف، كان يأتي من يشتريه، ويحل مكانه القطن، الأمر الذي لم يكن مألوفاً في عمان قبل ذلك الوقت.

وفي هذه الفترة كثر الذين يشترون الأشياء القديمة في كل مجال، إذا أصبح من المشاهد المألوفة أولئك الذين يمرون بين الأحياء، واصواتهم تدوي: " اشياء قديمة للبيع، اللي عنده أواعي قديمة للبيع، اللي عنده نحاس للبيع، اللي عنده قزايز فاضية للبيع". واغلب هؤلاء لايدفعون نقداً لما يشترون، إذ كانوا يجرون تبادلاً يبدو مرضياً للطرفين، كأن يُستبدل قدر النحاس بعدد من الصحون الخزفية والكاسات، أو كيلو الصوف بعدد من كيلو غرامات القطن وهكذا.

عمليات التفاوض والمساومة قد تتطلب وقتاً طويلاً، وفي حالات معينة تستغرق أكثر من يوم، ريثما يتم التفكير، وتأمين المقابل، وايضاً مشاورة رجل البيت. وفي محاولة لجعل الأمر جدياً وغير قابل للتراجع، يلجأ المشتري إلى تقديم العربون،وغالباً مايمتنع البائع عن أخذه إلا إذا كان مقتنعاً أو مضطراً.

لم يقتصر الأمر على أولئك الوسطاء البائسين، فقد عرفت عمان، وربما لأول مرة، خلال هذه الفترة: تجارة البالة، وقد بدأت بعد عام ١٩٤٢، اي بعد دخول أميركا الحرب، فقد أخذت تصل الى أسواق عمان، فترة بعد أخرى، أعداد متزايدة من بالات الملابس القديمة.

بدت المسألة، أول الأمر، شديدة الغرابة، فالملابس التي تصل في حالة جيدة، نسبياً ـ رغم أنها واسعة ـ ورخيصة، الأمر الذي أثار الاستغراب والتساؤل، فالعادة أن لايتم التخلي عن الملابس إلا إذا تلفت تماماً. أكثر من ذلك كانت تنتقل ملابس الكبار إلى الصغار، بعد أن تجري عليها التعديلات الضرورية، التجميلية أغلب الأحيان، لكي لايعترض الصغار على استعمالها.

كانت هذه البالات تصل إلى السبتية، إلى ابي فؤاد ومتري، وكان متجرهم مقابل سوق السكر، وغير بعيد عن سوق الخضرة. إن وصول البالات، أو فتحها،حدث هام في السوق، اذ يجري التكتم على الأمر، ريثما يتم التأكد من مواد البالة، من حيث النوع، نسائية أو رجالية، ثم مدى جودتها، وقيل أنه كان يجري تفتيش الجيوب ايضاً، وقد أسرَّ بذلك بولس، الابن الأصغر لمتري، إذ قال لأحد أصدقائه ذات يوم إنه وجد في أحد الجيوب كنزاً، ولم يحدد ماهية الكنز،وعندما سئل في اليوم التالي، وقد سأله الصديق ذاته، وربما بدفع من أهله،نفى بولس وأنكر ذلك بصورة مطلقة!

نظر الناس في عمان إلى الملابس القديمة بارتياب، لأن جودتها لاتتناسب مع سعرها الرخيص. ووجد من قال، في البداية، إنها ملابس الموتى، أو مخلفات المستشفيات، ولذلك خاف الناس وترددوا بشرائها أو ارتدائها، لكن مثل هذه الحجج لم تصمد طويلاً، نظراً للحاجة، ثم لأن عدداً من التجار الآخرين أخذوا باستيرادها، فقد استورد الشنانة وجمعان عدداً كبيراً من البالات، لكن صدف أن كان أغلب مافيها من القمصان دون ياقات، أو من القمصان الملونة غير المألوفة. واستورد الخليلي بالات كثيرة أيضاً، ووُجد في بعضها سترات، وُضع عند الكوع من كل سترة قطعة من الجلد، فقال احد رجال السوق، وكان معارضاً لهذه التجارة: "هذه اشارة أن من يلبس هذه السترة شحاد أو يتيم"، ولقد تسببت هذه الكلمة بخصومة بين الخليلي وذلك التاجر!

لم تتوقف تجارة البالة ولم تتراجع، بل العكس ماحصل، خاصة وان البالة،بتوالي الزمن، اصبحت تنتقل من مكان إلى آخر، إذ لم تعد متاجر السبتية المكان الوحيد الذي تباع فيه، فقد نشأ ، أثناء الحرب، أو حواليه، سوق اليمانية،وكان سوق الفقراء المكتفين، إذ يمكن في هذا السوق، أو منه، أن يشتري الانسان مايشاء. وهكذا أخذت تنتقل البالة، أو ماتبقى منها، إلى هذا السوق،وهناك تباع الملابس بأسعار لايمكن مناقشتها أو رفضها، واصبح الذين يترددون في شراء الملابس من السبتية، أو يخافون من التردد على متاجرهم، نظراً للاغراء الذي لايستطيعون مقاومته هناك، اخذوا بالتردد على هذا السوق، والتأكد مما يشترون.

ترافق مع البالة، ولدى السبتية ايضاً، الفانوس السحري، ووجود المبشرين الأمريكيين الذين اخذوا بالوصول بأعداد متزايدة.

ففي جبل عمان، قرب اللاسلكي، اقيمت كنيسة للسبتية، وفي هذه الكنيسة،خلال أيام معينة، كانت تجري عروض للفانوس السحري، يرافقها بعض الشروح مع الترجمة، اضافة إلى تلطف زائد من قبل المبشرين، الذين يكونون موجودين دائماً، وكانوا يتكلمون بلغة انكليزية مبسطة، مع ابتسامات كثيرة، في محاولة لاقامة علاقة مع الموجودين من اتباع هذه الطائفة او الزائرين.

لقد جرت في هذه الكنيسة اشياء كثيرة، لكن في جو من الغموض والتسائل ،فصموئيل الذي كان يفوق حجماً كل الذين يماثلونه في السن، والذي يفترض أنه تم تعميده منذ سنوات، جرى تعميده، مرة أخرى، في الكنيسة الجديدة، ولقد أقيم الاحتفال في عصر احد الأيام، وربما لم يكن يوم أحد، وقد أثار تعميده تساؤلات واستغراباً ليس فقط بين المسلمين، بل وبين المسيحيين بالدرجة الأولى.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فبولس الذي كان وحده يمتلك منفاخاً للكرة في جبل عمان، ذلك الوقت، كان يرفض أن يلعب او أن يساهم في اي نشاط يوم السبت،حتى المرة الوحيدة التي احتاج فيها الصبية إلى نفخ الكرة، وبعد الحاح من أصدقاء بولس، وافق بصعوبة، شرط أن يفعل الآخرون كل شيء: أن يذهب معه من سيتولى نفخ الكرة، أن يستخرج المنفاخ بنفسه من الدرج، الذي سيحدده بولس، أن يقوم بالعمل بمفرده، وبعد أن ينتهي يعيد المنفاخ إلى مكانه، وأن يغلق الدُرج أيضاً. لقد تم ذلك كله وفقاً لما طلبه بولس، الأمر جعل كل انسان يتساءل!

البالة، الفانوس السحري، المبشرون، ثم الدعوة لزيارة اميركا، أو الاقامة فيها،كانت هذه الأمور جديدة في عمان، فلما جاءت بعض الأمراض، في وقت لاحق، قال الكثيرون: إنها نتيجة تلك الملابس وربما بسبب السحر ايضاً.. خاصة وأن عدداً من هؤلاء أخذ في الهجرة إلى أميركا!

بعد ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، مايس ١٩٤١، تغيرت الأمور في عمان أكثر من قبل: شحّت المواد وارتفعت الأسعار من جديد، كما أن الحركة وتصرفات الناس أخذت نسقاً متحفظاً ومختلفاً، إذ كثر الهمس والزيارات بين الرجال، كما ظهرت علامات الحيرة والقلق على وجوه النساء، ورغم التكتم فإن حالة من الانتظار سيطرت على الجميع، خاصة وأن اذاعة برلين، خلال هذه الفترة، لم تعد تتكلم عن المعارك قدر ماتتكلم عن العراق، أو هذا ماأصبح الرواة يرددونه في المجالس.

وفي هذه الفترة بالذات سافرت الجدة إلى بغداد لتعرف مايدور هناك، ولتشهد كل شيء بنفسها!

أما تلاميذ العبدلية الذين كانوا يصادفون كلوب باشا مغادراً بيته في الصباح،وكان يسكن جبل عمان، أو يرونه داخلاً إلى القيادة قرب مدرستهم، في أحيان كثيرة، فقد شعروا أن شيئاً جديداً حصل. وقد تأكدوا من خلال أعداد البدو المتزايدة عند البيت، أو قرب القيادة، ومن تصرفات مبرد، مرافق كلوب، اضافة إلى تشديد الحراسات. أما جمعة، أبو محيي الدين، طباخ الباشا، فقد أصبح في حالة من الغضب الدائم، كما ذكر ابنه الصغير، محمد، لزملائه تلاميذ العبدلية، إذ لم تعد حياة الباشا كما كانت من قبل، فيوماً يتناول الطعام في البيت واياماً كثيرة يغيب، دون أن يُشعر جمعة بذلك، كما كانت الحال من قبل، وأصبح ضيوف الباشا كثيرين ومتنوعين، من الانكليز ورجال البادية، وغالباً مايُدعون فجأة دون أن يكون جمعة قد استعد.

وإذا كان أبو محي الدين يعرف الكثيرين من زملاء أولاده، وكان لايتردد في ممازحتهم، وبعض الأحيان يدندن بأغانٍ سودانية. وهو يعرف أنهم يسمعونه، فقد بدا في هذه الفترة انساناً نزقاً.

جرت كثير من الأمور دون أن يحس بها الناس في البداية، أو لم يقيموا لها وزناً، لكن تزايد أعداد البدو عند دار كلوب، ثم مجيء عريف واثنين من جنود البادية، ومرابطتهم عند الدار، وتسجيل أسماء "المراجعين"، وإعطاءهم بعض السلف المالية، اضافة إلى الحركة النشيطة في القيادة وحواليها، ومانقله بعض الهاربين أو المتأخرين من تلاميذ العبدلية، من أن سيارات الجيش كانت تنقل أعداداً من البدو، وكان هؤلاء لايكفون عن الغناء والصخب، هذه الأمور، وأخرى غيرها، جعلت الناس يتساءلون ويتشاءمون.

أحد تلاميذ العبدلية الذي زار أقارب له في الزرقاء، قال إنه وعائلته لم يستطيعوا ركوب القطار في الذهاب، لأنهم لم يجدوا مكاناً حتى للوقوف، أما في طريق العودة فكان القطار فارغاً، وقال مأمور القطار، وهو ينظر إلى التذاكر بعدم اهتمام:

ـ القطار كله على حسابكم وأنتم آخذينه سكارسا!

بدت الكلمة الأخيرة غريبة وجميلة في آذان التلاميذ، وهم يستمعون إلى صديقهم يروي أخبار الرحلة، وماكاد ينتهي حتى أصبح اسمه، منذ ذلك الوقت،

سكارسا. اما لماذا الزرقاء بالذات فلأن فيها مقر قيادة قوات الحدود، وفيها المعسكرات التي كان يجري التدريب وتحشيد القوات لما سيأتي من الأيام.

ترافق هذا مع تصرف بدا أول الأمر صغيراً أو عادياً، فالجدة حين ذهبت لتسافر،وبعد أن تم ترتيب حوائج المسافرين في السيارة، وكادت تمضي، جاء اثنان: أحد جنود البادية وآخر معه، أنزلا شاباً كان مع المسافرين، واقتاداه مع حقيبته إلى حيث لايعرف أحد، وحين سئل صاحب الكراج رد وهو يدير وجهه الى الناحية الثانية:

- هذا ماهو الأول ولا راح يكون الأخير، ومحل ماخذوا اللي قبله أخذوه...

وحين التفت، وكانت العيون لاتزال تتساءل، رد بحزن:

- والله ياجماعة الخير علمي علمكم...

وبعد قليل:

- صار لهم فترة... كل زلة، تحت الخمسين، رايح للعراق، يا إما برجّعوه يا إمّا بياخذوه لبيت خالته.

أما بعد فترة فقد أصبح الموقف اكثر وضوحاً وذا دلالة لاتخفى. فالسياسيون - وهو تعبير يطلق على المعارضين بشكل خاص، سواء أكانوا من أهل البلد ذاته أو من الذين جاءوا لاجئين - لم يعودوا بوضع مناسب. والقصص التي تروى في هذا المجال كثيرة وشديدة التباين، حسب الراوي وعلاقته، سلباً او ايجاباً، بمن يروي عنه، وبالتالي كان يحدد موقفاً ويعطي حكماً أكثر مما يروي حوادث وقعت أو يمكن أن تقع، لكن من جملة الكلمات التي كان لها وقع مميز، وتأثير سيمتد لسنوات كثيرة لاحقة، كلمة تختلف عن الكثير من الكلمات الأخرى: سرقنوا فلان.

ففي هذه الفترة "غادر" بعض السياسيين الضيوف؛ لايعرف ما إذا غادروا نتيجة الرغبة أو نتيجة الضغط، ولم يعرف بمغادرتهم إلا بعد فترة من الزمن. لكن كثر الحديث في هذه الآونة عن أمور جرت وأخرى تتلوها، الأمر الذي دفع بعض السياسيين في عمان لأن يرفعوا أصواتهم، لأن يحتجوا، مما ادى إلى سرقنة بعضهم.. أيضاً.

ليس ذلك فقط، عاد لكلوب باشا الاسم الذي كان له من قبل، أبو حنيك،وكان هذا الاسم لايتردد إلا همساً أو بتحفظ وبين الأصدقاء، لكن نتيجة تزايد المعلومات عن دوره، والقوات التي يعدّها لاجتياح العراق، فقد بلغ الغضب بالناس حداً

جعلهم لايسمونه إلا بهذا الاسم، كطريقة في الاحتجاج أو الشتيمة! أكثر من ذلك، أصبح نشيد: بلاد العرب أوطاني، الذي كان يُردد مرة في الاسبوع، النشيد الذي يتردد أكثر من مرة في اليوم الواحد، كان ذلك يجري بنوع من التواطؤ الضمني بين التلاميذ والادارة، أو ربما بتحريض منها، كتعبير عن موقف التضامن مع بغداد. كما أصبحت الأناشيد الوطنية الأخرى تتردد أكثر من قبل، وصدف عدة مرات وطابور السوق يصل إلى وسط المدينة، بالقرب من مكتبة الصفدي، أن يبدأ نشيد "بلاد العرب أوطاني من الشام إلى بغدان"، وكان يشارك فيه الجميع،التلاميذ والناس الموجودون في السوق.

قبل أن ينتصف الربيع وصلت قوات انكليزية من فلسطين، رأى الناس بعضها يمر في المدينة، وقال الكثيرون أن القوات التي مرت في الظلام تفوق تلك التي رأوها، وأنها اتجهت شرقاً، لكن لايعرفون إلى أين.

وفي هذه الفترة تم شراء أشياء كثيرة من السوق. الطحين،العدس،الغنم،البغال حتى الصبيحي الذي كان يعتز بحميره الصلّبة والقبرصية،الكبيرة الحجم والقوية، باعها واشترى غيرها،وقيل إنه اشترى حميراً من النور،كانت صغيرة الحجم وشديدة السواد،وبفارق السعر بين البيع والشراء زوّج ابنه ابراهيم ووسع بيته!

كما أن عدداً من الناس الذين كانوا من معارف كلوب،ولايمكن القول أنهم من أصدقائه، وبعض أقارب مبرد وأصدقائه، أصبحوا لايغادرون سوق الحلال والاسواق الأخرى، كانوا مستعدين لشراء كل شيء، من رعايا الأبل إلى التمر والقمر الدين، وكانوا يدفعون الكثير، دون تردد، فتشاءم الناس وقالوا: "أبو حنيك ولّع السوق، وباكر أو اللي بعده راح يحرقه".

وجاء عدد من أهل الزرقاء يبحثون عن أقارب أو معارف لكي يعاونوهم من أجل تأمين بعض مشتريات قوات البادية، من الأرزاق إلى الحطات والعقل، إلى الصابون، إلى أشياء أخرى لاتخطر بالبال، بما في ذلك المرايا والأمشاط والعطور والسكاكر!

أما الذين كلفوا بتموين قوات البادية من الطعام فقد أصبحوا خلال فترة قصيرة مضرب المثل في الثراء، ثم بعد ذلك في الرفاه، وكان بعضهم غير معروف، أو لايستطيع أن يؤمن رزق يومه، فقال الناس وهم يرون كل ذلك أو يسمعونه: اللهم نجنا من الآتي، اللهم رد كيدهم إلى نحرهم.

لو لم يكن الربيع قد أتى، وتوجه الكثيرون إلى البرية، لمات خلق كثير، كما قال المسنون. وقال المسنون أيضاً: إذا انسد باب يفتح الله الف باب. هكذا بدأ سؤال الأرض عن خيراتها، تلك الخيرات التي كونتها الطبيعة، وسخت بتقديمها للناس،إذ أصبحت تصل إلى عمان كميات وفيرة من الكما والعكوب والخبيز،وأنواع اخرى من خضرة الربيع، كما أن الزروع حول عمان كانت توحي بمواسم لايجوع فيها الناس.

ولأن اللحوم، وأغلب مشتقات الحيوان، اصبحت مرتفعة الأثمان، غالية وعزيزة، فقد لجأ الناس إلى عملية استبدال سريعة، فوديع اللحام، المتخصص ببيع لحم البقر والجمل، وكان محله قرب الحمام، غير بعيد عن المدرسة الثانوية، اصبح اكثر اللحامين نشاطاً وبيعاً. كما ان الذين لم يتعودوا الوقوف عنده إلا لنظرة سريعة يلقونها على الذبيحة، وكانت تبدو خارقة الحجم، ويميل لونها إلى الدكنة قليلاً،أصبح هؤلاء يقفون ويطيلون الوقوف، لعلهم يستطيعون الحصول على قطعة من سنام الجمل، باعتبارها اللحمة التي يمكن أن تلوكها أسنانهم وتقوى على التعامل معها، أو أن يحصلوا على قطعة من لحم الظهر للبقرة المسنة المذبوحة.

في وقت سابق كان معظم زبائن وديع من البدو والفقراء، اما في هذه الفترة فلم يعد أحد في عمان إلا ويعرفه، ويقصده إذا أراد شراء اللحم. وكانت تصل إلى وديع أيضاً شتائم اللحامين الآخرين، وبعض الأحيان تعريضهم!

وبدأت تصل عمان في هذه الفترة أيضاً أكياس متزايدة من الجراد، كانت تذهب مباشرة إلى سوق الحلال بالقرب من رأس العين، كانت تصل على شكل هدايا يحملها بعض الذين يأتون من الجزيرة العربية. وإذا كانت عادة البدو أن يتناولوا الجراد ويأكلونه بلذة ورغبة، تماماً، كما يتعامل أهل الحضر بالبزر والقضامة، فإن أهل عمان لم يستسيغوا هذه الوجبة.

حتى عبيدان القحص، وهو يعقد مجلسه كل ليلة، تقريباً، ليتداول مع الجيران والمعارف في شؤون الحرب والسلام! وكانت الجريدة تقرأ بعض الأحيان في مجلسه، لتكون الأمور أكثر وضوحاً ودقة! لم يستطع عبيدان أن يقنع ضيوفه بتناول الجراد، عدا أولئك البدو الذين يتقدمون دون دعوة، كان يفعل ذلك لتأكيد أصوله البدوية من ناحية، ولكي يقدم بعض نظرياته في شؤون الصحة والمرض من ناحية ثانية!

بكلمات قليلة: أصبحت عمان في هذه الفترة مرجلاً يغلي، إذ كانت هناك أسباب كثيرة للغضب والحقد، وكان لدى كل انسان مايقوله. أما عندما جاء بعض

الضباط الانكليز للاقامة، واستأجروا بيوتاً من أجل ذلك، ثم جاؤوا بأولادهم وكلابهم، فقد لاقوا الكثير من العنت والمضايقات!

فمايكل، ابن ذلك الضابط الذي سكن في شارع منكو، على الزاوية، مقابل بيت سعيد المفتي، لم يقبل في حلقة الأطفال، ولم يشرك في لعبة الكرة إلا في وقت متأخر جداً، وبعد أن قدم تنازلات كثيرة! أما كلب الضابط فلم يبق حجر في ذلك الشارع يصلح لأن يرمى إلا ورُمي به، الأمر الذي كان يخرج أبا مايكل عن طوره، ويجعله يصيح، ويطارد الأطفال بعض الأحيان.

أما الاعتداء على الجنود الانكليز، خاصة السكارى، في السوق، فقد تكرر مرات، وكان لدى الناس مايقولونه لتبرير ذلك!

وحين بدأت مفارز الشرطة بقيادة حكمت مهيار تجتاز السوق مستعرضة، أو لتبديل الحراسات، لم تكن تقابل بالود، رغم أن الشاويش مهيار يبدو في منتهى القوة والنظام، والحزم أيضاً، وهو يعطي الايعاز بالسير أو التوقف.

أكثر من ذلك بدأت تقام احتفالات لموسيقى الجيش في ساحة الجامع الحسيني وعند المدرج الروماني، لكن الناس لم يكونوا بوارد سماعها أو الالتفات إليها.

كان ذلك يجري كستار لما يحضّر، وكان أبو حنيك كل شيء.

أما حين وقعت هزيمة مايس، وهرب رشيد عالي ورفاقه، وعرف الناس أكثر فأكثر مافعله كلوب، فقد أحسوا بالاهانة والغضب، خاصة بعد أن ألقي القبض على قادة مايس وسيقوا من إيران إلى بغداد ليعدموا فيها، إذ لم يبق أحد خارج دائرة الحزن الأسود والمرارة القاتلة، وأصبحت شتيمة ابو حنيك على كل لسان.

بعد ذلك، وإلى أن يطرد كلوب من عمان عام ١٩٥٦، ورغم المحاولات التي بذلها، وكانت زوجته تشاركه، لاقامة علاقات، أو لتحسين صورته، ظل ذلك القاتل المخادع والمكروه، وظل يزيد الحراسات حوله ويقويها، لكي يفلت وينتهي كما خطط وكما يشاء، لكن الفرح الذي عبر عنه الناس حين طرد، حين لم يُمهل من أجل ايجاد مأوى لعصافير الحب التي ملأت الركن الشرقي من حديقة منزله،كمحاولة لشراء عطف مخلوقات من نوع ما، بعد أن فقد عطف الناس،فتحكي قصة عمان في مرحلة من الزمن!

ولأن الزمن لاينتهي ولايتوقف، فالحكايات تستمر وتتزايد، خاصة في زمن الحرب.

٦

لم تحضر الجدة، هذه المرة، حين عادت من بغداد بعد زيارتها التي استمرت عدة شهور، اباريق عليها رسوم جديدة، أحضرت مجموعة من السدارات.

كانت ألوان هذه السدارات تتروح بين الأسود والرمادي، بين البني الداكن والبهاري. حين فردتها بدت وكأنها سفن مقلوبة. نظرت إلى كل الوجوه ونظرت إلى السدارات عدة مرات لعلّها تختار لكل رأس ما يناسبه، أما حين جرى التوزيع فقد حصل كل واحد على السدارة الخطأ!

كان حظ قريبين يدرسان معاً في العبدلية أن حصل أحدهما على سدارة رمادية،والآخر على واحدة شديدة السواد. كانت الرمادية، للرأس الذي اختير لها، كبيرة إلى درجة يمكن أن تضم رأساً آخر، لذلك عولج الأمر باضافة خرقة كُوِّرت بشكل مناسب لكي تسند السدارة من الخلف فلا تغطس في الرأس. أما السدارة السوداء، فكانت شديدة الصرامة، رسمية جداً، إلى درجة لاتناسب ابن تسع سنين!

تلاميذ العبدلية لم يألفوا هذا النوع من أغطية الرأس، ولم يكونوا معها رحيمين أو متسامحين، إذ ما إن رأوا السدارات، باستغراب أقرب إلى الدهشة، أول الأمر،لم يترددوا في أن يحوموا حولها، وبخفة لاتخلو من براعة انتزعوا الرمادية، كان انتزاعها سهلاً، وبعد أن قلّبوها، دارت من يد إلى أخرى، مالبثت أن طارت في الهواء، فقد "ورها" أحدهم كطريقة من طرق الاختبار. طارت، ونزلت . التقطتها يد أخرى، ورتها، ارتفعت أكثر من المرة السابقة، لكنها نزلت أيضاً،حاول صاحب السدارة أن يمسك بها، لكن غيره كان أسرع منه، وهكذا ظلت السدارة الرمادية تصعد وتهبط، بعناية أول الأمر، إلى أن وقعت في يد غير حكيمة ولاتعرف الرحمة، فلاحتها، وبهذه اللوحة عبرت الحائط، إلى الجهة الثانية،وغابت!

السدارة السوداء كانت أكثر ثباتاً على الرأس، وقد أعطت لصاحبها هيبة

مبكرة،ولذلك كان التعامل معها أشق، كما أن صاحب السدارة، وقد رأى السدارة الأخرى تطير، تعامل مع سدارته كما يتعامل مع الحطة والعقال، إذ وضع يديه فوقها بحيث تعذر انتزاعها، إلى أن حسم الأمر كله الجرس.

بعد أن تحرك التلاميذ نحو الساحة الجنوبية تمهيداً للاصطفاف، ظهر المدير يوسف الجيوسي، فلما رأى التلميذ عاري الرأس قال له:

ـ اطلع.

خرج التلميذ من الصف، وكان خائفاً ومحرجاً، ولما اكتشف المدير "الثور الأسود" أخرجه أيضاً!

قبل أن يبدأ النشيد، وتعطى الايعازات للدخول إلى الصفوف، كان التلميذان ينتظران عند الادارة.

قال أبو حلمي، وهو يسألهما قبل وصول المدير:

ـ اليوم السبت، ياجماعة الخير، والكشافة واللعيّبة لعبوا مبارح وأول امبارح حتى شبعوا، فليش واحدكم اليوم مفرع والثاني كشاف؟

حاولا التوضيح، لكن دون شروح طويلة، خاصة وأن الذي يسأل لايُعتبر "جهة مسؤولة" أما حين سألهما المدير وأجابا، فإنه فهم لكنه لم يقتنع، إذ بعد مناقشة قصيرة أمرهما بالعودة إلى البيت.

قالت الجدة، وقد رأت أحدهما يحمل سدارته بيده، والآخر عاري الرأس ولايحمل شيئاً:

ـ قلت لروحي: السدارة موسهلة، ينراد لها رجال!

شعرت بالندم لهذه القسوة، أضافت وهي تحاول الابتسام:

ـ كان يلزم أجيب وياي ملاعيب بدل هذي البلاوي.

وبعد أن استوضحت عما حصل، قالت، كأنها تخاطب نفسها:

ـ إي نعم، اللي مايعرف السدارة مايقدّرها، مثل اللي مايعرف الطير يشويه!

في الليل، وحين لاحظت الجدة صفنة صاحب السدارة الضائعة، قالت، بطريقة أقرب إلى الأمر:

ـ لازم تطفر التغية وتدّور عليها حتى تلاقيها، لأنها غالية، هذي موقشمرة،هذي توصاية!

طبيعي لم يَعثر على السدارة، ضاعت، كما ستضيع أشياء أخرى كثيرة في

وقت لاحق، لكن التلميذ الذي ضاعت سدارته كبر في لحظة، تعلّم كثيراً، قال:

ـ عندي حطتين، وماأريد أصير مسخرة!

أما الجدة، وهي تتذكر، فقد قالت:

ـ ينراد أيام وسنين حتى عمان تتعلم على السدارة!

لكن عمان تعلمت أسرع مما قدّرت الجدة!

فمكتب عنبر الذي كان جامعة كبرى للكثيرين في بلاد الشام، مطلع هذا القرن وحتى نهاية العشرينات، كان يمنح خريجيه، بالاضافة إلى الشهادة والمنصب، كان يمنحهم الطربوش، ولذلك فإن معظم الذين تخرجوا من هذا المكتب، وأولئك الذين تقلدوا مناصب في دمشق وبيروت وعمان وفلسطين، كانوا يرتدون الطرابيش.

صحيح أن للطربوش تاريخاً أسبق من مكتب عنبر، وأنه يعود إلى فترة عثمانية مبكرة، لكن دلالاته "الغنية"، خاصة في هذه المرحلة، وبقدر تعلق الأمر بالوظيفة الرسمية، فقد أصبح أحد العناصر التي يجب توفرها، قدر الامكان فيمن يشغل وظيفة رسمية عالية، فرؤساء الوزارات والوزراء وكبار الموظفين، اياً كانت أصولهم، اعتمدوا الطربوش زياً وحرصوا على ارتدائه.

ولاتزال عمان تتذكر وتبتسم حين تستعيد صور بعض رجالاتها قبل الطربوش ثم بعد أن ارتدوه، فأحمد الطروانة يبدو بالطربوش خائفاً، وأحمد اللوزي يبدو أكبر من عمره بسنوات عديدة. أما حين ارتدى رياض المفلح وفلاح المدادحة الطرابيش فلم يصدق احد، حتى من رأى الصور ، الى ان شاهدهم الناس حقيقة بالطرابيش.

وقد يكون من الطريف، وربما من المفيد أيضاً، لو أن أحداً يستطيع الالتفات إلى دراسة هذا الموضوع من خلال الصور الفوتوغرافية.

لايقتصر الطربوش على ذوي الوظائف الرسمية الكبيرة وحدهم، فالكثيرون من الشوام والنوابلسة، ثم غيرهم بعد ذلك، كانوا يعتمرون الطرابيش، للدلالة على الموقع الاجتماعي، وللتعبير عن الأهمية أو الطموح.

وإذا كانت طرابيش المسؤولين داكنة قليلاً، في الغالب، ووازنة على الرأس،لاتتحرك إلا بمقدار، والشراشيب فيها دائماً إلى الخلف، فإن وضعية الطرابيش الأخرى متعددة.

أبو حسن الحلاق، المطهر، الذي يعرج قليلاً، يتعمد أن يكون طربوشه

مستريحاً، أي يميله قليلاً أو كثيراً إلى الخلف، ويجعل شراشيبه عند الأذن اليمنى،وهذا يدل على الرضى وخلو البال وحب الطرب. أما طربوش روكس بن زائد العزيزي، القوي الصارم، وهو في طريقه إلى مدرسة تراسنطة، فيدل على الجدية البالغة وانشغال البال، بحيث لا ينتبه إلى ماحوله، تماماً كالسفينة المسرعة التي لاتحفل بالموانيء الصغيرة! وعبد الرؤوف منكو يعتبر طربوشه عبئاً زائداً، لكن لابد من ارتدائه، ولذلك حين يرتديه تنركه مسترخياً شديد الميلان على رأسه، وهذا تعبير عن موقف، إن لم يكن فلسفة كاملة في الحياة!

أما صبري الطباع فإنه يتعمد أن يميل طربوشه، لكن بمقدار، وبشكل مدروس،لكي لايجعل من ينظر اليه يركز على طوله أو يكتشف قصره! ومحمد الجمعان لبس الطربوش خطأ، إذ بعد أن زار القدس وصلى في الأقصى، وفي لحظة وجد، قرر أن يعود إلى عمان بالطربوش الموسوم بقطعة صفراء، وحين رآه جماعته، العقيل، أنكروه، فعزّ عليه الأمر، مما اضطره إلى خلع الطربوش والعودة مرة أخرى إلى الحطة والعقال.

حين يتغير وضع الطربوش على الرأس يشير إلى: المزاج النفسي أو أهمية الطرف المقابل، وربما نوعية القضايا التي يجري بحثها.

فالطربوش إن كان مستقيماً وثابتاً له معنى، أما إذا كان مائلاً إلى الخلف فيدل على المزاج الرائق، ولايخلو من الرغبة في التوجيه أو السخرية.

بشير الصباغ، مدير الكلية الاسلامية، بعد أن يشرف على تحية العلم، ويدخل الطلاب، يستقبل بعض التلاميذ المتأخرين في الادارة، فإن أزاح طربوشه إلى الخلف فمعنى ذلك أنه يريد أن يقدم النصح، وأن يكتفي باللوم والتنبيه، دون اللجوء إلى الضرب. أما إذا كان طربوشه بوضع "الاستعداد"، فلابد عندئذٍ من توقع أقصى الاحتمالات!

أما محمد أبو غربية المدير اللاحق للكلية الاسلامية، والذي ارتدى الطربوش متأخراً، فحين يخلع طربوشه ليتحدث إلى التلاميذ المخالفين، فمعنى ذلك الزهق ونفاد الصبر، وعدم الرغبة أو القدرة على توقيع العقوبات. أما إذا ثبت الطربوش بقوة فيكون قد استكمل عدته، ويمكن أن يستعمل كل الوسائل للتأديب، بما فيها الملاكمة والشلاليت!

علي سيدو الكردي، مدير الثانوية، وهو في طريقة إلى منصة الخطابة، يثبت طربوشه ويتأكد من وضعيته تماماً، ثم يحكم اغلاق السترة، ليبدأ بعد ذلك توجيه خطابه السنوي إلى الطلاب والمعلمين.

ويعقوب هاشم، رغم أنه قليل العناية بملابسه وشعره، كان يعتبر الطربوش

عائقاً في حل المسائل الرياضية المعقدة، ولذلك لايتردد في أن ينزعه، وعند ذاك يبدو غريب الشكل، أقرب الى الذهول، لكن تصبح المسائل قابلة للحل السريع!

أما الأستاذ محمود العابدي حين يصف معركة اليرموك، ويكون في منتهى الانفعال والتألق، فلا بد أن يزيح الطربوش قليلاً إلى الوراء، لكي لايعيقه شيء عن الاسترسال واستعادة التفاصيل. أما إذا تحدث عن موقعة الجمل فيكون الطربوش عندئذٍ مائلاً، لكي يضفي على الوجه مسحة من الحزن تتناسب مع الموضوع،ولاستخلاص العبر أيضاً.

والأستاذ محمد حمدي الطاهر يفترض نفسه دائماً خطيباً في مسجد كبير، أياً كان المكان الذي يتحدث فيه، ويفترض أن التلاميذ حقل تجارب. لذلك لابد أن يجري "بروفة" خطبة الجمعة على التلاميذ قبل أيام ليرى تأثيرها على المصلين،والطربوش في هذه الحالة يلعب دوراً مركزياً، فإذا زاد الانفعال عن حدٍ معين لابد أن يخلعه ويخرج منديلاً لكي يجفف العرق. وإذا "حبكت" معه لابد من نكتة تناسب الحال والطربوش في يده، وهذه من جملة النصائح التي يشير إليها بعض المؤلفين الأميريكيين لكسر الرتابة، ولترطيب الجو، والسيطرة على المستمعين!

ولابد من التأكيد هنا على فرق بين الطربوش "الأصلي" والطربوش الجديد. فالأول الذي يرتديه صاحبه منذ وقت طويل، وأصبح جزءاً من شخصيته، لايمكن التخلي عنه في أغلب الأوقات، صيفاً وشتاءً. أما الجديد فهو المستدرك، الذي فرضته اعتبارات معينة، والذي تم ارتداؤه في وقت متأخر، الأمر الذي يجعل التخلي عنه وارداً في المناسبات الكبيرة أو الحزينة، في حالات الموت أو تقديم العزاء، وفي أيام الشتاء، أو أثناء زيارة الأهل في القرى البعيدة.

ومثلما لوضعية الطربوش على الرأس دلالة لاتخفى، فإن نوع الطربوش يحدد الانتماء والمستوى الاجتماعي. فطربوش نابلس يختلف عن طربوش الشام. الأول أكثر دكنة، أطول، اضافة إلى أن نهايته أدق. أما الطربوش الشامي فأقصر من حيث الارتفاع، وأكثر توهجاً، إذ يبدو كالبطيخة الناضجة، كما أن موقعه قابل للتغيير و"إعادة النظر" مرات عديدة في اليوم الواحد، تبعاً للحظة ونوع الحديث والشخص المقابل. وقد لايكون من المبالغة القول أن الطرابيش الشامية فرحة،تتكلم، وإن كلامها مفهوم أغلب الأحيان، ليس فيما بين الشوام وحدهم،وإنما مع الآخرين أيضاً!

ما يلبس من زي مرافق للطربوش يختلف تبعاً للوظيفة والموقع الاجتماعي.

فالموظف، مهما كان موقعه، لابد أن يلبس السترة والبنطال، وهذا هو الزي الرسمي، عدا الشيوخ الذين يمكن أن يلبسوا الطربوش مع القفطان. أما الملاكون وأصحاب المصالح فإن الهامش أمامهم واسع. فالتجار الشوام الكبار، كالطباع وبدير والبيطار وشقير ، وآخرين، حسموا أمرهم بأن اختاروا الزي الافرنجي - زي الأفندية - أي السترة والبنطال، وبلون واحد. أما من هم اقل ثراء، أو لايحركهم طموح كبير، فإنهم لايأبهون لما بعد الطربوش. كانوا يلبسون القمباز، وكانوا يلبسون السترة والبنطال، بلون واحد أو بأكثر من لون، ولكنهم في كل الحالات يصرون على الطربوش. حتى البقال الصغير، بعد أن يخلع ملابس "الطلعة" ويرتدي ملابس العمل في بقاليته، يستبقي الطربوش على راسه، لأنه لايقوى أن يكون "عارياً" أمام الآخرين! اكثر من ذلك، في ايام الصيف الحارة، حين يكون التاجر في دكانه عاري الراس، ما إن يدخل مشترٍ او زائر، فإن اول مايفعله أن يضع الطربوش!

وإذا كان لصاحب الدخل المحدود طربوش واحد، وفي أحسن الحالات اثنان، فللغني طرابيشه الكثيرة، والتي تتفاوت من حيث اللون والمقاييس وأوقات الاستعمال. ومعنى ذلك أن صناعة الطرابيش كانت مزدهرة ولها اربابها، ولعل أبرز هؤلاء كان الطرابلسي، في شارع فيصل، بالقرب من مكتب عبدالله أبو قورة.

كان كي الطرابيش وتنظيفها وإعادة شدها، أو صناعة الجديد منها، تستهوي الأطفال، إذ يقفون لفترة طويلة أمام محلات الطرابلسي، يرقبون القوالب،يتابعون البخار، ينظرون بدهشة الى طريقة ربط الشراشيب. ولايحسون بمرور الوقت، كما لايتحركون إلى أن تاتيهم أوامر صاحب المحل:

- ياالله أنت وهو، خلينا نترزق، خلينا نشوف وجه ربنا!

يتحرك الأطفال، ويتذكر الذين كانوا منهم في مكتب الشيخ سليم الأخوة الثلاثة أصحاب الطرابيش.

فرغم أنه لايشترط رداء خاص للرأس في المكتب، إلا أن هؤلاء الاخوة الثلاثة كانوا شديدي الحرص على ارتداء الطرابيش، فإذا ساروا في الشارع، بترتيب يتناسب مع أعمارهم، بدوا مضحكين، رغم الجدية التي كانت تسم وجوههم! أما اذا وقف الكبير إلى جانب الشيخ زكي، فكان يبدو أطول منه، لكنه يبدو أيضاً شديد النحافة مقارنة به، ولذلك كثيراً ماسأله التلاميذ ساخرين: من منكما، أنت أم الشيخ زكي، يأكل من زيت الجامع؟ وحين يغضب الصبي تكون مناسبة لأن يصبح

طربوشه، أو طربوشا أخويه هدفاً، الأمر الذي اضطر الشيخ زكي، بعد أن كثرت الشكاوي المتعلقة بالطرابيش، لأن يطلب منهم خلع طرابيشهم ووضعها في الشباك، إلى جانب تنكة الريحان، فقال الخبثاء "لايحتمل الشيخ زكي أن يرى أحداً أطول منه"!

قد يكون حديث الطربوش طال أكثر مما يستحق، لكنه يبقى، مع ذلك، أحد المؤشرات في قراءة مجتمع، وما طرأ عليه من تغيرات، لأن الانتقال من زي إلى آخر تمليه اعتبارات كثيرة، من ضمنها الحاجة والضرورة ونوعية العمل، اضافة إلى ما يمثله الزي من معنى أو طموح، وأيضاً مايواجهه من حضارات وتحديات.

فأن تكون عمان أحد أهم مواطن الشركس، وأن يكونوا فيها كثيرين وأقوياء، بما في ذلك عاداتهم وطريقتهم في اللباس والتصرف والزواج، لابد أن يترك آثاراً مهمة، فمشكلة سفور المرأة، مثلاً، وهي إحدى مشكلات المجتمعات العربية والاسلامية، وجدت في عمان حلاً ايسر من مجتمعات أخرى، لأن المرأة الشركسية لاتعرف الحجاب، اضافة إلى أنها موجودة في العمل والحياة الاجتماعية، ولكونها مسلمة، فقد سهّل هذا الأمر، خاصة حين التقى التسامح الشركسي بالتسامح البدوي، حيث للمرأة في هاتين البيئتين دور ولا تعرف الحجاب في نفس الوقت، مما جعل الانتقال من الحجاب إلى السفور ميسوراً دون قيود المجتمع المديني المتعصب الكثير العقد والمحرمات، كما هو الحال في عدة مجتمعات عربية أخرى.

كما أن المجتمع الاسلامي المسيحي، الواسع والغني والمتفاعل، في عمان،حيث كان المسلمون والمسيحيون يعيشون في نفس الأحياء، وتجمع بينهم روابط الجوار والعمل، جعل الكثير من التحديات والمشكلات تجد حلولها دون عقد أو تعصب، ودون "ميراث" مثقل بالعداوات والاختلاف.

ففي شارع منكو، على سبيل المثال، كما في شوارع أخرى كثيرة في عمان، كان المسيحيون والمسلمون، العرب والشركس، الذين ولدوا هنا والذين جاءوا من أماكن أخرى، يعيشون معاً وبتآخٍ. ولأن المجتمع في بداية تكوينه، وليس لأحد ميزة أو أفضلية، فإن التفاعل كان أكثر سلامة وقوة، خاصة وأن الجميع يواجهون الصعوبات ذاتها، ويريدون أن يصلوا الى حلول لها، أكثر مما يريدون مزايا لدينٍ أو جنسٍ، وهكذا بدأت عملية تفاعل وتداخل وتعاون لا تحدث إلا في حالات خاصة.

لايعني ذلك أن حالة من التماثل كانت هي السائدة، إذ ربما العكس هو الصحيح، وإنما حالة من التعدد والتنوع إلى درجة كبيرة، لكن ضمن سياق من الانسجام والتكامل، وبهدف التقارب والوصول إلى المشترك أو الموحد.

فلو مرّ سائح في عمان خلال فترة الأربعينات - ولاشك أن مر الكثيرون - فإن الانطباع الأول الذي يخرج به أن المدينة تعيش في كرنفال دائم من حيث الملابس واللهجات والعادات، لأن التعدد الموجود يفوق أي مكان آخر.

ففي أحد تفرعات شارع منكو، مثلاً، كانت نساء الفحيص المسنات ينصبن الغلايين الطويلة مرتين على الأقل في اليوم، مرة عند الضحى والأخرى قبل المغيب. وبعد أن تعمّر هذه الغلايين، والتي يزيد طول الواحد منها عن المتر،بالدخان الهيشي، يبدأن بالحديث ومراقبة الطريق ونقف الدجاج، حين يقترب أكثر مما ينبغي، بالحصى، ويتلمسن، بنفس الوقت، بين فترة وأخرى،المدار ق السوداء الطويلة المنشورة على حبال الغسيل، هذه المدارق التي يتساءل الانسان عن عدد طياتها حين تُلبس، خاصة وهو يراها تحتل هذه المساحة الكبيرة.

وفي التفرع ذاته مدرسة صغيرة تديرها أختان مس اليس ومس مارغو، ملابس كل منهما تنتمي إلى أحدث الأزياء الأوربية، واللغة السائدة في المدرسة هي الانكليزية. وغير بعيد عن المدرسة وعن الغلايين، وفي الاتجاهين، قلابق الشركس وقاماتهم الحادة، اضافة إلى مجموعة من اللهجات: النابلسية والشامية والنجدية،عدا عن اللهجة العربية الأرمنية التي كانت قليلة نسبياً، ولكنها موجودة في هذا الشارع، كما في الشوارع الأخرى، وتتمثل هنا بالمصور الأرمني روبين.

فإذا ذهب الانسان في هذا الاتجاه أو ذاك يقابل عدداً من المظاهر والأشياء تتزايد وتختلف، ومع ذلك فإن الأسواق، وخاصة سوق الخضرة، مكان اللقاء. ولأن عمان صغيرة وقليلة السكان في ذلك الوقت، فإن الكثيرين، الجميع، تقريباً ، يعرفون بعضهم، أو على الأقل صدف أن التقوا، وفي أماكن متعددة،مرات.

الحطة والعقال غطاء الراس الأكثر انتشاراً، وهو الزامي بالنسبة للتلاميذ في المدارس الحكومية، والحلاقة يجب أن تكون "صفر". فإذا جرى التساهل، خاصة في فصل الشتاء، فيجب أن يكون الشعر قصيراً. كان الأستاذ حسيب (ربما الخطيب) في المدرسة الثانوية، وقبل أن يبدأ الدرس، يفتش الشعر والأظافر، وويل لمن يكون مخالفاً. أكثر من ذلك كان، ومعه الأستاذ وهيب، لايترددان في أن يستعملا المسطرة لا للضرب فقط، بل وللتأكد أيضاً ماإذا كان في الشعر حشرات غريبة! ولقد بلغ التشدد اقصاه حين اجتاح التيفوس عمان عام ١٩٤٦.

مدرسة المطران - ومدرسة تراسنطة في وقت لاحق، وأيضاً الكلية الاسلامية - لم تشترط ولم تلتزم بغطاء محدد للراس، وكان هذا أحد مظاهر غيرة الآخرين من

المطران، ففي نهاية الصيف، وبعد أن يكون الكثيرون من تلاميذ المدارس الحكومية أطالوا شعورهم وبدأوا باستعمال "البريل كريم"، وبعد أن أخذوا يحسّون بأولى خفقات القلوب، والاعتراف بوجود الجنس الآخر تبدأ السنة الدراسية بأن يقص هؤلاء شعورهم ويرتدوا الحطات!

وإذا كان هناك عدد محدد، نسبياً، من التنوع في ملابس الرجال، فإنه في ملابس النساء بلا حدود.

حتى الملاية الشامية فإنها عديدة وليست واحدة. فأم علي الشرشوحة،مثلاً،تلبس بطريقة مختلفة تماماً عن زوجة مأمور البلدية، إذ كانت الأخيرة تضع "البرنجك" الشفاف، لكي تبرز ماتتمتع به من جمال وإغراء، بحيث تقف أم علي ذاتها لتنظر إليها، بعد أن ترفع طاقاً واحداً من المنديل الذي تضعه على وجهها،وتبالغ بعض الأحيان فترفع الطاقين، لكن بميل معين، لكي لايتمكن رجل من أن يرى وجهها كاملاً أو بوضوح!

كانت أم علي تردد دائماً كلمة محددة، وهي تهز رأسها وتتابعها:

- لِكْ،لِكْ المقصوفة ... لِكْ المقصوفة ...سبحان الله !

ولايُعرف على وجه التحديد إن كانت تذمها أو تمدحها، لكن لاتخفي في كل الحالات، أنها تقدّر صنيع الله وقدرته غير المحدودة!

ولو تجاوز الانسان الملاية الشامية على تنوعها، فسوف يجد كماً من التنوع أيضاً داخل كل مجموعة، فالمرأة الفحيصية أو السلطية المسنة تختلف عن الشابة،والمتعلمة تختلف عن التي لم تتعلم، وتختلف المقيمة في عمان منذ فترة طويلة عن تلك التي وصلت حديثاً. بل كان يصادف في أحيان معينة، وفي شارع منكو بالذات أن يصبح الشارع مهرجاناً من الألوان وتعدد الأزياء واللهجات.

حتى الجدة، حين تصل بعباءتها العراقية، وكان الوجه مكشوفاً تقريباً، لايعرف من يراها أين يصنفها، خاصة وأن العباءة العراقية لم تكن مألوفة إلا في نطاق ضيق، وحين تلحّ عليها عيون النسوة، في محاولة "لاكتشافها"، كانت تتضايق،رغم أنها تقدر ماوراء هذه النظرات، كانت تقول، دون أن يسألها أحد،بلهجة جادة، لاتخلو من تحدٍ:

- اي عيني عراقية، من بغداد، من صوب الكرخ من الدهدوانة، عرفتي، لو تريدين فدّ شي بعد؟

فإذا كان رد النظرات أو الكلمات مسالماً وينطوي على حسن النية والرغبة في المعرفة فقط، كانت الجدة تتابع، لكن بلهجة أنيسة ولاتخلو من ود:

ـ كلنا، عيني، فدّ دين، فد جنس، كلنا خلقنا الله!

أما الذي لم يخلقه الله، أو لم يخلقه بهذا الشكل على الأقل، فهو أبو حنيك،إذ حين يلبس الحطة البدوية الحمراء، ويلفها حول وجهه، ليخفي الاصابة التي لحقت بحنكه، وربما ليخفي ملامحه أيضاً، وكانت حين تراه الجدة هكذا،تقول وتريد من الآخرين أن يسمعوا:

ـ هذا أكيد مو خلقة الله، هذا خلقة ابليس.

ولكي لاتأثم ولايساء فهم ماتقول، تتابع:

ـ شوفوا شلون شكول، شلون چهرة، مثل البريعصي، أشقر ولابس غترة!

كانت الجدة تقول هذا بعد أن عادت من بغداد، وعرفت ماجرى هناك، وكانت بذلك تعبر عن موقف وتدلي بشهادة!

أما حين رويت لها قصة ذلك البدوي الذي ظل ينتظر أياماً متوالية عند بيت كلوب لكي يراه، وكان يفترض أنه ينتظر شخصاً غير الذي يشاهده يأتي ويذهب كل يوم، ولما سأل وقيل له أن كلوب ذاك الذي خرج قبل قليل، فقد هز رأسه بسخرية وأسف وقال: "حسبت الباشا باشا، أثاري الباشا زلمة... واجقم". حين رويت القصة للجدة علقت بسخرية:

ـ اي نعم.. القمر مايخفى، لكن اللي الله ماسخه ما يبين راسه من رجليه!

إذا واصل الانسان تتبعه لمعرفة كيف تلبس كل مجموعة، الغني منها والفقير،في الأيام العادية وأثناء المناسبات، الرجال والنساء، فسوف يجد أن كل شيء متحرك،متغير، رغم وجود بعض الثوابت، خاصة لدى المسنين أو المحافظين،ورغم أن تلك الفترة شديدة الصعوبة، لأنها أيام حرب، فإنها أيضاً أيام البحث والسؤال، وأيام تدبير الحياة والرزق.

هل لعبت "البالة" دوراً في تكوين أذواق الناس أو في تلبية حاجاتهم؟

إذا كان الجواب عن السؤال الثاني بالايجاب في قطاعات واسعة، نظراً للصعوبات التي كانت تتزايد يوماً بعد آخر، فإن الحالة السائدة، في تلك الفترة،كانت أقرب إلى الحيرة، وفي مثل تلك الحالة يبرز التحدي، ويسهل

التجريب، ويصبح المجتمع في حالة بحثٍ وتحدٍ، خاصة وأن الصيغة السابقة، أياً كان الانتماء، أو قوة العادات، لم تعد تكفي لتلبية الحاجات الكثيرة المستجدة، كما أن حالة الرفض، وعلى كل مستوى، أصبحت هي الغالبة.

فعزمي، أو غاندي، حسب التسمية السائدة، ابن سعيد المفتي، رغم أن جميع الشباب يطيلون شعورهم، فقد حلق على الصفر، وكان يفاخر بذلك، بل بلغ به الأمر أنه مستعد أن يخوض معركة فيما لو اعترض أحد أو سخر منه.

نبيه ارشيدات يصبح شيوعياً، في الوقت الذي يكون أبوه أحد أعضاء مجلس الوصاية على العرش، حين يغيب الملك عن البلاد، ولايخفي أو يموه انتماءه، بل يحاول أن يجعل الأردن جزءاً من الكتلة الاشتراكية.

عبد الحميد شرف يذهب بعيداً في التحدي، فيصبح مبشراً بأفكار لم تكن مألوفة أو ممكنة في وقت سابق، وغير مستعد للمهادنة أو المصالحة.

سعاد أبو الهدى تريد أن تحب وأن تتزوج بطريقتها الخاصة، غير عابئة بالمقاييس أو القيم السائدة، ومستعدة أيضاً لأن تدفع الثمن.

فمنذ مطلع الأربعينات، أخذ عدد الذين يتخرجون في جامعات دمشق وبيروت والقاهرة، ويعودون إلى عمان، يتزايد ويتضاعف سنة بعد أخرى، وأصبح هؤلاء،بحكم المؤهلات والكفاءة، والموقع الاجتماعي لعائلات بعضهم، يلعبون دوراً متزايد التأثير في المجتمع، من خلال المناصب التي احتلوها، ومن خلال الأفكار الجديدة التي حملوها وأخذوا يبشرون بها.

ترافق هذا مع انتظام أكثر من السابق لوصول المجلات والصحف المصرية، ففي يومي الاثنين والخميس، كان عدد من الصبية يقف في شارع فيصل لانتظار وصول سيارة بيروت حاملة الصحف والمجلات إلى مكتبة يوسف فهمي، وتوزع على الصبية، فما تكاد تصل إلى أيديهم حتى ينطلقوا في كل الاتجاهات وأصواتهم تلعلع: "الاثنين" "المصور". "المصور والأهرام".

كان ليوم وصول الجرائد والمجلات إلى عمان نكهة خاصة، وكان يشتريها بالاضافة إلى المتعلمين والسياسيين، عدد من التجار والوجهاء! ولأن بعض هؤلاء لايعرف القراءة والكتابة، كانت تقرأ لهم، يقرأها أحد الأبناء، أو واحد من المتعلمين، وتظل أخبارها مجالاً للتداول والتفسير المتعدد، وبعض الأحيان المختلف، إلى أن تأتي جرائد أخرى، أو إلى حين التأكد من صحتها بالمقارنة مع اذاعة برلين، ومايقوله يونس بحري!

وفي فترة الحرب بدأت تصل مجلات كبيرة ملونة، وتحوي كماً من المواضيع والمعلومات المتنوعة، بما فيها أخبار الحرب وانتصارات الحلفاء. كانت هذه المجلات متعددة ومتنوعة من حيث المواضيع والألوان ومواعيد الصدور، وبعضها يصدر بأوقات متباعدة نسبياً، وكان تلاميذ العبدلية "يغازلون" هذه المجلات من وراء الزجاج في مكتبة الصفدي، إلى أن يتجمع "القرش والنص" لمغامر منهم فيشتري واحدة.

كانت الجدة تقلب واحدة من هذه المجلات لترى الصور، وبعد أن سألت عن الثمن الذي دفع لقاء شرائها قالت:

ـ يعلم الله أن كل هذه الكتيبة قشمرة، يضحكون بيها على الناس، عبالهم الناس ماتفتهم.

وحين يقال للجدة عن عدد صفحات المجلة، وأنها أرخص من "السفينة" قياساً لعدد صفحاتها، اضافة إلى مافيها من قصص ومعلومات، ترد بسخرية:

ـ الحجارة مومثل الذهب حتى يبيعوها بالمثقال.

وتحس أن سخريتها لم تصل، تتابع وهي تمسك المجلة وتهزها:

ـ لوبيها خير ما دزوها النا، ماباعوها رخيصة، لكن لأن نيتهم مو سليمة، مو خوش نية، قالوا خذوا.

وتلاحظ أن أحداً لم يقتنع بكلامها فتقول كأنها تخاطب نفسها:

ـ هذول الكفار، القواويد، مايسوون شي لله، وباچر تشوفون!

في ظل هذا المناخ، لعل أبرز مظاهر الرفض تتمثل في مجالات رئيسية ثلاثة: السياسة واللباس والتحدي الطبقي، بحثاً عن مواقع جديدة، أو صورة جديدة.

فما كان يقنع المسنين، أو مايعتبرونه قدوة لم يعد كذلك بالنسبة للشباب، حتى في إطار الزي. وماكان يكفي الأمهات أو يرضين به أصبح مرفوضاً من البنات ومستعدات لتحديه وتجاوزه، خاصة وقد دخل عنصران جديدان: التعليم والاحتكاك. اكثر من ذلك، أصبح يعيش تحت السقف الواحد عقلان، ونموذجان من الأفكار والقيم، وأيضاً تعبيراتهما العملية. وإذا كان هذان العقلان أو النموذجان قد حافظا على نمط من التعايش، وربما التفاعل في فترة سابقة، فإن طبيعة المرحلة الجديدة لم تسمح بذلك، خاصة وأن الشروط أخذت بالتغير، وبعض الأحيان أسرع مما يريد المسنون أو يستطيعون التحكم به أو السيطرة عليه.

فالطربوش الذي كان نموذجاً وطموحاً في بداية الأربعينات، تحول إلى سؤال،ثم إلى عبء، ليصبح في نهاية ذلك العقد مرفوضاً إلا بالنسبة للمسنين. كذلك القلبق الشركسي، الذي كان مظهراً للجمال والهوية معاً في مرحلة معينة،أصبح في وقت لاحق مظهراً فلكلورياً. حتى الحرس الأميري، بالملابس الشركسية على الخيول، وكان أحد المظاهر المميزة لصلاة الجمعة والاحتفالات وصلاة العيدين، أخذ يتحول شيئاً فشيئاً إلى جزء من تراث الماضي الذي لايمكن الحفاظ عليه إلا كذكرى.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فالمشوار الذي قطعته البنات، في إطار الصيغة الجديدة للزي وتصفيف الشعر، ومايعتبرنه قيمة جمالية أكثر ملاءمة للمرحلة، أردن أن يوصلن الأمهات والمسنات إليه أيضاً. وليس من دواعي الاستغراب أن تكون بعض مظاهر الزينة القديمة، كالوشم على الوجه واليدين؛ وأنواع من الأصباغ والمساحيق، وأيضاً نماذج من الحلي القديمة، كل هذه مترافقة مع الزي الجديد الذي أصبحت المرأة المسنة تلبسه بناء "لأوامر" البنات وزوجات الأبناء! قد لاتخلو المسألة من طرافة، ومن غرابة بعض الأحيان، لكنها من الظواهر التي يصادفها الانسان في عمان أكثر من أماكن اخرى. حتى الحجاب وأغطية الرأس اللذان كانا جزءاً من شكل المرأة ما لبثا أن تغيرا، أو تم الاستغناء عنهما نهائياً، في كثير من الحالات.

ولأن المجتمع والمرحلة يتميزان بتنوع بالغ، فقد كانت الأجيال والعادات والأعراق المختلفة تعيش متجاورة، وان لم تصل إلى درجة الانصهار والتفاعل في كثير من الحالات، ولعل البداوة أيضاً من جملة مظاهر عمان.

فالبدو الذين كانوا يتمددون عند مطبعة السمان لساعات طويلة، كل يوم،وكانوا يقيلون هناك ايضاً، لم يعد منظرهم مريحاً أو زيهم مألوفاً في مكان يعج بالحركة السريعة وسط السوق. أكثر من ذلك، أصبح هؤلاء البدو "هدفاً" لتلاميذ المدارس، في الذهاب إلى المدرسة أو العودة منها. فبعد أن يتكوموا على الرصيف،لايفعلون شيئاً أكثر من المراقبة وتمسيد اللحى وتفريك الأصابع. أصبح لايمانع الكبار، خاصة أصحاب المحلات، إذا تعرضوا للأذى أو للسخرية، فأخذ هؤلاء البدو بالانسحاب تدريجياً إلى سوق الحلال الصغير عند الحمام أولاً، ثم إلى السوق الكبير في رأس العين، وخلال الانسحاب، وكان اجبارياً تحت ضغط الظروف الجديدة، لم يترددوا في أن يطووا جزءاً من راياتهم، كالعباءات على سبيل

المثال، لأن شد تلك العباءات لم يعد هواية الصغار بل أن بعض الكبار كان يشاركهم فيها!

حتى نوري السمان، صاحب المطبعة، الذي لم يكن يمانع في السابق أن يتمدد البدو على الرصيف العريض أمام المطبعة، اصبح عماله، بأوامر منه، لايطلبون منهم أن يغادروا، كانوا يتركونهم ليتجمعوا، وبعد أن يرتب هؤلاء البؤساء "قعدتهم" تتدفق المياه، كانت تتدفق بكميات وفيرة ومن أكثر من ناحية لتغرقهم،فينهضوا مذعورين. حصل ذلك مرة بعد أخرى إلى أن انسحبوا إلى أمكنة أكثر أمناً!

إن الملابس والأطعمة، وأموراً أخرى مشابهة، تقررها وتحددها طبيعة الحياة التي يعيشها الناس. لذلك فإن الملابس المعقدة، الغالية الثمن، وتلك التي لاتتصف بالصفة العملية، لم تعد تظهر إلا في الأعياد والمناسبات، وحتى في مثل هذه الحالات كانت تبدو غريبة وتدعو إلى الدهشة والتساؤل.

وكذلك الحال بالنسبة للألوان، للرجال والنساء، فقد تغيرت الأذواق كثيراً، وربما يكون تأثير البالة هنا أوضح، فلو تعفف البعض عن شراء ملابس البالة، لسبب أو آخر، إلا انهم أخذوا يرون ألوان الملابس التي يرتديها الرجال هناك، ولذلك لا مانع أن يلبس الرجال مثلها، أو على الأقل يتسامحون تجاه من يلبسها، خلافاً لأوقات سابقة حيث كانت القيود والموانع أشد قسوة.

حين عاد قريب للجدة من الحج جلب معه حطات أقرب إلى اللون الأصفر،والجدة التي فرحت كثيراً بعودته وبهداياه، وبعد أن تأكدت من سماكة تلك الحطات وحسن صنعها، وأنها ذات لون واحد ومقياس واحد، وبالتالي ليس هناك احتمال لخلاف حين توزعها، فقد قالت وهي تسلم كل واحد هديته:

ـ إذا كانت ذيك السدارات ماتهنيتم بيها وراحت حرامات، فهذي الغتر من عند النبي، مباركة، راح تلبسوها، وراح تظل لولد الولد.

وأخذوا الهدايا، لكن لم يلبسوها، [لأن التلاميذ في عمان لم يعودوا ملزمين بأي نوع من اغطية الراس] وحين تساءلت الجدة عن الأمر بعد أيام سمعت صوت آخرهم، وكانوا ذاهبين إلى المدرسة مكشوفي الرؤوس:

ـ مافي لزوم... بيبي!

٧

إذا كانت العادة، وقت الرخاء ،أن يشتري الأهل لأولادهم الألعاب وأدوات الرياضة والتسلية، فإن زمن الحرب جعل أولاد عمان يعتمدون على أنفسهم لاختراع الألعاب أو لصناعتها،بما يتناسب مع كل فترة،مع كل عمر،وأيضاً مع كل مستوى.

فحين يتعذر شراء الكرة،أياً كان نوعها،لابد من اختراع كرة. وحين يتعذر وجود ملعب نظامي،لابد أن يهيأ أو يُكتشف ملعب مناسب. لذلك،وخلال فترة قصيرة،تكون كرة الخرق،المتقنة الصنع،تتطاير بدل كرة المطاط،ويكون الشارع،أو أي أرض خلاء،الملعب الذي يملؤه الأطفال بالأصوات والضجة،وبالخصومات أيضاً!

أما إذا كان العمر أو المستوى يحول،أحدهما أو كلاهما،دون ركوب دراجة أو حصان،فعندئذٍ تكون القصبة دراجة أو حصاناً،ويمكن أن تكون الاثنين معاً،وهذا ليس عن وهم،وإنما قناعة أكيدة،لأن الطفل حين صنعها بمقاييس معينة،وبشكل معين،"يعرف" كيف يجعلها حصاناً أو دراجة،ومتى يستعملها بهذه الطريقة،ومتى يستعملها بالطريقة الأخرى!

ومثلما يعرف الفلاحون الفصول والمواسم،وما يلائمها من زرع،فقد برع أولاد عمان في معرفة مايناسب كل فترة.

فبعد أن يكبر الطفل قليلاً،ويعثر على سلك مناسب،يقضي وقتاً،بعض الأحيان طويلاً،من أجل انجاز أول اختراع له: "السلك والكركر".

فما أن يطمئن لاستقامة السلك،بعد ان عالجه لفترة وبصعوبة،حتى يُدخل فيه كركراً ويثني جانبه،فإذا تاكد أن الحركة أصبحت سهلة،لينة،يدخل،في الجانب الآخر من السلك،كركراً ثانياً،وربما ثالثاً،وحين يدور الاثنان معاً،كل باتجاه،يبدأ

رحلته ذهاباً وإياباً، في البيت أول الأمر،ثم في أمكنة قريبة،وهو يستعرض أمام الآخرين اختراعه الأول!

أما "الدحريجة" فعادة تكون الاختراع الثاني. فحين يحصل الطفل على اطار مناسب،والنوع الأفضل هو الجزء الداخلي لاطار سيارة،بعد أن يكون الاسكافي قد جرده من كل ماحوله من الكاوتشوك الذي يصلح لصناعة الأحذية،يشذب الطفل هذا الاطار،ثم يصنع من سلك مقوداً على شكل ذراع له نصف حلقة،ويبدأ يدحرج الاطار بالسلك،ولابد أن يستعمل المنبه في المنعطفات وعند تقاطع الطرق،وأيضاً في حال وجود تجمعات أمامه،تجنباً للاصطدام أو وقوع الضحايا! وكانت تجري في هذا النوع من اللعب مسابقات تتحدد نتائجها بالسرعة والقدرة على التحكم،ثم في الوقوف!

ومع انقضاء كل شهر يكبر الأطفال وتكبر طموحاتهم لنوع الألعاب التي يجب أن يمارسوها.

وإذا كانت الأعمار تحدد أنواع الألعاب فإن المواسم تفرض مايناسبها.

فجأة،وعلى غير توقع،وبدون ايعاز من أحد،تمتلئ عمان بلعبة تطغى على كل ماعداها من الألعاب. صحيح أن الألعاب الأخرى تبقى،لكن في أمكنة خلفية،بعيدة. حين يبدأ موسم البلابل،مثلاً،لابد أن يطغى ويعم خلال فترة قصيرة. قد يبدأ من شارع خرفان،لكن بسرعة يجد صدى في الشابسوغ والمهاجرين وطريق وادي السير،ثم الأماكن الأخرى. وإذا بدأ هذا الموسم استعراضياً أول الأمر،بحيث يُكتفى ببراعة الدوران،فما يلبث في الاسبوع التالي أن يحرز تقدماً،ثم تفوقاً،ليصبح في الاسبوع الثالث تحدياً،وأخيراً لابد أن تجري المباريات الحاسمة،حيث يعتبر الدوران والسرعة شيئين مألوفين لايتحدد بنتيجتهما التفوق،إذ يجب أن يكون البلبل الأقوى،الأكثر كفاءة،هو ذاك الذي يستطيع أن يحطم البلابل الأخرى،او على الأقل يخرجها من الدائرة!

نوعية الخشب الذي يصنع منه البلبل،ونوعية المحور الحديدي وسطه،تعطي مؤشرات أولية عن النتائج المحتملة،لأن طريقة لفّ الخيط،ثم طريقة توجيه الضربة،أو الميل الذي يتم اختياره،اضافة إلى براعة اللاعب،وبعض الأحيان مكره،تحدد النتائج. فكم من مرة أُحسن فيها اختيار النوعية او الحجم،وكم من مرة ظهرت البراعة أثناء الاستعراض،ثم مابُذل من جهد لتلوين البلابل،وتشميع الخيوط،ولكن تنتهي الأمور ببلبل مجهول،غير ملون،وربما أصغر من بلابل أخرى،لأن يتفوق،حين يكسر باقي البلابل،او حين يخرجها من الدائرة.

كانت تنقضي ساعات بعد الظهر،أثناء موسم البلابل،والنزال مستمراً،لايتوقف ولايهدأ،إلا حين تخيم العتمة. وكان النزال،أغلب الأحيان،ينتهي بأن تتجمع البلابل المهزومة عند القليلين،انتظاراً لمعارك أخرى مع منافسين من حارات مجاورة أو لموسم جديد!

وبقدر الهرج الذي يخيم على بعض الألعاب،وكان هذا الهرج يتناسب مع عدد المشاركين،فإن الهدوء،وأحياناً الصمت،يخيم على "الدائرة" التي تدور فيها البلابل الأخيرة.

وبطريقة غامضة،لاتخلو من سر،وربما يفسر جزءاً منه كثرة عدد المهزومين،يتراجع موسم البلابل فجأة ليبدأ موسم آخر!

وإذا كانت براعة عدد من لاعبي البلابل تظهر في بعض الأحياء أو المواسم،فإن هذه البراعة لاتبقى في الذاكرة،ولاتستمر طويلاً،خلافاً لأنواع أخرى من الألعاب.

فحين يبدأ موسم "الطيارات"،وغالباً مايكون في بداية فصل الصيف،حيث تكون الريح مواتية،فإن الذاكرة تتيقظ وتستعيد أسماء طيارات وطياري السنة السابقة.

إن موسم الطيارات الورقية في عمان حافل إلى أقصى درجة،كما أنه يستمر وقتاً أطول من مواسم الألعاب الأخرى،إذ تظهر فيه البراعة وقوة الاحتمال وحجم الاستعداد،اضافة إلى أن التفوق في هذا المجال علني وشديد الظهور،فما أن تنتهي لعبة "القبع" الصغيرة،وهي عبارة عن المشروع الأولي للطيارة،ويمارسها الأطفال،وتشبه،إلى حد بعيد،من حيث توقيت ظهورها،طائر السنونو الذي يبشر بالربيع،حتى تظهر الطيارات.

خلال فترة قصيرة تمتلئ عمان بالطيارات الورقية، تبدأ كثيرة،صغيرة،يطيرها،في الغالب، طيارون هواة،يطيرونها من على أسطح المنازل،أو في بعض المساحات الخاوية. كانت هذه الطيارات تقابل بحماسة لاتخلو من مبالغة،خاصة من الأهل والجوار،ومع الحماسة،ولقلة الخبرة بالدرجة الأولى،يتدخل الكثيرون في الارشاد والتوجيه وابداء الملاحظات،ومن شأن ذلك أن يوقع الخسائر،إذ تبدأ هذه الطيارات بالتساقط بدل أن ترتفع وتحلق. كانت تصطدم بأسطحة المنازل المجاورة، بالأشجار، بالأسلاك، كان ذلك يحصل اثناء انطلاقها،

حيث لايكون "القائد" والمساعدون على نفس السوية من الحركة والسرعة،أو حين يُمد لها الحبل أكثر من اللازم؛ ويحصل أيضاً أثناء انزالها،وفي لحظات الهبوط الأخيرة. لقد كانت تقع الخسائر،معظم الأحيان،خلال فترتي الاقلاع والهبوط،إذ ماتكاد الطيارة تميل بزاوية حادة،وبدل أن يُعطى لها الخيط لترتفع قليلاً من أجل أن تستعيد توازنها،يُرخى الخيط فتجنح ثم تهوي،ولايبقى منها سوى أوراق ممزقة على سلك أو شجرة.

هذا النوع من الطيارات،التي يصنعها ويطيّرها الهواة وقليلو الخبرة،لاتنظر إليها عمان باهتمام،لأنها على موعد مع نوع آخر من الطيارات: طيارات الاستعراض الكبير،وطيارات التحدي.

فبعد أن تسقط أعداد كبيرة من طيارات الهواة، وينسحب الطارئون، تبدأ بالتحليق، ومن أمكنة قريبة، طيارات تختلف عن التي سبقتها: أكبر حجماً، وتصل إلى ارتفاعات عالية. وهاتان الصفتان ليستا أبرز مايميزها، فالبراعة تتبدى أكثر من ذلك، بالاضافة إلى الارتفاع، ثم تلك الخيلاء والطيارة تتمطى في الهواء، تتبدى البراعة في طريقة انزالها دون أن يلحق بها أي أذى.

حين تظهر هذه الطيارات في الجو يقول العارفون: جاء أصحاب الكار وأصدقاء الريح، وهم الشيوخ!

يظل الأمر هكذا لبضعة أيام،وكأنها فترة اختبار،مع زيادة في الارتفاع التدريجي والاستعراض،وأيضاً اسقاط بعض الطيارات المنافسة. لكن مع كل يوم يمر تتقدم الطيارات نحو أماكن أعلى وفضاءات أوسع، إذ تنتقل من الملعب الصغير قرب اللاسلكي إلى نهاية مدرسة المطران،وقد تصل إلى الحاووز الكبير. وخلال هذا التقدم لابد من حذف عدد متزايد من الطيارات المعترضة أو المعيقة، وهكذا تسقط أو تفلت طيارات كثيرة. كان ذلك يتم دون اشتباك،بل من خلال المناورة، ومن خلال بعض الاشارات التي يسهل قراءتها، وبالتالي معرفة دلالاتها. وبذلك يخلو الجو تدريجياً، حيث لايبقى إلا بضع طيارات.

كانت طيارة العبويني رقيقة، لكن قوية، ومجال تحليقها السفح الجنوبي الغربي من جبل عمان، بدءاً من مدرسة المطران؛ وغير بعيد عنها طائرة الأخوين الحنيطي،راشد ومحمد، أو حنو كما يسميه بعض الأصدقاء،و كانت تحت الحاووز؛ أما على السفح المقابل،مع ميل نحو الشرق، فكانت طائرة علي منيف؛ وكانت هناك،

في الجهة الشمالية الغربية من الجبل، طائرة قعوار ـ قاقيش؛ تقابلها على جبل اللويبدة طائرة الحديدي.

ومثلما تحصل تصفيات كثيرة في جبل عمان،كانت تقع مثلها في الشابسوغ،ثم جبل القلعة،وكذلك في راس العين،إلى جبل النظيف،حيث لاتبقى في النظيف إلا طائرة واحدة،طائرة ابن كلمات،التي تحتل الفضاء الواسع في الجنوب من عمان.

وإذا كان الطابع الغالب على فترة الطيران الصراع،وبعض الأحيان العداوة،داخل كل حي،وبين الأحياء المتقاربة،وكان هذا يستمر طوال الفترة الأولى،وإلى أن يعترف بتفوق عدد محدود من الطيارات،فإن الفترة الأخيرة من هذا الموسم يغلب عليها الاستعراض لانتزاع اعتراف الآخرين في مواجهة طيارات اللويبدة والقلعة وجبل النظيف.

كان يتم ،في اغلب الاحيان ،حشد امكانيات كبيرة من اجل تصميم طائرة من طراز متقدم لتدخل الاستعراض ،اذ كانت تلتقي كفاءات وجهود عدد من المتنافسين السابقين ،وكان يجري توظيف المكتسبات التي تم احرازها سابقاً لهذا الغرض . فخيوط المصيص التي امكن وضع اليد عليها ،كمخلفات لطيارات ساقطة ،وما تبقى من اوراق ملونة ،اضافة الى شمع العسل والشمع العادي ،كلها توظف لخدمة الطائرة الجديدة التي ستدخل الاستعراض في مواجهة طيارات اللويبدة والقلعة وجبل النظيف .

وفي يومي الخميس والجمعة الأخيرين من موسم الطيران،تبدأ الطيارات استعراضها. كان القادة يتفننون في مد الخيوط،في جرها،وايضاً بالقيام بعدد من الألعاب الجديدة المثيرة،للدلالة على المهارة والفن،كان ذلك يجري وسط جمهور واسع،شديد الحماس،يعرف كيف يتابع ويقارن،دون تقديم سوى ملاحظات قليلة،وبصوت أقرب إلى الهمس،لأن هناك ربانين اثنين ماهرين يقودان الطائرة،واحد يمسك بالخيط،والآخر،على بعد بضعة أمتار،يمسك بكبكوبة الخيوط الملفوفة باتقان بالغ على قضيب قوي. وإذا كانت مهمة الأول توجيه الطائرة،فإن الثاني يعطي الخيط،يلفه،بمقدار ماتتطلبه الضرورة. يفعل ذلك دون أمر،دون ايعان،اعتماداً على حركة الآخر،وعلى مراقبة الطيارات المنافسة. كان ذلك يستمر حتى الغروب.

اليوم الأخير يوم حافل،فبعد أن تبلغ البراعة ذروتها في ارتفاع الطائرة،وفي

تهاديها ورقصها في الهواء، وسط المراقبة التي لاتهدأ لحظة واحدة،وبعد أن يفترض كل جبل أن طائرته كانت الأعلى، وكانت الأهم، في هذا الاستعراض، وقبل أن تغيب الشمس، كان يطلق سراح هذه الطيارات، كلها أو معظمها.

كانت لحظة اطلاق الطائرة حافلة، خاصة، تختلف عن اية لحظة غيرها. فما أن يتعرى القضيب من الخيوط، وينكشف عن عقدة في وسطه،مربوطة باتقان وقوة، ويراها الجميع،كدلالة أخيرة أن لم تبق خيوط اضافية، حتى يتقدم الكثيرون للامساك بالقضيب،للمشاركة في توجيه الطائرة،وكأنهم يمنحونها أسرارهم الخاصة، وبعد أن ينظر الجميع إلى وجوه بعض، إلى الطائرة،وفي لحظة مناسبة يصرخ أحد القائدين،وبعض الأحيان،الاثنان معاً: واحد.. اثنين.. ثلاثة.. ويفلتان القضيب.

مايكاد القضيب يفلت من الأيدي حتى يميل قليلاً وهو يرتفع،وهو يصعد. يكون أول الأمر رخواً، متدلياً، لكن ما إن يرتفع أكثر حتى يعتدل، يأخذ شكل الخيط، وقد أحس بالحرية والقوة بعد طول اعتقال. وهو يرتفع هكذا ترافقه الصرخات والتصفيق تشجيعاً، تأييداً، تحية وداع.

لقد بدأت الطيارة مشوارها الخاص، إذ بعد أن كانت تدوم وتحوم في مكان واحد،مع ميل صغير في هذا الاتجاه أو ذاك،لاتلبث أن تحس بالمدى، فتبدأ رحلتها الجديدة، يتم ذلك بتوافق شديد الانسجام مع الريح.

ولحظة بعد أخرى ترتفع الطيارة، تغيم، إلى أن تبدأ بالتلاشي ثم بالغياب. تغيب تماماً.

مع غيابها،وأثناء عودة الأولاد إلى بيوتهم يكون الرهان الوحيد بينهم: هل واصلت الطيارة تحليقها إلى السبع بيار أم تجاوزتها إلى سحاب ... أو ربما تابعت إلى مأدبا أو أكثر !؟

قبل أن تبدأ الطيارات الورقية تحليقها في عمان،أو بعد أن تواصل طيرانها في رحلاتها المجهولة إلى الأماكن البعيدة،كانت هناك العاب قد بدأت وأخرى تنتظر دورها.

فالگلول الكثيرة المخزونة من السنين السابقة، وتلك التي ظهرت فجأة، ولم ير الأطفال مثلها من قبل، تفرض نفسها.

كانت الگلول، بتنوعها وكثرتها،وأيضاً بالأصوات التي تحدثها،وهي

تخشخش في الجيوب أول الأمر،ثم في الأكياس، لاتترك طفلاً من شرها،رغم أن الأهل، في أحيان معينة،خاصة حين يواصل الأطفال اللعب داخل البيوت، يلجأون إلى رميها أو إلى سحبها من التداول، إلا أن عودتها من الأمور السهلة، خاصة وأن لدى اللاعبين بها هامشاً غير محدود لاخفائها أولاً، أو لاختراع ألعاب جديدة بعد ذلك.

إذا انتهى "المور" ،وهو الدائرة التي تُحدّد بخط على الأرض،ويضع فيها كل لاعب كلاً،يبدأ كل واحد من المتنافسين الاقتراب من الدائرة ثم اخراج الكلول منها.

إذا انتهى "المور" تبدأ لعبة الجورة،وهي الحفرة التي يحاول اللاعبون الوصول إليها،الواحد قبل الآخر،تمهيداً لاخراج مافيها من "خميرة"،حيث كل واحد يضع فيها جزءاً من هذه الخميرة... عملية صعبة،لكنها ممكنة،والفوز بها ليس سهلاً!

ثم لعبة الخط،وهي أن توضع كلول،على مسافات متساوية،بقدر عدد اللاعبين،وكل واحد يحاول أن "يصيب" الهدف قبل الآخرين،مع فرصة الوصول إلى الهدف الآخر،وهكذا.

إذا بدا الضجر من لعبة معينة،أو إذا لحقت خسائر للاعب أو لمجموعة من هذه اللعبة،يمكن الانتقال إلى أخرى ببساطة،خاصة وأن الهدف الحصول الى أكبر عدد من الكلول.

في وقت معين،وحين لاتكفي البراعة أو اغراءات لعبة معينة،يبدأ "التبديل" وذلك بأن يُعتبر جل أفضل أو أهم من غيره،ويتم استبداله بعدد من الكلول،تماماً كما تجري عملية تبديل النقود. فإذا لم تكف تبدأ المراهنة والتحزير،وهذه تعتمد على المغامرة أكثر من المهارة أو البراعة.

بإيجاز.. لعبة الكلول تحتمل خيارات كثيرة،وغالباً مايتم اختراع ألعاب جديدة،فقط لكي يسهل الاستيلاء على الكلول من أيدي الضعفاء وقليلي الخبرة والأغنياء،وأيضاً من صغيري السن،الذين يحاولون الدخول إلى هذا المجال دون مؤهلات كافية!

كان موسم الكلول طويلاً في عمان،لكنه يظل موسماً مغلقاً بعض الشيء. فالذين لايعرفون بعضهم لايغامرون في أن يلعبوا معاً. والذين يخسرون في البداية،وبشكل متعمد،لكي يغروا الآخرين،لايكونون موضع ثقة. وأولئك الذين

يطالبون بضمانات مبكرة،كالامتناع عن "التبطيل"،أو ضرورة وضع الكلول عند طرف ثالث،وهذا الطرف هو الذي يتصرف في حال الربح والخسارة،ثم الذين يطالبون بمحكمين معترف بهم،وبنزاهتهم وحيادهم،كل هذه الصيغ،بدل أن تشجع على اللعب والمغامرة،تجعل اللعب أكثر صعوبة وأيضاً أدعى للشك ثم للخلافات!

كانت الجدة تقول إذا دخلت الكلول إلى البيت:

- جت دعابيل ابليس...

تمسك أحد الكلول،أو مجموعة منها،تنظر إليها بامعان وهي تقلبها،وتقول:

- إذا ظلت هذي الدعابيل تسرح وتمرح بهالبيت راح تدوخنا وتكسر رجلينا.

تنظر إلى العيون بحثاً عن مؤيد،وحين لاتجد،تتابع:

- اقول لروحي وين راحت الفلوس،وشلون صارت القراية لعب بخرز ابليس!

كانت الجدة تكره الكلول أكثر من اية لعبة أخرى،إذ بعد أن تزحلقت بواحد منها،فقد فرك تحت قدمها،عند الفجر،وكانت قائمة للصلاة في العتمة،وتأذت،أصبحت لاتطيق وجودها في البيت،اضافة إلى العجب التي تولده الوانها الكثيرة المتداخلة،كانت الجدة عاجزة عن فهم أو معرفة كيف تم تلوينها. كانت تتأملها بعض المرات،تهز رأسها بدهشة وتقول:

- إذا ابليس طلّع آدم من الجنة يقدر يطلع من اللون ألف ...

تفكر قليلاً ثم تضيف:

- بدل ماتصير حبات بسبحة تسبح الله صارت تخرز مثل عيون البزازين.

ولكي تنتهي هذه التقاسيم التي لاتتعب الجدة من تردادها،كان أحدهم يخطف الكل من يدها،وهو يصرخ:

- بيبي ... بيبي شوفي العصفور!

ومايكاد الكل يصل إلى يده،أو إلى يد أخرى،حتى ينتهي الموضوع!

مع الكلول،وبشكل موازٍ،كانت لعبة الأزرار،وهي تشبه لعبة الكلول،لكن أكثر تواضعاً،وعادة يلعبها الصغار،وأولئك الذين خسروا وفقدوا ما لديهم من الكلول.

إذا غابت هذه اللعبة،وليس للجدة أي دور في ذلك،تظهر ألعاب أخرى.

كانت الجدة تحدث نفسها بعض الأحيان والآخرون يسمعون:

ـ شياطين،اي نعم شياطين،وأكبرهم ابليسهم اللي علمهم السحر...

وبعد قليل،وتبدو لهجتها اكثر حزناً:

ـ مانخلص من قضية إلا وتجي أنجس منها.

كان الأطفال،في أحيان كثيرة،وكطريقة للموافقة على وقف ألعاب معينة،يلجأون إلى استبدالها بأخرى. فعكازة الشيطان تحل مكان الكلول. وهذه العكازة عبارة عن أرجل خشبية طويلة يمكن استعمالها في مساحة واسعة نسبياً،وشرطها الأساسي حفظ التوازن. أما إذا كانت المساحة محدودة،أو اعترضها عائق،فلابد أن يختل التوازن،ويؤدي ذلك إلى الوقوع،ومايخلف من نتائج على اللاعب أو غيره.

فبعد أن تطوى لعبة الكلول،وتغيب خرزات ابليس،حسب تسمية الجدة،تظهر العكازات الخشبية،والتي تم صنعها بمشقة ودون اتقان،وحين يبدأ تجريبها داخل البيوت،تصرخ الجدة:

ـ راحت خرزات ابليس قلنا خلصنا،هسه جت قباقيب جهنم؟

تتأمل الحركات البهلوانية،تهز رأسها،وتتابع:

ـ شلون طرقاعة مال الله هذي،شلون بلوى جديدة ابتلينا بيها؟

ولأن لا أحد يجيب،يناقش،تضرب يداً بيد،تبتسم بسخرية وهي تضيف:

ـ عبالك مقرمين،كل واحد داير بعوچيه ولاعوچية موسى.

وتنتظر أول فرصة مناسبة،وغالباً مايكون البرد قد أتى،حتى تكسر الجدة هذه العكاكيز وتجعلها وقوداً،ولايحس الأطفال بغيابها،لأن لعبة أخرى قد بدأت وانشغلوا بها!

ولأن المهارة لاتنفصل عن القوة بالنسبة للأطفال والصبية،ومن الضروري اكتساب خبرات متعددة،وباعتبار أن عمان مدينة الحجارة والأمكنة الخاوية،فلابد أن يكون جزءاً مما يتعلمه الأطفال في وقت مبكر: إجادة تصويب الحجارة.

من الألعاب التي لاتغيب،ويمارسها الكثيرون،حتى الكبار،لعبة "القرد وشارة"،إذ تنصب ثلاثة احجار على استقامة واحدة،وتكون هذه الأحجار رقيقة

نسبياً،وتقف على حرفها،بحيث إذا وُجهت إلى الواحد منها ضربة صائبة وقوية توقعه. بعد أن تنصب الشارات،يوضع في المقدمة،وعلى مسافة منها،حجر صغير يطلق عليه القرد،حين يبدأ اللعب،يشترط أولاً،اسقاط القرد قبل أن توجه الضربات إلى الشارات.

على ضوء المهارة تتحدد المسافات،ويتحدد حجم الحجارة المنصوبة. قد يجري،مرة بعد أخرى،توسيع المسافة أو تضييقها،تغيير القرد أو الشارات إلى الأصغر أو الأكبر،تبعاً للنتائج والمستوى. ولأن هذه اللعبة تستقطب جمهوراً واسعاً من المتفرجين،لذلك يلجأ اللاعبون إلى اظهار براعاتهم وهم ينتقون الحجارة التي تقذف،وهم يصوبون،وقد يلجأ بعضهم إلى قياس المسافة من جديد،إلى دعك اليد بالتراب،إلى التفل باليد،وكثيراً ماتقابل الضربات بالاستحسان أو الاستهجان من المتفرجين،وتتوالى التعليقات المشجعة أو الساخرة لهذا اللاعب أو لذاك،لهذه الضربة أو لتلك،الأمر الذي يجعل الجو مشحوناً باستمرار،وقد يؤدي إلى خصومات،وغالباً مايبدأ بها الخاسرون أو المرشحون للخسارة،لكن تنتهي الأمور دائماً بتحديات جديدة!

إذا كانت لهذه اللعبة حجارتها،فإن الحجارة التي تستعمل في المقلاع مختلفة،من حيث الحجم أو المواصفات،إذ يجب أن تكون صغيرة نسبياً،وأن تكون مصقولة بمقدار.

استعمال المقلاع يتطلب مهارة عالية،ولأن ضرباته مؤذية،وربما خطرة،لقوتها،فإن الكبار يتشددون في منعه وتحريمه،خاصة بين البيوت والأحياء. أما الذين يصرون على استعماله،وعلى أن يبرعوا فيه،فعليهم أن يذهبوا بعيداً عن الأماكن المأهولة،وأن يصادقوا الرعيان ليكتسبوا منهم الخبرة. كانت مهارة بعض الرعاة حول عمان كبيرة،ويضرب بها المثل،إذ يستطيعون اعادة التيس الشارد بضربة واحدة،لاباصابته مباشرة،ولكن بامرار الحجر قريباً منه،كان الحجر وهو يأز ويصفر يخيف التيس.. ويعيده!

بمقدار مايتشدد الكبار في منع المقلاع،فإنهم يتسامحون،دون اعلان صريح تجاه "المغيطة"،خاصة في تلك الفترة الصعبة.

كانت "المغيطة" في مواسم معينة،لاتفارق جيوب الفتيان أو اعبابهم. كانوا يختارون لها "الشعبة" بعناية فائقة،لأن الضلعين إذا كانا بزاوية واحدة يمكن التصويب بها بشكل افضل،وإذا لم يكن المطاط شديداً ولا رخواً،والجلدة التي

يوضع فيها الحجر ليست لينة ولاصلبة،وأخيراً إذا كان الصياد بارعاً،فعندئذٍ لابد أن تكون حصيلة الصيد وفيرة.

عند حوام جواد بك،عند بستان القبيسي أو بستان الغريب،بالقرب من الحاووز الكبير،أو في بستان أبو قورة أو بستان أبو شام،كان الصياد الماهر يرجع بعدد كبير من عصافير التين والصفري والدوري.

وإذا كانت حصيلة الكثيرين من الصيد مرضية،ويمكن لأي منهم أن يتباهى،فلا أحد يستطيع أن يبلغ مستوى طلال حكمت،فتحت شجرة التوت الكبيرة التي تمد أغصانها لتغطي مدخل البيت كله،كان طلال يلبد بهدوء،وبكل ضربة يسقط عصفوراً جديداً. كان يفعل ذلك دون ضجة،دون مباهاة،وكان أغلب الأحيان لايغادر مكانه.

كان أولاد عمان،وهم يتصيدون العصافير ذلك الوقت،قساة أكثر مما ينبغي،كانوا يتصيدون العصافير الصغيرة والعصافير الكبيرة،التي تؤكل والتي لاتؤكل،في مواسم الصيد وفي غير مواسمه. وكانوا لايرون من أية شجرة سوى العصفور الذي يتنقل بين أغصانها أو "الشعبة" المناسبة لمغيطة جديدة!

قال الأستاذ داود لتلاميذ صفه في العبدلية،ذات يوم،وهو يسحب المغيطة من جيب تلميذ:

ـ الفرق بين الحية وهذا الحنش...

وأشار إلى التلميذ الذي سحب المغيطة من جيبه،وقد رآه مرة يضرب السنونو،وكان تلميذاً كسولاً:

ـ ... إن الحية تأكل العصفور لكي تعيش،لكي تملأ بطنها،أما هذا فيقتل ليتسلى.

ولأن كلماته اثرت على التلاميذ فقد تابع بثقة:

ـ والآن،من معه مغيطة ليضعها على الطاولة...

وبعد قليل،ولكي يشجع من كان متردداً:

ـ من يضع المغيطة بنفسه لا اعاقبه،أما إذا فتشت ولقيت ،فيا ويل من أجدها معه!

خرجت من الجيوب،من امكنة خفية،ثلاث مغيطات،ووضعت على الطاولة. قال الأستاذ داود،وهو ينظر إلى الوجوه:

ـ كلامي واضح: من معه مغيطة يحطها على الطاولة.

ولأن أحداً لم يتقدم نحو الطاولة،ولم تخرج أية مغيطة جديدة،وربما لأنه لاحظ حركة لم تعجبه،وبعد أن انتظر وقتاً اعتبره كافياً،قال:

ـ عماوي تعال

لما خرج أحمد العماوي من بين التلاميذ ووقف أمام الأستاذ داود،سأله:

ـ معك مغيطة ياعماوي؟

ـ أبداً ... أستاذ.

ـ متأكد؟

– نعم.. متأكد..استاذ

وحين فتشه الأستاذ داود وجد المغيطة وقد وضعها العماوي تحت جوربه،هزها في الهواء أمام عينيه وأمام التلاميذ وسأله:

ـ وتكذب .. ياعماوي؟

وقبل أن يجيب التلميذ كانت صفعة قوية قد وصلت إلى خده،فأدارته،دار دورة كاملة،كاد يقع،لكن تماسك في اللحظة الأخيرة. تابع الأستاذ داود:

ـ المدير راح يعاقبك على المغيطة اما انا فراح اعاقبك على الكذب...

وقبل أن ينتهي صفعه صفعة ثانية،كانت بقوة الأولى أو أشد،فدار العماوي،وقبل أن تكتمل الدورة وقع. قال له الأستاذ داود،وكان لايزال على الأرض:

ـ الكذب أب لكل المعاصي،ومن يكذب يفعل كل شيء!

بعد ذلك أصبح الذين استحكمت بهم عادة الصيد،ولايستطيعون التخلي عن المغيطة،يضطرون إلى دفنها في كومة تراب،إلى وضعها في عرق سلسلة أو وراء حجر،كانوا يفعلون ذلك قبل أن يدخلوا إلى المدرسة. ولأن هناك من يراقب،من يعرف الأمكنة التي تخبأ فيها،فقد كانت تجري عمليات استيلاء مبكرة،ولأن مثل هذه "السرقات" تختلف عن سرقة قلم أو مسطرة،كانت لاتصل إلى الادارة،وتجري تسويتها بين الذي سُرق ومن يفترضهم غرماءه بطريقة مباشرة،وكثيراً ما ادت إلى نزاع وخصومات،وقد تتطور الى شيء أوسع في بعض الأحيان!

٨

بالاضافة إلى العصافير وبعض الطيور،كانت هناك أنواع من الطرائد تستهوي الأولاد،خاصة الكسالى،والذين يريدون الهرب من المدرسة: صيد الحرادين.

فنتيجة قناعة راسخة عند هؤلاء،وكانوا يروجون لها: "إن دم الحردون إذا وضع على اليدين والقدمين يجعل عصي الأستاذ عطور مثل شربة المي: لاتؤثر ولايحس بها"،ولذلك لم يكونوا يترددون في ملاحقة الحرادين وصيدها. أكثر من ذلك،وللدعابة،كان بعضهم يفلت حردوناً جلبه معه داخل الصف،الأمر الذي يخلق هرجاً،لكن باعتبار أن العبدلية تحيطها أراضٍ خلاء من أكثر من جانب،وفي مثل تلك الأراضي تتوجد الحرادين بكثرة،كان الجميع،بمن فيهم الأستاذ،يعتبرون أن هذا "الزائر" دخل من الشباك أو هبط من السقف،خاصة وأن الحردون يبحث بسرعة عن مخرج لكي يفلت،وهكذا تنتهي هذه الدعابة دون نتائج!

حين تُلاحق العصافير بهذه القسوة،وتصبح الحرادين هدفاً،يتملكها الحذر فتطفش إلى أمكنة بعيدة أو عصية،وفي مثل هذه الحالات تُقدّم فتوى: لقد حللنا لكم صيد البر والبحر،وهكذا يتحول عدد من الأولاد إلى السيل.

فعند حوام جواد بك،في المنعطف الذي يشكله المجرى هناك،تصبح المياه عميقة،وأوسع من الأماكن الأخرى،وكذلك الحال عند جسر العسبلية. في هذين الحوامين،واللذين كانا من أوائل المسابح في عمان،تكثر الأسماك،ولذلك،وحين تخلو من الرواد،لبرودة الطقس،أو لتأخر الوقت،أو كونه مبكراً،كان بعض الصيادين يفردون شباكهم،أو يدلون بالسنانير،لعلهم يظفرون بكم فرخ من السمك. والأولاد الذين يرقبون الصيادين الكبار،وحالما ينتهي هؤلاء،يبدأون بتمشيط السيل. كانوا يفعلون ذلك في أمكنة عديدة،وكانوا يستعملون بدل الشباك أكياس الخيش،وبدل السنانير عصياً. وغالباً ماتكون الحصيلة قليلة أو لاشيء،لكن الأولاد لايكفون.

ومثلما كانوا يطاردون العصافير والحرادين والسمك،وكانوا يضجرون بسرعة، فلابد من البحث عن وسائل للتسلية جديدة.

كانت الدبابير، رغم خطورتها، هدفاً. فما أن يُكتشف عش لها في شق جدار أو في تجويف من الأرض،حتى يتجند عدد من الأولاد للتعامل معها. كانوا يصنعون من الخشب والتنك مضارب،ويبدأون. إذ يتقدم أحدهم "ليفيع" الدبابير،ويأخذ الآخرون مواقع مناسبة لكي يتلقوها بالمضارب.

تبدأ المعركة، أغلب الأحيان، ساخرة، ولاتخلو من الدعابة والخفة، إذ تتساقط الدبابير في طريقها من العش أو إليه، لكن ماإن تستثار وتحس بالخطر حتى تتهيج، فتندفع بأعداد كبيرة وتتجه إلى أي هدف حي أو متحرك،وكثيراً ماتسببت بلدغ الكثيرين، خاصة ممن ليست لهم علاقة،من الأطفال والمارة،وبعض الأحيان باعة الخضار ودوابهم! أما الذين فيعوا الدبابير، الذين يحملون المضارب،وحالما يكتشفون الأخطار التي تسببوا بها فإنهم يتوارون عن الأنظار!

قالت الجدة،وهي ترى الحفيد،وقد تورم وجهه من لدغ الدبابير:

– نزول عليّ،لو الموت أخذني وماشفت هالشوفة...

تتفقده،تسأله إن كان يتألم،تنظر حواليها باضطراب،تصرخ:

– مالحقنا نترحم على السوالف اللي صارت،حتى جتنا هالبلوى،حتى جتنا هالطرقاعة...

وبعد قليل،وكأنها تفكر بما يجب عمله:

– انبش قبره اللي يقول الصبر طيب،اللي يقول مايخالف.

تنهض بسرعة وهي تشتم:

– أريد اشوف هالمقموع ابن المقموعة اللي سوى بيك هالسواية.

تذهب الجدة لتسوية الأمر مع الذين تسببوا بهذا الأذى،في الوقت الذي يبدأ علاج الحفيد بالثوم وأدوية أخرى.

قالت الجدة في الليل:

– هذول ، جهال عمان، ماينحملون، يؤذون أرواحهم ويؤذون غيرهم...

وبعد قليل،بصوت مختلف:

- واولها وتاليها الحق علينا .اللي خلينا جهالنا بالداربين!

وتحكم الرقابة لكي لايتقدم أحد نحو عش الدبابير،ويتولى الكبار،في هذه الحالة،معالجة العش،وأغلب الأحيان بحرقه ليلاً.

ويجد الأولاد شيئاً جديداً يفعلونه في الأيام اللاحقة. فالمضارب التي أعدت للدبابير لابد أن تستعمل،وفجاة يكتشف الشقاة ان احداً لم يلتفت،بعد،للوطاويط. فهذه المخلوقات التي تخرج من أعشاشها عند الغروب بحثاً عن غذاء،وكانت تقطع الشارع،فوق الرؤوس،بحرية،ودون خوف،تصبح أهدافاً للمضارب تتلقاها في الذهاب والعودة.

وحين ترتفع قليلاً،وقد احست ببداية الخطر،يطيل الأولاد ايدي المضارب لتصلها،لتطالها. فإذا ارتفعت اكثر من ذلك،او اخذت تتجنب ممراتها السابقة،ينزع الأولاد صحاف التنك ويبداون "بورها" باتجاه هذه المخلوقات البائسة. كانت الصحاف،أغلب الأحيان،تخطؤها،إذ ماتكاد تحس الوطاويط بخفقات الهواء تتجه نحوها حتى تغير اتجاهها،ترتفع أو تنخفض،في محاولة لأن تنجو. رغم الحذر،كان عدد منها يتساقط. يظل الأمر هكذا إلى ان تخيم الظلمة،فتتوارى الوطاويط أو لايعود من الممكن رؤيتها،فيسلّم الأولاد،على امل ان يلقوها في يوم لاحق!

في اليوم التالي،وهم في طريقهم إلى المدرسة،وباعتبار ان الوقت قصير،ومع ذلك يجب أن يجدوا لعبة او تسلية،لابد أن يقفوا في مواجهة بعض بيوت الشركس لمعاكسة ديوك الحبش،وهي عادة موجودة ويبدأون بالغناء:

ديك الحبش مات مات   ديك الحبش ماخلف إلا بنات

وبمجرد أن تسمع الديوك هذه الأصوات تعرف أن الأولاد يناكدونها، يغيظونها، فتندفع إلى الوقوقة رداً عليهم، لكن استمرار غناء الأولاد يستفزها أكثر، فترتفع وقوقتها بصوت أعلى،وتكون اقرب إلى الصخب والشتيمة، رداً عليهم،وتبدأ بالتجمع والاستعداد،وكثيراً ماكانت تندفع للهجوم، فإذا لم تخرج صاحبة الديوك في الوقت المناسب لطرد الأولاد،او لم يهربوا،لابد ان تهجم هذه الديوك،وقد تسبب الأذى!

وإذا كان الوقت ضيقاً اثناء الذهاب إلى المدرسة،ولايكفي لأكثر من التحرش بديوك الحبش، فإن وقت العودة طويل فسيح، لذلك يمكن أن تتم فيه اشياء كثيرة،وهذه الأشياء تتحدد على ضوء الطريق الذي يتم سلوكه.

فطريق السوق حافل بأشياء كثيرة:

الوقوف عند مجلخي الأمواس والسكاكين والمقصات،وغالباً مايكون هؤلاء بخاريين لايعرفون من العربية إلا القليل،ويقومون بأعمالهم،على تلك الآلات البدائية،بصمت،كما لايمانعون في أن يظهروا براعتهم أمام الأطفال!

إلى الوقوف أمام مكتبة الصفدي واستعراض الكتب التي لاتتغير أبداً!

إلى مراقبة مضخة البنزين الوحيدة،في منتصف شارع فيصل،مقابل البنك العثماني،وكانت لهذه المضخة اسطوانتان زجاجيتان،تمتلئ الواحدة وتفرغ الأخرى،عندما تدار باليد لملء خزان سيارة من السيارات القليلة في عمان.

إلى الوقوف أمام تجمع يمازح شيتّه،المجنونة الفقيرة التي لاتتعب من قياس شوارع المدينة،وهي متدثرة بكم هائل من الملابس الممزقة....

إلى الوقوف أمام محلات عزيزية لتنشق رائحة القهوة والملبس،وأيضاً للتأكد من سعر قلم الحبر،الفابر.

إلّى المرور في سوق البخارية،مقابل الجامع الحسيني،والنظر إلى الأرض بحثاً عن أشياء ضائعة...

فإذا وصل التلاميذ إلى مطبعة السمان،واستفردوا بأحد البدو،فلابد أن يغافلوه ويجروا عباءته ثم يركضون هاربين...

يأخذون الدرج العريض الصاعد نحو الجبل،وفي طريقهم إلى البيت يصادفون عربات الشركس الصاعدة أو العائدة فيتعلقون بها،لكن عليهم أن يصلوا إلى البيوت قبل المغيب.

الذين يسكنون طريق الجبل لديهم أشياء أخرى يفعلونها. فما أن يجتازون "بيت الساكونة" التسمية التي أطلقت على بيت طبارة،القريب من العبدلية،لأنه رغم غياب ساكنيه لفترات طويلة كانت تصدر منه أصوات غامضة.. وما إن يجتازون المرتفع بعده،وحين تستوي الأرض بالقرب من بيت الشريف زيد،حتى تبدأ "لعبة الاسكندراني"،والتي تشبه الحصان الخشبي،وهي أن ينحني الواحد لكي يقفز زملاؤه عن ظهره،ويكون عدد القفزات المتاحة لكل واحد بقدر عدد المجموعة،إذ على الذي يقفز أولاً أن يأخذ دوره في بداية المجموعة لكي يقفز الآخرون.

إذا وصلت المجموعة إلى نهاية سور بستان الغريب،من ناحية الشرق،يمكنها أن تجتاز البستان إذا لم يكن الوقت أواخر الربيع،أي موسم اللوز. إذا كان الموسم فعندئذٍ تصبح الحراسة مشددة والتسامح غير معترف به،الأمر الذي يضطر

المجـمـوعـة إلى سلوك الطريق الطويل،ويعني ذلك المرور بالقـرب من بيت المدير سليمان عطور،وما يمكن أن يسببه ذلك من حرج واحتمالات خطرة،كأن يراهم المدير متأخرين،أو يكتشف أن ملابسهم متسخة أو وجوههم شقية.

كانوا وهم يمرون من هناك يصمتون،يرتبون ملابسهم،يرسمون على وجوههم ظلال البراءة،وكانوا يهيئون أيضاً اجابات مناسبة فيما لو صدف والتقى بهم المدير،لكن غالباً يمرون دون أن يتم هذا اللقاء!

وكما كان للعبدلية بابان،واحد شرعي والآخر للتسلل،فإن الطرق الموصلة إلى المدرسة كثيرة،لكن ليست كلها سالكة على مدار السنة،وليست كلها سالكة بنفس المقدار. فإذا كان قول : أطول الطرق أسلمها.. صحيحاً،واغلب التلاميذ يسلكونه،فهناك دروب يسلكها الذين أسرفوا في وضع دم الحرادين على أيديهم،وقد يشاركهم آخرون أيضاً،في بعض الأوقات،نتيجة اغراء لايستطيعون مقاومته،ويسوغ هؤلاء لأنفسهم سلوك هذا الطريق انه "مقاطعة" او بأن يقولوا: "كل الدروب على الطاحون".

وأم محيي الدين الغريب التي تتسامح بمرور بعض الأولاد من البستان،حين ينتهي قطاف اللوز،حيث تتظاهر أنها لم ترهم،خاصة إذا كان محيي الدين غائباً، فالأمر يصبح مختلفاً تماماً أثناء الموسم.

فزاوية البستان الشرقية،المحاذية لبيت سعيد المفتي،والمقابلة لدار نفاع،حيث توجد فجوة في السور،كان يمر منها عدد من التلاميذ المتأخرين وهم في طريقهم إلى المدرسة.. هذه الزاوية تصبح موضع رقابة مشددة من أم محيي الدين ،لأنها أضعف النقاط، واحتمال دخول البستان عبرها اقوى من أي احتمال آخر،فالأسلاك الشائكة في ذلك الموقع نزعت،والتحصينات التي أجريت عدة مرات لم تصمد طويلاً،ولذلك فإن عيني أم محيي الدين تتركزان على هذه الزاوية،خاصة أثناء ذهاب التلاميذ إلى مدارسهم وأثناء عودتهم.

ولأن الذين يريدون سرقة اللوز مصممون،ووضعوا اكثر من خطة،وقدروا اكثر من احتمال،يعرفون،ويقولون بمباهاة: "محيي الدين واحد وماهو مائة"،لذلك لابد أن يجدوا طريقة من نوع ما تمكّنهم من تحقيق كل او بعض ما يريدون.

يعبر عدد من هؤلاء إلى البستان من هذه الفجوة،إذا رآتهم أم محيي الدين تدب الصوت،وتكون عادة قرب البيت،وسط البستان. هذا الصوت المحذر لايخيف كثيراً، إذ يحتمل أن يكون محيي الدين غائباً،أو بعيداً،ولذلك يتريثون قليلاً. فإذا

صاحت مرة أخرى، يحاولون قراءة الصوت، فإن وجدوه مطمئناً غير خائف لابد أن ينسحبوا،وبأسرع وقت ممكن، لأنه بمقدار ما يحذرهم يُشعر محيي الدين بضرورة التحرك السريع. وعمان إن عرفت عداّءً مُراً يسبق الريح فهو محيي الدين.أما إذا قرأوا في الصوت صخباً وتحدياً فإنه دليل اكيد على غياب محيي الدين،لذلك يكونون أكثر اطمئناناً وهم يملأون جيوبهم باللوز قبل أن ينسحبوا، رغم التهديدات التي تصلهم من بعيد،والتي تقترب قليلاً قليلاً،وفقاً لخطوات أم محي الدين البطيئة المتعثرة،وهي تتجه نحوهم.

في وقت لاحق أصبح الذين يقومون "بالغزو"،كما يطلق على مثل هذه العمليات،، ينقسمون إلى مجموعتين أو أكثر،واحدة للمشاغلة،وماعداها للوصول إلى اكثر من مكان،حيث "لايستطيع محيي الدين أن يكون في مكانين مختلفين في وقت واحد"،كما يقول الغزاة.

ومحيي الدين حين لايظفر بالذين يطاردهم،لأنهم انسحبوا في الوقت المناسب، يعرّج على الملعب الصغير بالقرب من بيت الشريف زيد، حيث الأولاد يتجمعون ويلعبون،لعله يكتشف ،من خلال الملابس من خلال التصرفات،أحداً منهم، لكن تنتهي هذه المحاولة معظم المرات دون نتائج!

وإذا كان "الغزو" لايستهوي الكثيرين،لخطورته،ولما قد يترتب عليه من نتائج،خاصة إذا انكشف،بما في ذلك معرفة الأهل أو إدارة المدرسة،فإن الذين يقومون به يتخفون،يتظاهرون بالبراءة،يحتاطون أثناء الغزو،وحين يقبلون انضمام عنصر جديد!

كانت في عمان بساتين شديدة الاغراء،لكن لكل واحد منها صعوباته وتحدياته. ففي بستان الغريب محيي الدين،وفي بستان منكو،خاصة بعد أن انضم إليه بستان العنبتاوي، سيف وبدر الحارسان اليمانيان الشرسان؛ وبستان البلبيسي له سور عالٍ يصعب اجتيازه. اما بستان جواد بك فالسيل يحده من الشمال،والزقاق من الشرق والشارع من الجنوب، مما يجعل الخروج منه،وليس الدخول إليه، بالغ الصعوبة. وبستان أبو شام على طرف المدينة، تحيط به الأسلاك الشائكة، اضافة إلى السرو العالي،مما يجعل الوصول إليه مغامرة غير مأمونة النتائج.

قالت الجدة،حين رات حبات الاجاص الناضجة:

ـ عفية وليدي،عفية يابعد عيني..

استراحت قليلاً ثم اضافت بحنان:

ـ سويت مثل ماقلت لك: اشترِ تفاحة، عرموطة، حتى تبّرد قلبك أحسن ماتشتري مجلات الحرب والضرب اللي يدزها الانكليز الكفار.

وحين رات الابتسامات على الوجوه،و الأيدي تقلّب الاجاصات تساءلت:

ـ موصدق اللي أقوله أم تقولون ماتفتهم؟

وخرج أكثر من صوت:

ـ بيبي.. هذي مو شراية، هذي غزو.

ولما تأكدت من الكلمات التي سمعتها،بعد أن استفسرت،هجمت على حبات الاجاص،خطفتها بقوة،بشراسة،وكأن الجنون أصابها،وخرجت الكلمات من بين أسنانها:

ـ هذي اللي عايزة.. فرهود؟ صرتم نهابين تفرهدوا الناس؟ والله لاشعل أمواتكم.

وضعت العباءة على رأسها، ووضعت حبات الاجاص في طرف العباءة، وصرخت:

ـ ياالله قوم وياي،انهجم بيتك،أريدك تقولي منين نهبتها.. ياالله قوم.

بصعوبة بالغة،وبعد أن تدخل الكثيرون،أمكن اقناع الجدة تأجيل الأمر إلى الغد. وافقت بعد تردد،قالت،وكانت الدموع تملأ عينيها،وتركت عباءتها ترتخي على كتفيها:

ـ هذي العايزة.. بدل القراية،بدل العلم،تصيرون حرامية... تفو .

وبعد قليل:

ـ الحلال يفوت بحلوقنا مثل الزقّوم،ظل علينا ،هسه،الحرام ؟

انفعلت من جديد،عبرت رأسها افكار كثيرة،قالت بتحدٍ:

ـ يحرم علينا نحطه بحلوقنا...

وبعصبية قامت،وبقدميها أخذت تدوس الاجاصات،وكانت تبكي!

في الأيام التالية، قيل ان الجدة بذلت جهداً كبيراً لمعرفة صاحب البستان من اجل أن تدفع له مقابلاً لما سرقة الحفيد،وايضاً لكي تطلب منه الصفح. وحين لم

تصل إلى نتيجة تصدقت بما اعتبرته مبلغاً كافياً،وصامت ثلاثة أيام متوالية،وصامت يومي الاثنين والخميس من الاسبوع اللاحق، لعل الله يغفر للصغير.

وانشغل الكبار بهموم الحياة،خاصة في تلك الفترة الصعبة،وعاد الصغار إلى عالمهم. لكن ظلت عمان،رغم الهموم والمصاعب،كباراً وصغاراً،تنتظر مباريات كرة القدم.

فالكرة التي تتقاذفها الأرجل،حتى لو كانت من الخرق،جزء من تاريخ هذه المدينة،فهي موجودة في كل مكان: في الشوارع،في الساحات،وبعض الأحيان في الأزقة الضيقة،خاصة وأن أي مكان يصلح لأن يكون ملعباً،إذا توافرت الكرة وتوافر عدد من اللاعبين. يضاف إلى ذلك أن السيارات في تلك الفترة كانت قليلة جداً،إلى درجة لايمكن أن تفسد استمرار مباراة بين فريقين تجري في الشارع!

أي حجرين يصلحان لكي يحددا "الگول"،وأي عدد يكفي لأن تبدأ الكرة تطير من جانب إلى آخر،وأي ضربة يمكن أن تكون هدفاً أو لاتكون،خاصة وأنه لاحاجة إلى محكمين أو مراقبي خطوط،إلا إذا كان عدد المرشحين للعب اكثر من طاقة الملعب على الاستيعاب!

كانت تتاح الفرصة للكثيرين لكي ينزلوا إلى الملعب،لكن بسرعة،ودون عناء أو مكابرة،ومن خلال الانتخاب الطبيعي،ينتهي أمرهم بأن يتحولوا من لاعبين إلى متفرجين متحمسين.

وإذا كانت الكرة قد بدأت في الأزقة والشوارع،فلا بد أن تصل ببعض اللاعبين إلى الملاعب الواسعة،ولأن يتحولوا إلى لاعبين مرموقين. فاين كانت ملاعب عمان تلك الفترة؟

مباريات الأحياء كانت تجري في المساحات الفارغة،إذ بالاضافة إلى الشوارع،هناك ساحات أصبحت معروفة وفرضت نفسها،واعتبرت،بشكل ما،ملاعب شبه رسمية. ففي رحاب المدرج الروماني،حيث كانت تجري الاحتفالات في العصور الماضية،وحيث يجري "العيد" في الوقت الحاضر،أصبحت الساحة الملعب الذي تجري فيه مباريات شرق عمان. أما في غرب المدينة فكانت هناك ملاعب كثيرة: الملعب الصغير،هكذا كان يطلق على الساحة قرب اللاسلكي،مقابل بيت العدوان. ففي هذا الملعب تجري المباريات بين الأحياء،وكان يجري فيه،بعض الأحيان،استعراض الخيول،اضافة إلى كونه مكاناً للنزهة،حيث يقع الحاووز

الصغير،وليس بعيداً عن البيوت،وبالتالي كان يحضر إليه متفرجون كثيرون،حتى ليقال أنه لم يترك رجلاً إلا وجرها إليه،لسبب أو لآخر،بحيث أصبح الملعب الشعبي لكرة القدم داخل المدينة.

ليست لهذا الملعب عوارض خشبية،وهو أصغر قليلاً،من الملاعب الرسمية،لكنه مستوٍ ومحصور،اضافة إلى أن الدخول إليه مجاناً!

الملعب الآخر ملعب الشريف زيد،ويماثل،تقريباً،من حيث المساحة والمواصفات الملعب الصغير،لكنه موسمي،إذ إن "رزيق" مرافق الشريف،يمنع اللعب فيه بعض الأحيان،لئلا تتهيج الخيل،ويحصل ذلك خاصة حين يكون الشريف في الاسكندرية! وهذا يجعل الفرق المدعوة لاجراء مباريات عليه تتردد،لأنها ليست متأكدة ماإذا كانت المباراة ستجري أم لا!

ثم هناك الملعب قرب الحاووز،وكان عبارة عن كول واحد،إذ كانت في الأرض كم "صفاة" تجعل اللعب خطراً،الأمر الذي اضطر النادي الفيصلي للاكتفاء بكول واحد،ويستخدم للتدريب فقط.

ثم ملعب مدرسة المطران،وكان هذا ملعباً نظامياً من حيث المساحة ووجود العوارض الخشبية التي تحدد الهدف،وأيضاً وجود السور،خاصة من الناحية الشمالية،حيث يستطيع المتفرجون الجلوس،إلا أن الدخول إلى الملعب صعب،خاصة أثناء ادارة المستر ساتن الذي لم يكن يرحب بالضيوف الصغار،ويفرض في حالات معينة رسماً للدخول!

العيب الوحيد في ملعب المطران أن الجهة الجنوبية الغربية منه شديدة الانحدار،الأمر الذي يجعل استعادة الكرة،إذا خرجت من هذه الجهة،تتطلب وقتاً طويلاً!

وأخيراً هناك ملعب كوبان،وهو في اقصى غرب المدينة،وكان خلال فترات طويلة جزءاً من بيادر الشركس،إلا انه تحول،بشكل أو آخر،إلى ملعب،وكانت تجري على أرضه بعض المباريات الهامة،وأن تكن بين الفرق المحلية.

لم تكن لملعب كوبان عوارض للهدف خلال فترة طويلة،كما أن أطرافه ليست واضحة دائماً،الأمر الذي يتطلب،قبل اجراء اية مباراة،أن تُحدد هذه الأطراف، خاصة الزوايا،وكان يتم ذلك بالرمل الأبيض أو بالكلس،وكان يجري أيضاً قياس المسافة بين حجري الكول للاطمئنان والتأكد،مع الاشارة أن هذه الأحجار كانت تتغير تبعاً لمستوى الفرق المتنافسة،وبعض الأحيان نتيجة التواطؤ!

هكذا كانت الملاعب في عمان المدينة. حتى بعد انشاء الكلية الاسلامية،في الجزء الثاني من عقد الأربعينات،فقد ظل كوبان ملعباً لهذه الكلية،وكثيراً ماخرج تلاميذها،وأستاذ الرياضة،هلال،من أجل اعادة تخطيط الملعب،قبل وصول الضيوف واجراء المباراة.

لعل الملعب الحقيقي،والرسمي أيضاً في تلك الفترة،وهو للمدينة،وإن كان خارجها،ملعب المحطة،ففي هذا الملعب تجري المباريات الكبيرة والهامة،وعلى أرضه يجري سباق الخيل،وتقام بعض الأحيان الاحتفالات التي تتذكرها عمان أكثر من غيرها.

فهذا المكان،المحطة،له معان كثيرة في أذهان الناس: سكة الحديد،وماترمز إليه من التواصل والسفر،وأيضاً وصول المسافرين والبضائع والأخبار؛ ثم السجن،والذي لايبعد عن الملعب إلا مسافة قليلة،ومايولد في الذاكرة والخيال،خاصة بالنسبة للصغار؛ ثم الباصات الأولى النظامية بين مكانين في عمان،وربما تكون هي أولى السيارات التي يركبها الأطفال تلك الفترة؛ ثم السيران على طول الطريق،بين الأشجار وإلى جانب المياه التي تتدفق بغزارة،وأيضاً الملعب.

قلما يمر يوم جمعة في فصلي الربيع والخريف دون أن تكون هناك لعبة كرة قدم. قد تتفاوت الفرق المتبارية،وبالتالي يتفاوت الحضور،لكن يوم الجمعة يعني الكثير للصغار والكبار،فإذا كانت المباراة بين فريقين رئيسيين،كالأردن والفيصلي،أو حين تأتي فرق زائرة،فإن الاستعداد لحضور تلك المباريات يبدأ مبكراً،لأن باصات عبدالله أبو قورة،وكانت تنطلق من شارع فيصل،ورغم أنها تعمل بأقصى طاقتها ،خلافاً للايام العادية من حيث الاستيعاب والمواعيد ،الا انها لاتقوى على نقل إلا قسم محدود من الذين سيحضرون المباراة،وهذا يعني أن الكثيرين سيقطعون المسافة بين عمان والمحطة،ومقدارها أربعة كيلو مترات،سيراً على الأقدام.

تبدأ الرحلة نحو المحطة باكراً،ويحرص الأصدقاء والأقرباء أن يكونوا معاً،سواء في الذهاب،أو في احتلال مكان مناسب على أطراف الملعب،لتشجيع من يعتبرونه فريقهم،ولمواجهة أية تحديات قد تطرأ.

خلال الطريق الذي يستغرق أكثر من ساعة: الطبول والمزامير،سواء من الأفواج السائرة،أو تلك التي تستريح على طرف النهر.

كان باعة الخس، في مثل هذا اليوم، يبيعون أكثر من أي يوم آخر،وكانت

اسعارهم في الذهاب تختلف عن الأسعار في العودة! وكذلك الحال بالنسبة لباعة الذرة والفول والفلافل،والذين يكونون قد وصلوا قبل الجميع،واحتلو أماكن مناسبة،سواء على الطريق أو إلى جانب الملعب.

نتائج المباراة تحدد،أغلب الأحيان،طريقة العودة. ففي حالات الفوز يستقل من يعتبرون أنفسهم أنصار الفريق الفائز سيارات شاحنة،كانت تقف لهذا الغرض،وتتقاضى نصف أجرة الباص،لا لتنقل هؤلاء فقط بل وللقيام بجولة في شوارع عمان،لكي تعلن النتائج من خلال الأغاني والأهازيج.

الذين اعتبروا أنفسهم مهزومين يعودون،في الغالب،سيراً على الأقدام،وتكون الرحلة في هذه الحالة حزينة،مملوءة بالصمت،وهذه الطريقة في العودة تتضمن شيئاً من معاقبة النفس. كان يصل هؤلاء إلى عمان متأخرين،ويكونون،في العادة،غير راغبين بأية مناقشة،ويتمنون لو أنهم لايُسألون عن النتائج!

مباريات مدرسة المطران تجري في أحد يومين: الخميس أو السبت،لكي لا "تضارب" على مباراة الجمعة،وبالتالي لكي تكسب حضوراً،خاصة إذا كان الدخول بمقابل،وأيضاً للاستفادة من يوم العطلة في اليوم التالي. غالباً ماتكون هذه المباريات ودية أقرب إلى الأناقة،حيث تظهر البراعة الفردية والمهارة،وتوزع في نهاية الشوط زجاجات الكازوز على اللاعبين وبعض الضيوف!

وإذا كانت الطيارات الورقية تتحدد بالمناطق والأسماء،فإن نجوم الكرة يتميزون على غيرهم بشكل كبير،لأنهم لايتحددون بموسم،ولايقتصر تقديرهم ومحبتهم على مجموعة،كما أنهم يعنون لكل انسان شيئاً. فحين يكون فريدون حكمت حارساً للمرمى لايشك أحد في حصانة المرمى واستحالة اختراقه؛ وحين يكون معه أخوه طلال في الدفاع تكون الثقة بالفريق أكبر؛ فإذا انضم إليهما ينال في الهجوم فلابد أن يتسلل بشكل ما لكي يحقق اصابة،أما حين ينزل أحمد الحميد إلى الملعب فيقابل بعاصفة من التصفيق،ولايتردد الكثيرون في القول أنه أمهر اخوته رغم أنه أصغرهم. وإذا كان شما في فريق فإن حظوظ هذا الفريق بالفوز تكون أكبر بما لايقاس،كذلك الحال بالنسبة لأحمد التلي. أما ضربات مجلي أو ضافي الجمعاني فيمكن أن تصل من بداية الملعب إلى نهايته،وهذا دليل على القوة. ومحاورات مازن العجلوني ممتعة وتثير الكثير من الحماس. وسليمان الطُبل يظل يختال في الملعب،رغم قصره،ورغم الحصار الذي يفرض عليه. اما شحادة حين يصاب في اللعب ويضطر للخروج فيشعر كل متفرج أنه أصيب،وقد يشعر بعضهم بالألم فعلاً.

بعد كل مباراة تنشغل عمان أياماً،وربما أكثر ،في تقييم اللعبة واللاعبين،وتحديد نقاط القوة والضعف،مع افتراضات لاحدود لها حول امكانية تغيير النتائج أو تحسين المواقع،فيما لو حصل هذا الشيء أو ذاك،وكان هذا يثير خلافات لاتنتهي إلا إذ حصلت مباراة جديدة.

في الخريف،ومع سقوط الأمطار،ينتهي موسم كرة القدم،لأن أكثر عمان لايعود صالحاً،نظراً لتجمع برك الماء نتيجة الأمطار،خاصة وأن معظم هذه الشوارع غير معبد،حتى شارع منكو،حيث يسكن في نهايته أبو حنيك،لم يعبد إلا في منتصف الأربعينات.

بتراجع ثم انتهاء موسم الكرة تظهر العاب وهوايات أخرى،وهذه تتفاوت تبعاً للسن والمستوى،فالصيادون الذين استراحوا طوال فصل الصيف،لعدم وجود الطرائد،ولانشغالهم أيضاً،يستخرجون بنادقهم استعداداً للموسم الجديد،وهكذا يبدأ أبو شحادة،وعدد آخر من الصيادين الشراكسة،مع كلابهم،بمطاردة الترغل في مرعاه وفي المبات،ثم يتحولون إلى السمان،وهي من الطيور المهاجرة،فإذا واصلت هذه رحلتها إلى أماكن أكثر دفئاً،التفتوا إلى الحجل والأرانب. كان هؤلاء الصيادون يشاهدون عائدين عند الغروب أو بعده بقليل،وقد علقوا الطرائد على جنوبهم.

حتى الصيادون غير المحترفين،كانوا لايترددون أيام العطل في تجريب حظوظهم،إذ يستعدون لمثل هذه الرحلة،ويهيئون لها الكثير،وكان على رأس هؤلاء الهواة عزمي المفتي،غاندي. فقد صادف مرات عديدة أن تبدأ الرحلة عند الفجر وتستمر طوال اليوم،وتكون الحصيلة،مع ذلك متواضعة!

بنادق الصيد تتفاوت كثيراً تبعاً للعمر والامكانيات،إذ مقابل "الجفوت" المزخرفة غالية الثمن،كانت هناك البنادق القديمة،بعين واحدة،وكانت هناك أيضاً "جفوت الدك" وحصيلة الصيد تتوقف على الصياد أكثر مما تتوقف على البندقية!

ولأن معظم أولاد عمان فقراء،ولايتطلعون إلى امتلاك حتى جفت دك،فإنهم كانوا يكتفون بالأفخاخ والمغيطات... ثم يلتفتون إلى ألعاب وهوايات أخرى!

في النصف الثاني من عقد الأربعينات كثرت الدراجات الهوائية،وكانت هناك محلات لتأجيرها، وغالباً ماتؤجر بالساعة وأجزائها،ولقد شغلت هذه الدراجات الكثيرين، وكانت إلى جانبها الزحافات، وهي عبارة عن قطعة مستطيلة من الخشب مثبتة على عجلات، وكانت تستعمل،في بداية الأمر،كعربات لجلب الماء من العين، أو

لحمل بعض الأثقال، إذ توضع عليها تنكات الماء أو أشياء أخرى،وتجر، لكن ما لبثت أن أصبحت لعبة للأطفال،حيث يركبها واحد ويجرها أو يدفعها آخر، وفي المنحدرات تندفع وحدها، ولذلك تصبح خطرة، نتيجة التسارع، لمن لايحسن التحكم بها.

ولأن القوة، وأحد مظاهرها العضلات، تعني الكثير ، فإن رفع الأثقال والمكاسرة وبعض الأحيان الملاكمة، من جملة الأمور التي تشغل الصبية، خاصة وأن المشربش افتتح، في تلك الفترة ، نادياً لكمال الأجسام، بالقرب من جسر المهاجرين، وكجزء من الاعلان والدعاية للنادي، تعمّد المشربش نفسه أن يقوم بأكثر من جولة يومياً في شوارع عمان،كان يفعل ذلك وهو يختال بجسده الرياضي، الأقرب إلى الاسطورة،مما يثير الاعجاب والدهشة.. وبعض النفور،خاصة وأن الملابس التي يرتديها من شأنها أن تظهر العضلات،وقوة الرقبة،ومما يزيد في ابرازها طريقته في المشي!

ثم هناك الألعاب التي يتم اختراعها في التو واللحظة، كسباقات الركض والخشبة الطائرة، إلى القفز العالي والعريض،وغير هذه من الألعاب، والتي تتفتق عنها عقول الصغار.

مع تقدم الخريف تقصر النهارات ويبرد الجو،كما أن الواجبات الدراسية تتزايد،ويصبح امتحان نصف السنة على الأبواب،ولذلك تتغير وتيرة الحياة،إذ يقل اللعب،ويضطر التلاميذ للعودة إلى البيوت مبكرين.

تقول الجدة حين تراهم خائفين لقرب الامتحانات،وهم يحاولون استدراك ما فاتهم:

ـ جاك الموت يا تارك الصلاة...

تتطلع إليهم بحنان وتتابع:

ـ لاحقين على اللعب،عندكم الصيف كله؛ لكن خلوا ببالكم: مايعرف يلعب زين إلا الناجح. أما ذاك اللي عنده اكمال يصير مثل معايد القريتين،لايعرف يقرا ولايعرف يلعب...

تستريح قليلاً،وتفرح لأنهم مستمرون بالدراسة،تقول،وهي لاتخفي هذا الفرح:

ـ عفية ولدي،اقروا زين،لأن هذي الدنيا غدارة ومايقدر عليها إلا اللي يتعلم ويحصّل شهادة!

٩

غابة كثيفة من أشجار الحور والصفصاف والكينا،وغير بعيد عنها أشجار الصنوبر،تطوقها كلها أسلاك شائكة،ووسط هذه الأسلاك بوابة حديدية،كانت خضراء في فترة سابقة،تظل مغلقة طوال أيام الأسبوع،عدا نهار الجمعة. ما إن يدور المفتاح في هذه البوابة حتى ترتج وهي تستدير لتنفتح ببطء. إذا فتحت،وتنحى الحارس جانباً وأذن للناس بالدخول،تهب الرطوبة ورائحة المياه،ومع كل خطوة إلى الأمام تزداد الرطوبة ويضّج صوت الماء،حتى إذا تم قطع مائة خطوة نصبح في حرم المياه المقدسة!

ليس هناك أروع ولا أخطر من منظر هذه المياه،خاصة لمن يراها لأول مرة. إنها تتدفق بغزارة،وكأن احداً يدفعها،بل اكثر من ذلك: تضحك وهي تندفع،وتضحك بطريقة اقرب إلى العربدة،فها قد بدأت رحلتها البراقة الحافلة في هذه الحياة،بعد أن طال سجنها وانتظارها في باطن الأرض.

فإذا كانت المياه هي أصل الحياة،وعلى ضفاف الأنهار والبحيرات قامت المدن،فإن مدينة «الحب الأخوي»،كما سميت عمان قديماً،أو فيلادلفيا كما شاع اسمها،لم تخرج عن هذه القاعدة. اكثر من ذلك أطلق عليها اسم مدينة المياه حين انشئت في العصور السحيقة،وكانت المياه ايضاً احد اهم الأسباب لإعادة تأسيسها في العصر الحديث.

من "رأس العين" تبدأ الخطوات الأولى للرحلة. فالنبع الغزير الصخاب،بعد أن يعطي عمان ماتحتاجه من المياه ـ تدفع إلى الحاووز الكبير في أعلى الجبل ـ يصب في بركة كبيرة،وهذه البركة العميقة الرجراجة تمد لساناً لايلبث أن يصبح مجرى للنهر الذي يبدأ من هنا،ليقطع الوادي كله بين التلال والجبال،مستقبلاً في رحلته كماً متزايداً من المياه التي ترفده من الينابيع الكثيرة على جانبيه،ويواصل

النهر رحلته إلى أن يلتقي بنهر الزرقاء، حين يتحد الاثنان يتابعان رحلتهما الرائعة ليصبا في نهر الأردن.

يبدأ النهر رحلته إذن من رأس العين، ويسير من الغرب إلى الشرق، مستقيماً في معظم المسار، إلا عندما يضيق الوادي، أو تتصخر الأرض، فيضطر عندئذٍ لأن ينعطف قليلاً، مشكّلاً حوامات هنا وهناك.

على ضفتي النهر، وبعد سوق الحلال الكبير مباشرة، تبدأ البساتين. بين البساتين،وعلى مسافات متباعدة، نسبياً،تقوم البيوت،وكان سكانها، في الغالب،من الشركس فإذا تابع النهر سيره، ووصل إلى قرب طلعة المصدار،وهناك كانت تقوم الطواحين على الضفتين، ثم انشئ جسر المهاجرين، يصبح السكان مزيجاً من الشركس والعرب، من المسلمين والمسيحيين، كما يلتقي هناك الشارع الهابط من الجنوب،من مصدار عيشة، بشارع المهاجرين،ومن هذا الموقع يبدأ السوق التجاري، الذي يسير ويمتد بموازاة النهر،على ضفته اليسرى.

تستمر البساتين على الضفتين بجانب النهر مباشرة، لكن تصبح صغيرة، أقرب إلى الحواكير المحيطة بالبيوت. فإذا انعطف النهر قليلاً قليلاً في مساره،وأخذ يقترب من بستان ودار جواد بك فيشكل في ذلك المكان نصف دائرة، كما يغدو واسعاً وعميقاً، ليصبح أول مسبح لأطفال عمان. علاوة على أن هذا الموقع من أكثر المواقع التي يحتمل وجود السمك فيها.

يواصل النهر رحلته بعد ذلك ليمر تحت جسر الحمام، ونظراً لطبيعة الأرض والكثافة السكانية والأبنية لايكاد يُرى،كما كان الحال في مشواره من النبع حتى هذا الجسر. فإذا تجاوز سوق السكر بخطوات،وقبل أن يصل إلى سوق الخضار بخطوات، يتفجر نبع من الضفة اليسرى. كان هذا النبع غزيراً بارداً،ومنه كان يستقي السوق كله،ومنه كان السقاؤون، بالقرب،يحملون كميات كبيرة إلى أمكنة بعيدة أيضاً.

بين سوق الخضار والجسر العسبلي كان يقوم جسر صغير آخر،وكان بعض الأطفال "يشكون" من أعلى هذا الجسر إلى المياه العميقة، لذلك يعتبر هذا المكان المسبح الثاني لأطفال عمان. وحين يوالي النهر سيره يصل إلى الجسر العسبلي،مقابل المدرج الروماني،وكان هذا أقدم الجسور وأهمها. ولما كانت المدرسة العسبلية وفندق فيلادلفيا يشغلان الضفة اليمنى، فإن الضفة الأخرى،والتي تصبح

عميقة من حيث كثافة المياه،ومنخفضة بالمقارنة مع مستوى الشارع فوقها،فإنها تغري حتى الكبار بالسباحة،وهكذا يكون في عمان ثلاثة مسابح!

بعد الجسر مباشرة تكثر من جديد الخضرة والبساتين على الضفة اليمنى من النهر،إلى أن يصل إلى المسلخ ثم جسر المحطة،وهناك ينفتح الوادي،وتتسع الضفتان،لتبدأ البساتين بكثافة أكثر مما كانت وسط المدينة أو في طرفها الغربي.

وإذا كانت عمان ـ المدينة قد بدأت من جسر المهاجرين غرباً،فتكاد تنتهي تقريباً عند الجسر العسبلي،عدا بعض البيوت المتباعدة،شرقاً. ولما كان الطابع الشركسي قد ميزّ غرب المدينة،تحديداً بالقرب من النهر،فإن الطابع ذاته،وإن يكن بنسبة أقل، يميّز شرقها،خاصة الشابسوغ. أما في الوسط، في السوق التجاري وماحوله، فإن الطابع العربي،المتعدد والمتنوع، هو الغالب، وربما الوحيد.

يتابع النهر رحلته،وحين يتجاوز المحطة،يتعمق مجراه،ويبتعد عن الطريق،حتى إذا وصل إلى مكان قريب من الرصيفة،ينبثق نبع رائع أخاذ،ينبثق نبع عين غزال،ليصب في النهر.

في ذلك الصباح البارد من أيام الربيع،وكان الضباب لايزال مخيماً على الوادي،سأل أحد التلاميذ الأستاذ يوسف الجيوسي،وكان يرتدي ملابس الكشاف،وقد سيطرت الدهشة على الجميع بعد أن رأوا النبع الغزير،سأل التلميذ: لماذا سُمي النبع بهذا الاسم؟

فوجيء المدير بالسؤال،أو لم يكن واثقاً من الإجابة،قال:

ـ ربما جاءت التسمية بسبب أن الغزلان كانت ترد هذا النبع وتشرب منه...

وبعد قليل،وبدا كأنه غير راضٍ عن هذه الإجابة:

ـ وربما لأنه صاف كعين الغزال!

قال الأستاذ داود ضاحكاً:

ـ ربما لأنه واسع وكبير كعين الغزال!

نبع عين غزال،بذلك التدفق الغزير،بالصفاء،وأيضاً بالسحر الذي يتركه في قلب كل من يراه،خاصة في مثل ذلك الصباح الربيعي البارد،يجعل الانسان على يقين: إن هنا بدأت الحياة،ومن هذا المكان كانت خطوات الانسان الأولى،وفي هذا الموقع تم اكتشاف أول الأصوات العذبة والأشكال الرائعة والألوان التي تتغير كل

لحظة،مامتدت الشمس،حين يتراجع الضباب،ولما تتداخل الخضرة مع انعكاسات بريق الجبال المحيطة.

قد لايكون هذا المكان الأجمل في الكون،والنبع قد يكون أصغر من ينابيع كثيرة في هذا العالم ـ وهو بالفعل هكذا ـ لكن أياً من تلاميذ العبدلية لن يرى أكثر منه رسوخاً في الذاكرة،وربما لن يشرب أعذب من مائه،وقد لايكتشف أكثر جمالاً ورهبة منه.

تصبح الأشجار في الرصيفة وحتى الزرقاء أكثر كثافة وأكثر جمالاً،وتصبح أشجار الفاكهة أكثر من الأشجار الأخرى. كما يغدو الطريق،بالباص أو بالقطار، أليفاً ناعماً،حتى إذا بدت الزرقاء من بعيد، فإن أبرز مايُرى منها: الخضرة التي تنعطف ويصبح لها مسار جديد مختلف،حين يلتقي النهران،وقد جاء كل واحد من اتجاه؛ ويُرى أيضاً قصر شبيب،القابع على راس التل والمكتفي بعزلة أرادها أو فرضت عليه،بعد أن زال مجده،ولم يعد سوى ذكرى من ذكريات الماضي.

مشوار نهر عمان،بين المنبع والمصب،قصير،لكن الأنهار ليست دائماً بأطوالها. كما أن الأنهار كالبشر،ليست لها طبيعة ثابتة أو سوية واحدة. وإذا كانت لهذا النهر ملامح متشابهة أو متقاربة في ثلاثة فصول: الربيع والصيف والخريف،فإنه في الشتاء نهر آخر.

فبعد أن يعود التلاميذ إلى مدارسهم في أول تشرين الأول،يصبح انتظار المطر طقساً يومياً لجميع الناس. فإذا ازدادت برودة الجو وتأخر المطر،وظلت الكرة تتطاير في العصاري،تقذفها الأرجل من ناحية إلى أخرى،فإن الكبار الذين يكونون قد انتهوا من دحل الأسطحة وترميم البيوت،واشتروا حملاً أو اثنين من الحطب،يصبحون أقل تسامحاً إذا اصطدمت بهم الكرة وهم يمرون في الشارع،لأن الهموم التي تشغل هؤلاء الكبار تختلف كثيراً عن الهموم التي تشغل الصغار،خاصة في مثل هذه الفترة العصيبة. فالحرب التي كانت بعيدة،وكانت تقتصر على الأخبار التي تذاع من لندن وبرلين،أخذت تقترب،إن لم يكن من خلال دوي المدافع،فمن خلال ارتفاع الأسعار،وشحة المواد،وأيضاً من خوف غامض يحسه الناس وإن ظلوا حريصين على نسيانه وعدم التطرق إليه: انحباس المطر.

كان الكبار لايكفون عن مراقبة السماء،وكانوا يتشممون الهواء،لعل السماء تجود عليهم بالغيوم،أو لعل الريح تحمل إليهم رائحة المطر. كانوا يفعلون ذلك بصمت،لكن بحزن،ولايتعبون من الانتظار.

فإذا طالت مدة الانتظار،وتوالت الأيام،ومع زيادة البرد،لكن دون مطر،فعندئذٍ يصبح النزق سمة تميز سلوك الكبار وكلامهم.

كانوا يتحدثون فيما بينهم،ولكن الصغار يسمعون،وهم يرقبون الغيوم الهشة تعبر السماء،وحين تهب رياح تحمل الغبار أكثر مما تحمل رائحة الرطوبة أو علامات المطر،يُسمع من يقول:

ـ الشتاء بأوله ياجماعة الخير...

كان الذي يتحدث يستريح قليلاً ثم يضيف بمرح:

ـ لسّه، بعد، عندنا الكوانين.

وحين لايجد قبولاً أو موافقة من الذين ينصتون،يتابع:

ـ هذي الأيام ماهي قياس،لأنه مثل ما قالوا: بين تشرين وتشرين صيف ثاني!

حين تنقضي التشارين ولاياتي المطر، يصبح الأمر خطيراً.

فالشركس الذين تعودوا على طقس آخر،والذين يعتمدون على الزراعة بشكل كامل،يصبحون اكثر تحسباً،وربما أكثر خوفاً،لذلك يستخرجون من الذاكرة الجمعية،من الموروثات البعيدة،كل ما اختزنوه فيها من طاقة لمواجهة الخطر الآتي. وإذا كان الكبار،بمكابرة قاسية، يحاولون الحفاظ على الكبرياء والتماسك،فإن الصغار،وهم يُدفعون لتوسل السماء،أكثر قدرة على التعبير.

كان أطفال الشركس يصنعون دمية كبيرة من العيدان والقصب،يلفون عليها أردية، ثم يدورون على البيوت،ويسيرون في الشوارع وهم يرددون:

حنسـه كَواشـه زدّوشْه يا الله

وشكْ قيغشك تيغشكَج

وكان الأطفال العرب، تقليداً أو غيرة،وربما نتيجة تراث قديم أيضاً، يدورون في الشوارع وهم يرددون:

ياربنـــا ياربنـــا ياربنا اغث زرعنـــا

إذا كـــان الكبار أذنبوا فنحن الصغار ماذنبنا

أما الكبار فكانوا،بعد صلاة الجمعة،يصعدون إلى الجبال،وهناك يجري دعاء ثم صلاة الاستسقاء. يرفع الرجال،خاصة المسنين،أيديهم إلى السماء بضراعة حزينة أقرب للاستغاثة،بعد أن ينزعوا العُقل عن رؤوسهم،ويبدأون بدعاء فيه بعض العتاب،ولايخلو من استغفار كثير،طالبين من الله أن يبعث المطر.

لقد جرى مثل هذا الدعاء مرتين أو أكثر خلال فترة الأربعينات،كانت تخرج الجموع إلى جبل عمان،إلى جبل القلعة،وقيل إن الكثيرين خرجوا إلى أعلى قمة في جبل الأشرفية،وهناك ترتفع الأدعية،الأقرب إلى الصرخات،طالبة من الله أن يعفو وأن يصفح وأن يبعث المطر.

كان الله يستجيب بعض الأحيان،وكان لايستجيب في أحيان أخرى،لكن الناس لايكفون عن الانتظار والتضرع.

خلال فترة الانتظار، وحين يذهب الرجال إلى تأمين الرزق، وكانوا يحصلون عليه بمشقة بالغة، كانت النسوة تجبر الأولاد على عمل شيء نافع، لكي يشعروا بالهّم الآتي، وليشعروا الآباء أنهم يشاركون في العمل. كان أكثر مايُرشحون له تكسير الحطب. يندفع الأولاد ،أول الأمر،بحماس للقيام بهذا العمل، لتجريب عضلاتهم، ليثبتوا أنهم أصبحوا قادرين ومفيدين، لكن ما إن تمر بضع ساعات حتى يكتشفوا أنهم أعجز أو أقل صبراً لمواصلته، ولذلك يلجأون إلى الأغصان الطويلة الرفيعة يكسرونها. حين ترى الجدة أنهم نحّوا الحطبات الكبيرة، وأخذوا يتعاملون مع الأعواد،ويبالغون في تكسيرها، تتطلع إليهم، تهز رأسها عدة مرات، تقول وهي تبتسم:

- يابا... ولدي.. نريد ندفي عظامنا،مانريد نكّش سنونا!

وحين يتطلعون إليها تتابع وهي تهز رأسها،وربما تتذكر:

- برد عمان يقرّم،وينراد له حطب جهنم!

تتغير لهجتها تصبح أقرب إلى الأمر:

- ولدي.. استنقوا الحطب الكبير،الحطب، اللي إذا اعتلق يساهر النجم...

وحين تبدو كلماتها غير مقنعة تضيف وهي تبتسم:

- وين اكو نجوم بذيك الجلهيمة السودا...

تضحك بصوت متقطع وهي تتابع:

ـ هاي عمانكم ينراد لها صبر أيوب وحطب مايذوب!

العادة أن تنكسر حدة الحرارة ويتغير الجو في الأيام الأخيرة من آب،حسب التقويم الغريغوري،وهو ذات التقويم الذي يعتمده الفلاحون في البذار والسقاية والحصاد. ومن الأقوال التي يرددها المسنون: "في الأيام الأخيرة من آب ينفتح على الشتاء باب"، لكن هذه البرودة غالباً لاتأتي،أو لاتؤدي إلى سقوط الأمطار، إلا فيما ندر. ومع ذلك يظل المتفائلون يرددون: "أيلول ذنبه مبلول"!

والعادة أيضاً أن الأمطار إذا جاءت تجيء هينة متباعدة،قد تمطر في الليل لكن تصحو في اليوم التالي. أما أن تأتي كثيفة متتابعة،في الليل وفي النهار،وأن تستمر كذلك لأيام متواصلة،فإن عمان لم تألف هذا النوع من المطر،وإذا جاء لاتنظر إليه نظرة حسنة أو على أنه علامة من علامات الخير. وهذا ماحصل في سنة ١٩٤٣.

كل من نظر من جبل عمان إلى مجرى النهر في ذلك الصباح لم يصدق عينيه،ولم يكن من السهل أن يقنع نفسه. فالنهر الوديع،الأقرب إلى الخجل،والذي تعوّد أن يسير متمهلاً،كأن ليس له موعد مع أحد،بذلك اللون الذي يتروح بين الخضرة والزرقة،حسب ساعات النهار،تحول فجأة إلى شيء آخر: ازداد عرضه مرات عديدة،وغادر سريره ليطغى على البساتين حوله من الناحيتين. أما لونه فقد أصبح طينياً أقرب إلى الحمرة،كما تضاعفت سرعة جريانه،فبدا كأنه يهرول ويريد أن يصل بسرعة!

هل هو نفس النهر؟ وهل يمكن أن يتغير بهذه السرعة؟

قال الكثيرون: إنه الخير،ونظروا إلى السماء بفرح. ومازح الكبار الصغار،ثم مضوا!

وإذا كانت الأسئلة بالنسبة للصغار،أغلب الأحيان،حسيّة،تتعلق بما حولهم من أشياء وحالات،فإن سؤال النهر كان أكبر الأسئلة وأخطرها.

قالت الجدة،حين سئلت كيف أصبح النهر هكذا:

ـ زودة.. وهاي مو شي.. لاتخافوا...

ابتسمت وهي تنظر إلى النهر وإلى الوجوه أمامها وتابعت:

ـ باچر أو اللي عقبه تشوفون دجلة وتقولون اللهم صل على محمد...

وبعد قليل كأنها تستدرك :

ـ هالكبر بالصيف،أما إذا فاض يغرق بغداد،وأنتم عندكم جبال تحميكم،أما بغداد فما لها إلا الله يحميها!

وظل السؤال الوحيد في المدرسة طوال ذلك اليوم سؤال النهر. كيف كان من قبل. وكيف أصبح في هذا اليوم عندما رأوه في الصباح،وكيف سيكون حين ينصرفون.

استمر المطر،واستمر الفرح. وحين نظر الصغار إلى النهر من جديد كان لايزال يهرول وقد حمل معه أخشاباً وجذوع أشجار،وكانت هذه علامات تحدد سرعته.

وحين سأل الصغار الكبار،وكان في الصوت شيء من نزق:

ـ قولوا خير.

واستمر المطر ماتبقى من اليوم وطوال الليل.

في الصباح الباكر تفقد الرجال الأسطحة وجنبات البيوت،وأمعنوا النظر في السماء،وتشمموا رائحة الهواء،ثم مضوا.

وفي الصباح نظر الصغار إلى النهر،الذي ازداد عرضه عن اليوم السابق،وازدادت حمرة مياهه،وقبل أن يسألوا قالت الجدة:

ـ زودة ماتخوّف،وإذا صحت مثل ما جّت تروح!

في الليل،ومع استمرار المطر،تبادلت العيون النظرات،وكانت لاتخلو من قلق. قالت الجدة،وقد ظنت أن الصغار ناموا:

ـ لازم نحضر مواعين خاف السقف يخرّ.

لما استمر المطر لليوم الثالث قال الكبار لبعضهم،وبهمس:

ـ حدّت.

كلمة جديدة لم يسمعها الصغار من قبل،ولايعرفون لها معنى واضحاً أو محدداً،وحين أرادوا أن يفاجئوا زملاءهم في المدرسة بهذه الكلمة الجديدة،اكتشفوا أنهم قد سمعوا بها مثلهم،لكن اختلفوا حول معناها!

وفي اليوم الثالث تخلف عدد من التلاميذ،خاصة أولئك الذين يسكنون حول السوق،وأولئك الذين يسكنون في الضفة الأخرى من المدينة.

قال المدير الذي مرّ على الصفوف،وكان واضح القلق:

- راح نعطل غداً إذا استمر المطر... ولكي يكون واضحاً أضاف بلهجة جديدة:

- المطر عطل الكثيرين عن المجيء،ويمكن "يقطع" غيرهم،فظلوا في البيوت إلى أن يتحسن الطقس.

شاب الفرح بالعطلة نوع من الخوف،خاصة حين طُلب من التلاميذ أن يغادروا المدرسة قبل نهاية الدوام. قال الأستاذ مولود محذراً:

- انتبهوا في العودة: ابتعدوا عن السيول وعن السلاسل،وامشوا جماعة،حتى إذا صار شيء يمكن أن تساعدوا بعضكم.

دفع حب الاستطلاع الذين شاهدوا النهر من جبل عمان فقط أن يروه من اماكن اخرى! ورغم أن الجميع يعرفون أن في عمان نهراً واحداً،فقد شهد الذين أخذوا طريق السوق شيئاً عجيباً: كانت هناك أنهار عديدة،أو بالتحديد كان يجري نهر في كل منحدر. فالطريق النازل من جبل عمان،والذي عُبّد في وقت مبكر،وكانت مياه الشتاء تطفو على وجهه كلوح من البلور،إذ تُحسّ ولاترى،أصبح مجنوناً وهو يستقبل مياه الجبل،ثم المياه الساقطة نحوه من نزلة الجفة،ثم من درج القيادة. أما حين يلتقي مع المياه المتدفقة من جهة وادي السير فيصبح نهراً حقيقياً يملأ الشارع كله. كانت المياه عكرة،سريعة،وبعد ان تقطع المسافة لتصل إلى التقاطع مع طريق السلط،ويكون قد جاء من هناك نهر آخر،ربما أكبر من هذا النهر،فعندئذٍ لايمكن الاستمرار في السير أو الخوض في المياه. فإذا تم الوصول إلى مكتبة الصفدي،مقابل البريد،فلابد من اختيار احد طريقين: إما تسلق الدرج،رغم المياه المتدفقة،أو المجازفة قليلاً والوصول إلى طلعة العموري،والاتجاه نحو الجبل.

حين وصل التلاميذ،بعد مشقة كبيرة،إلى جبل عمان،واجهوا أنهاراً أخرى: النهر النازل من جهة مدرسة المطران،إذ رغم الخندق إلى جانب الشارع،والذي يفترض أن يستوعب مياه الأمطار،فقد تجاوزت هذه المياه الخندق،وطغت على الشارع كله،بحيث جعلها الانحدار تتدفق بقوة تعيق امكانية الاختراق،خاصة عندما يلتف الشارع،بعد ان خلّف بيت سعيد المفتي وراءه،ووصل إلى بيت شعبان،الذي كان في مواجهة المياه،رغم الاحتياطات الكثيرة التي هيئت سلفاً. أما إذا التف النهر،مرة أخرى،ليصل إلى الزاوية التي على طرفها بيت صبري الطباع،ويلتقي هناك بالمياه الآتية من شارع خرفان،ومن درج أبو جابر،ثم لتجري

كلها،وتنحدر كلها،إلى نزلة الحمام،فعندئذ يصبح الشعور بالخوف قوياً طاغياً،ويصبح الوصول إلى البيت أمنية أقوى من أية رغبة للاكتشاف أو معرفة مسارات الأنهار الأخرى التي تتدفق من كل مكان!

قالت الجدّة التي رأت البلل ورأت الأحذية التي تلفت:

ـ عبالك بزازين دربونة،شلون تنقعتوا هالشكل.. وقفتم تحت المزريب؟

وبدأ: الجلوس إلى جانب النار،تغيير الملابس،تنشيف الشعر،إيقاف الأحذية بشكل عمودي إلى جانب الحائط،وغير بعيد عن النار،وأخيراً شوربة العدس تقدّم للمكتشفين الضالين الذين لم يتوصلوا إلا إلى اتلاف ملابسهم وأحذيتهم،وأصبحوا معرضين،بنفس الوقت،للمرض،نتيجة الرطوبة التي انغرست في العظام.

الكبار عادوا مبكرين في هذا اليوم،لأن لديهم مايفعلونه في البيوت أكثر وأهم مما يفعلونه في أماكن أخرى. فالدلف الذي بدأ في الليلة الفائتة،وكانت مواعين الجدة كافية للتعامل معه،أصبح يتطلب في المرحلة الجديدة اجراءات جديدة لمواجهته،ولمواجهة احتمالاته المتزايدة والخطرة،وهذا يقتضي نقل جزء من الأثاث،وترتيب مكان ملائم للنوم أقل خطورة،ومعالجة المزاريب والأسطحة والميول لعل الماء لايتوقف ولايهدد.

في مثل هذه الحالة يعمل الكبار بصمت،أو بأقل قدر من الكلمات،وحين يضطرون للكلام فإنهم يصدرون الأوامر،يصرخون،يحاولون أن يعطوا المثل أكثر مما يريدون أن يعلّموا. والصغار الذين يحاولون أن يكونوا مفيدين لايعرفون هذه اللغة الجديدة،ولايعرفون كيف يتصرفون. أما الجدة التي تراقب،وتقترح بعض الأحيان،أكثر مما تستطيع أن تفعل أو أن تشارك،فتكون مهمتها حماية الصغار،تجنيبهم المهمات الصعبة أو الثقيلة،حتى إذا أخذت الأمور صيغة قد تكون مقبولة،ولايمكن أن يقال مرضية،وبعد أن يتم تناول العشاء في وقت مبكر،وغالباً في جو من الصمت والحذر،كانت الجدة تبتعد قليلاً،ساحبة معها الصغار،لتبدأ بعد ذلك أحاديثها،وعادة تكون هذه الأحاديث لها علاقة بما يجري،لتعزيز القدرة والثقة بالنفس،وفي محاولة لتبديد الخوف... أو لترسيخه!

روت الجدة تلك الليلة:

«يقولون،والعهدّة على من قال،ولكن أريدكم بمفتاح الكلام تقولون ألف صلاة على النبي المصطفى المختار،محمد...

تتوقف،تمهل الصغار أن يرددوا ماطلبت منهم،ثم تتابع:

«يقولون.. قبل مايصير الطوفان،قال ربنا سبحانه وتعالى لنوح: ابنِ سفينة يا نوح،ابنيها زين وبالعجل. رد نوح: ياربي أنا قاعد هنانا ومسرتاح، قعدتي زينة بالفي والمي، وين تريد تهجولني. وين تريد مني اروح؟ قال له ربنا: أقول لك ابن سفينة يانوح ولاتخالف أمري، أسمعت؟ رد نوح وقال: أمرك ياربي. قال له الله: اترك كل شيء وانجُ بروحك،خلّص حياتك،لأن قومك فسدوا وأنا غضبت عليهم،واحمل في السفينة بذرة كل حياة. قال نوح: امرك ياربي. قال له سبحانه وتعالى: لازم تكون السفينة قوية ولازم يكون طولها مثل عرضها،وقال له: قيّرها زين يانوح،تسمعني؟ رد عليه نوح: راح اسوي مثل ماأمرتني ياربي،بس شاقول لأهل المدينة،للناس،لجماعتي؟ قال له الله: قلهم ماقدر أعيش في مدينتكم بعد اليوم لأنكم كفرتم وصرتم موخوش أوادم.

« عمل نوح مثل ماقال له ربه. جهز السفينة،وقيرها زين،وحط فيها المرادي والمونة،وقبل مايركب ويشيل قال لروحه: لازم نودع الجماعة. ذبح وعزم الناس،عزمهم كلهم،وبعد ماأكلوا وشبعوا،ومسحوا السمن بلحاهم،وحانت الساعة،قال نوح لجماعته،أنا مفارقكم ياجماعة،مسلم عليكم وفي أمان الله.

«ركب نوح بالسفينة وشال وياه أهله وقرابته والمخلوقات اللي وصاه الله بيها،وركّب اللي عاونوه. ولما جاء الليل قفل السفينة ونام.

«بالليل أرسل سبحانه وتعالى الرياح،شلون رياح،تشلع النخل وتهز الجبل،وبعد الرياح جّت البروق والرعود،طول الليل هالشكل،وفي اليوم التالي صارت الدنيا ظلمة،صارت سودا والريح تزمر والرعد والبرق يملا الدنيا كلها. وبعدها جاء المطر. كانت الدنيا سودا مثل الليل،أكثر من الليل،وصار الواحد مايقدر يشوف أخوه، مايقدر يشوف اصبعه،وانفتحت أبواب السماء،أي نعم،انفتحت أبواب السماء،وهات يامطر،وهات ياروج. وشلون مطر؟ مثل القرب مثل المزاريب،وصارت المي تنزل من السماء وتنبع من القاع،حتى من التنور نبعت المي،والريح تدفع المي،والمي تروج وتموج،والناس تبكي، تلطم، تصيح، وصارت المي ترتفع وترتفع،غطت القاع كلها،ووصلت للأشجار،غطت البيوت،وغرقت الزروع والضروع،وغرقت الناس،حتى الناس غرقوا،ماتوا. حتى الملائكة بالسماء وهم يشوفون هذي الشوفة انكسرت قلوبهم،صاروا يبكون ويلطمون ويقولون انهجمت الدنيا،صارت طين،رجعت من جديد كلها طين».

تستريح الجدة قليلاً، تتطلع إلى العيون التي تتابعها، تأخذ نفساً عميقاً ثم تتابع:

« ويقولون إن الله سبحانه وتعال بكى بعد ما شاف شنو اللي صار بالدنيا ،وسأل روحه: يستاهلون أو مايستاهلون؟

« ظل الطوفان،مثل مايقولون ستة أيام وست ليالي،والزوابع والأمطار تنزل من السماء وتنبع من القاع،ويقولون ظلت الزوابع والأمطار أربعين يوماً.

« في اليوم السابع،أو في اليوم الواحد والأربعين،مايندرى،خفّت الزوابع وخفت الأمطار. باوع سيدنا نوح من الشباك شاف الشمس. سجد وقال: كفى ياربي. قال هذه الكلمات وهو يرجف،وبعدها صار يبكي ونزلت دموعه على وجهه ولحيته. لما سبحانه وتعالى شاف نوح مقهور،ودموعه تنزل على لحيته وصدره، قال : مايخالف،وهذا يكفي» تهز الجدة رأسها عدة مرات،وكان الحزن قد بلغ منها مبلغاً قوياً،فتتابع بنبرة جديدة:

« لما قال سبحانه وتعالى: يازي،كافي،كل شيء توقف بقدرة رب العالمين: الريح والرعد والمطر،حتى سفينة نوح وقفت. وقفت براس الجبل. وظل نوح،عليه السلام،محصور بالسفينة ما يدري شنو يسوي وشنو المطلوب. يوم،اثنين،ثلاثة.. لاصوت ولاخبر،والمايات داير مندارة. قال نوح لروحه: شلون بلوى هذي،شلون طرقاعة،لاظليت مع جماعتي على القاع ولاوصلت لعند ربي في السماء. حار،خاف. حتى السفينة صارت مثل الصخرة لاتتحرك لا لقدام ولا لورا.

«في الليل،في المنام،جاء طيف لنوح وقال له فد شي. وثاني يوم،وكان اليوم السابع،ويقولون اليوم الواحد والأربعين،طلّع نوح حمامة من السفينة وطيّرها. قال لها: روحي،يابنت الحلال،شوفي اكو بني أدمين هنا.. هنا. اكو شجرة أو عرق أخضر. طارت الحمامة،غابت مشوار ورجعت. قالت: كل شيء ماكو.

«ثاني يوم طيّر سيدنا نوح خطاف. قال له: انت طير الربيع والبشاير،روح،يرحم والديك،شوف اكو حوالينا انس أو جان. طار الخطاف،غاب مشوار ورجع. قال لنوح: سيدي،تعيش،مالقيت شي.

«اليوم اللي عقبه طيّر نوح غراب. قال له: انت،ياغراب البين،روح وشوف،والخبر اللي تجيبه موافقين عليه. طار الغراب وغاب. ونوح وجماعته ينتظرون. هسّا يجي،بعد شوي يجي،لكن ابد،ملح وذاب ابن الحرام،مارجع ولا رد خبر. هز نوح،عليه ألف صلاة وسلام،رأسه وقال لروحه: هالابن

الحرام،الغراب،وأنا أعرفه زين،لو لم يلق شي كان رجع،وكان نعيبه ملا الدنيا،لكنه وكّر على فد شي. نزل على القاع ولازم ننزل.

«لكن قبل ماينزل ويتورط نادى الحمامة،وقال لها: تعالي يابنت الحلال،أنت حنونة وما تكذبين،فاريد منك تروحين وتجيني بالخبر اليقين،مو مثل الغراب الملعون،راح وما رد،وما ندري شنو الصاير بالدنيا. أخذت الحمامة لسيدنا نوح تمني،وقالت: أمرك. طارت،غابت. ونبي الله نوح وجماعته ينتظرون. والله مامرت ساعة إلا والحمامة جاية وبحلقها غصن أخضر. حطت ورمت الغصن،وقالت لسيدنا نوح: هذا النيشان!

«فرح عليه ألف صلاة وسلام ونزل من السفينة،ونزّل جماعته،وبقدرة قادر يبست القاع تحت رجليه. وبدأ هو وجماعته يزرعون ويفلحون، وعادت الحياة لهذي الدنيا، ونحن، ياأولاد،أولاد آدم ونوح. وبهذا الشكل خلص الطوفان وخلصت سالفته».

وحين تطلعت إليها العيون تطلب المزيد،قالت الجدة:

ـ قال نوح للناس: اذكروا هذي الأيام،وابد لاتنسوها» .

ولم ينسَ الناس،ليس لأنهم حفظوا دروس التاريخ فقط،وإنما لأنهم عاشوا تجارب مريرة،وعانوا من مصائب القحط،كما عانوا من مصائب الفيضان في سنين سابقة.

ليس ذلك فقط، فالأمطار لاتزال تنهمر بغزارة،والغيوم الثقيلة تملأ السماء. وإذا كان الرجال ظلوا متماسكين، أقرب إلى الصمت، فإن وجوه النساء أخذت تفضح مافي العقول والقلوب. كما أن الحركات الكثيرة القلقة،والغضب المفاجئ الذي ينصب على رؤوس الصغار حين يسألون،حين يضحكون،لم تترك فرصة للشك أن الأمر وصل إلى درجة الخطر.

في اليوم الخامس،عند الفجر،سمعت أصوات استغاثة. كانت أصوات مبهمة كأنها أصوات حيوانات جريحة،تشق الظلمة. والجدة التي كانت تحرص،في الأحوال العادية،على أن يبقى الصغار نائمين،هي التي أيقظتهم في هذا الفجر. قالت وهي تحاول مساعدتهم على ارتداء ملابسهم:

ـ ارادة الله ولا أحد يقدر يرد ارادته.

وبعد قليل:

ـ الطف بعبادك ياأرحم الراحمين.

لاأحد يعرف ماذا يجب أن يُفعل، لكن الأصوات التي كانت بعيدة أول الأمر، أخذت تقترب، ومع اقترابها أصبحت أكثر وضوحاً وهي تطلب المساعدة، لأن بعض البيوت تهدم، وطغت المياه على السوق التجاري، وبدأت تجرف معها أي شيء تصادفه.

كان الطبل الذي تعود عليه الناس أيام رمضان، طبل الشيخ عمر، لايتوقف عن الدق، كما ارتفعت الأصوات من المآذن، ولم تتأخر أجراس الكنائس، فقد سمعت في وقت مبكر ذلك الصباح.

وإذا كان الناس قد استيقظوا فزعين،وأحسوا بالخطر، إلا أنهم ظلوا حائرين، إلى أن جاءهم صوت أبو رحمة،منادي عمان الأعمى، يطلب المساعدة في أماكن محددة،خاصة في حي المهاجرين، وكان يشير إلى أسماء وحالات بعينها.

خلال فترة قصيرة، وعلى ضوء الفوانيس التي بدأت تخرج من هنا وهناك،وكانت لاتقوى على تبديد الظلمة الحالكة،كان الرجال والفتيان،وحتى الأطفال الذين شعروا أنهم أصبحوا كباراً،يخرجون للمساعدة. ومثلما يفعل الكثيرون في حالات المرض، إذ يهبون ويندفعون لتقديم شيء ما حتى ولو لم يطلب منهم،ودون انتظار لشكرٍ أو رد، فإنهم يفعلون الأمر ذاته في ساعات الخطر.

مشاهد لايمكن أن تنسى،وتضحيات لايقدم عليها إلا الشجعان. كان الناس يندفعون بقوة،دون تقدير للأخطار والجهد،من أجل انقاذ الناس الذين تهدمت أجزاء من بيوتهم،إلى مساعدتهم،إلى نقلهم لأماكن أكثر أمناً. فإذا انتهوا من هذه المهمات المتعلقة بالبشر التفتوا لمساعدة أصحاب المتاجر باخراج بضائعهم،بوضع أكياس أمام المحلات، بانقاذ بعض الحاجات القيمة كالأموال أو الدفاتر.

كانت الساحة بدءاً من الجامع الحسيني الكبير وحتى مسافة أبعد من سوق الخضار،عبارة عن بحيرة،ولأن طاقة النهر على التصريف أصبحت محدودة وتتراجع كل لحظة، فقد طغت المياه على المتاجر وأغرقتها.

كانت المحاولات لاتتوقف من أجل انقاذ مايمكن انقاذه،وكانت البضائع السليمة ونصف التالفة تنقل من المتاجر،إذ تحمل إلى بيوت أصحابها أو إلى بيوت الأقارب في الأماكن المرتفعة. أما تلك التي لم يعد يرجى منها أية فائدة فكانت تترك في أماكنها،أو تلقى بعصبية وحزن في مجرى المياه المتدفقة،كان ذلك يجري وسط الصراخ وتدخُّلات الكثيرين،وقد تسببت بعض الحالات بخصومات كثيرة أو قليلة،في ذات الوقت أو في أوقات لاحقة.

أبو ابراهيم الصبيحي،الذي كان يحرص على تحديد كل شيء بوضوح:

الأجرة،وعدد الحملات،قبل أن يحرك حميره،وكان يفعل ذلك وهو يردد كلماته برخاوة،ويخطط على الأرض بعصاه،خاصة حين يبدو السعر الذي يطلبه كبيراً،كان يقول: «أوله شرط آخرته سلامة،وبعدَه كل شيء بأرضه: بضاعتكم عندكم،ودوابي بمربطها،إذا عجبكم أنا جاهز،وإذا ماعجبكم مافي أكثر من الحمير في البلد،فدوروا على غيري» ... ابو ابراهيم الذي كان يردد ذلك،كان أول الذين تقدموا للمساعدة،نقل أحمالاً كثيرة من السوق،وقيل أنه تردد،وهناك من يؤكد أنه رفض تلقي أي مقابل على مانقله.

وكان مثل الصبيحي كثيرون. فالطنابر،والسيارات،وحتى الجمال،جيء بها من أماكن كثيرة لتشارك في نقل مايمكن نقله،رغم أن الجمال تسببت بأخطاء كثيرة نتيجة خوفها من الماء،ونتيجة قسوة الذين يقودونها.

لم يبق أحد في اليوم الأول،ثم في الأيام التالية،إلا وقدم مساعدة من نوع ما. حتى أم علي الشرشوحة،لم تهدأ ولم تتوقف لحظة واحدة،وقيل أنها كانت تقوم بأعمال كثيرة وبصمت،ويؤكد الكثيرون أنها مرضت نتيجة البرد والارهاق ونتيجة عدم الكلام،واستمرت بعد ذلك،في دارها أربعين يوماً متواصلة،ولم يفطن للأمر حتى الجيران،بل وقيل،نظراً لغيابها الطويل،إنها ماتت،لكن هذه الاشاعة لم تستمر طويلاً!

ومثلما كانت ترتفع الأدعية والتضرعات ايام الجفاف لكي يبعث الله المطر،أخذت ترتفع أدعية أكثر منها،وكان يشوبها الخوف والرجاء والحزن،أن يوقف الله هذا العذاب،أن ينجي عبيده من الأخطار التي أصبحت تطوقهم وتطبق عليهم من كل ناحية.

كانت الجدة تقف تحت المطر،وقد أزاحت عباءتها عن راسها،رافعة يديها الاثنتين إلى السماء،وهي تقول:

ـ يارب،يا رحيم،ياقادر ياكريم،ياغفور يامستجيب الدعاء ارحمنا وخلصنا من هذا العذاب والبلاء...

تجر نفساً عميقاً وهي تثني رأسها إلى الخلف،وتترك قطرات المطر تبلل وجهها وتتابع:

ـ اكو ظلم هوايه بهذي الدنيا ياربي،لكن شنو ذنب البريئ والفقير والصغير؟

وتفطن لنفسها،تحس أن مثل هذا الكلام لايحق لها أن توجهه إلى الله،أو لايحق لها أن تقوله الآن،يتغير صوتها فيصبح أقرب إلى التوسل:

ـ لك عليّ ياربي أن أصوم كل اثنين وخميس،ومن الحول للحول،ولك عليّ ماأقطع صلاة،بس ييزي مطر،كافي عذاب،بجاه الصغار والحلابات وكل من قال لاإله إلا الله.

وكما فعلت الجدة فعل الكثيرون مع نذور بالزكاة وحج بيت الله الحرام،إذا تلطف الله بعباده وأوقف المطر.

في وقت من الأوقات توقف المطر!

بدت عمان،بعد هذه الأيام،رخوة،مليئة بالندوب،أقرب إلى الهشاشة،حتى تكاد تشبه رغيفاً نقع في الماء،أو ثوباً غارقاً في الوحل. بيوت عديدة تهدمت،أسواق بكاملها غرقت،سلاسل أكثر البيوت انهارت أو تصدعت،والمياه تملأ كل مكان. حتى تجاويف الصخور في الأمكنة العالية،والبعيدة عن المطر،امتلأت بالمياه. أما النهر الذي كان مجنوناً طوال الأيام الماضية فلم يتنازل عن جنونه بسهولة،إذ ظلت مياهه حمراء طينية،وظل مجراه عريضاً،خاصة وأن البساتين،على الضفتين،أصبحت جزءاً منه،بعد أن غرقت بالكامل.

خرجت الزفرات من أعماق الصدور حين ظهرت الشمس. أما حين أخذت الغيوم تتمزق وتتفرق،وبانت فجوات واسعة من السماء،فقد بدت الزرقة أكثر لمعاناً وأكثر تألقاً،مثلما يبدو الزجاج بعد أن يُنظّف،أو مثلما تبدو الأشجار بعد أن يغسلها المطر.

صرخت الجدة بغضب،وهي تؤنب الصغار،وكانوا يحزرون على أشكال الغيوم،ما إذا كانت أغناماً أو ثيراناً تركض في السماء. قالت وهي تأمرهم بالسكوت:

ـ انشبّوا،اكلوا هوا واسكتوا،خلونا بهمنا ودردنا...

وبعد قليل،وقد أصبح صوتها أقل حدة:

ـ كل اللي صار بينا من كفر الناس،من معاصيهم...

هزت رأسها عدة مرات وأضافت:

ـ رب العالمين ماعنده حجارة يضرب بيها الناس،لكن يعرف شلون يطلعّ حيفه.

في اليوم التالي،وحين تأكدت النسوة أن الشمس ثابتة،غير مخادعة،خرجت

البيوت إلى خارجها. الفرش والأغطية والبسط،وكل مايمكن اخراجه إلى الشمس،خرج. فالأشياء التي لم تتعرض للبلل مباشرة لحقتها الرطوبة الشديدة،والتي كانت بعيدة عن الرطوبة أصابتها البرودة،ولذلك بدت عمان،رغم الحزن والقتام،ملونة،وكانت تنظر إلى الأيام الآتية أكثر مما تريد أن تدفن نفسها تحت ركام الأيام الصعبة التي كانت.

راضي أبو الشوارب،الذي يصاب بالسبات طوال أيام الشتاء،رافضاً أي عرض للعمل،باعتباره «معلم اسمنت» كما كان يقول،«وانه ليس من جماعة الدبش والطين» ،لتبرير الكسل،بحجة أن «الاسمنت،ياجماعة الخير،مثل البارود،في الشتاء يبرّد،والبناء،خاصة الصبّة،في الربيع بتروح مؤبد،بتروح مواتي،أما في ايام الشتاء فتصير مثل الغريّبة» .

راضي الذي كان هكذا في السنوات الماضية،لم يتأخر لكي يكون من أوائل البناءين لاعادة ترميم البيوت والسقوف،ليس بالاسمنت،وإنما بالطين والحجر،أكثر من ذلك كان مستعداً لبناء السلاسل،وقد برع فيها أكثر من بناءين آخرين،خاصة وهو يحكم الزوايا،ويتحكم بالميول،ويتولى بنفسه تثبيت الأبواب.

وأبو حاتم الطيان،في شارع المصاروة،وكان يفضل أن يكون عمله مقصوراً على الطراشة،شوهد فوق معظم أسطحة بيوت الحي،وهو يعيد ترميمها. كان يخمّر الطين بنفسه،وكان يستعمل قدميه الحافيتين من أجل مزج التراب بالتبن،دون الاستعانة بأي عامل في المرحلة الأولى،ثم بواحد فقط لكي يصلح ماأفسده المطر.

وابو تيسير الطيان،في شارع خرفان،مع اثنين من أولاده،كان لايتردد في أن يواصل العمل ليلاً على ضوء الفوانيس «لأن إذا ماخلصنا اليوم راح يتأخر الشغل لأسبوع أو لاثنين،لأني مواعد جماعة غيركم في الأيام الجاية،ومثل مابتعرفوا،ياجماعة الخير،وعد الحر دين».

وغير هؤلاء كثيرون،وفي مجالات شتى،اندفعوا للعمل،للمساعدة،لاصلاح أو لازالة ماخلفته الأمطار. فالتجار الذين اقتحمت المياه دكاكينهم،لم يعيدوا البضائع التي استطاعوا نقلها،أو تلك الجديدة التي أوصوا عليها،إلا بعد أن بنى كل واحد منهم مدماكاً جديداً امام دكانه. كان البناء لايتوقف،والاحتياطات تزداد،خاصة بعد أن اعترف الكثيرون بالأخطاء والنواقص،والتي تسببت بالأضرار!

حتى المدرسة العبدلية لم تنج من آثار الفيضان. فالباب الخلفي الذي اكتسب أرضية ثابتة،نتيجة انزلاق التلاميذ عليها خلال فترة طويلة سابقة،وجدتها المياه

طريقاً سهلاً،ولذلك اندفعت نحوها بقوة فغيّرت معالمها،مما تطلب وقتاً طويلاً لكي يعود هذا «الباب» للاستعمال مرة أخرى!

كما وجدت في الساحة الجنوبية كمية من الأحجار المتساقطة،الصغيرة والكبيرة،وكأن قوة خارقة وضعتها في تلك الأمكنة حيث يصطف التلاميذ!

هذا عدا عن الوحل الذي ملأ الساحات كلها. أما الدلف فقد لحق بعدة صفوف،بما فيها غرفة المدير،مما جعل التلاميذ،خلال يومين متواليين،يشتركون في إزالة الحجارة،وكنس الأسطحة،وفي إعادة الأمور إلى ماكانت عليه.

أما القصص التي أخذت تتردد في المدرسة عن «الطوفان» ،وكيف عاشه كل تلميذ،فإنها أقرب إلى الخيال،وقد برع في رواية الكثير منها تلاميذ السوق،فالقصة ذاتها يكون لها أكثر من بطل وأكثر من راوٍ،كما كانت الحادثة ذاتها تنتقل من مكان إلى آخر! لكن بمرور الأيام أخذت هذه القصص تتراجع إلى أن تلاشت!

الصغار الذين ضيّق عليهم الشتاء فلم يعودوا قادرين على اللعب في الخارج إلا لفترات محدودة،بدأوا «يخترعون» ألعاباً جديدة،ومن جملة ما اخترعوا قراءة الغيوم. كانوا يطيلون النظر إلى هذه الغيوم ويتحزرون حول أشكالها. والجدة التي كانت تتظاهر أنها لاتسمع ولاترى،لاتستطيع أن تستمر في السكوت،خاصة إذا زاد الأمر عن حد معين. كانت تقول بحدة:

ـ قراءة النجوم وقراءة الغيوم شغل السحارين،وهذا أول الكفر...

تهز رأسها بحزن وتضيف:

ـ وشفتم بعيونكم شنو سوى رب العالمين بالناس...

وبعد قليل وبصوت مختلف:

ـ هذا الطوفان اللي صار علامة على اقتراب الساعة. رب العالمين قال للناس: اليوم غريق،لكن باكر حريق جهنم... إلا إذا صرتم خوش أوادم ...

وتختم كلامها بحرقة:

ـ ولِدي اقروا دروسكم،وحطوا عقولكم بروسكم حتى الله يرحمنا!

تتتابع الأيام،وينقضي شتاء تلك السنة،وتظل عمان تتذكر،لكن لاتتوقف عن انتظار الأيام الآتية!

١٠

الأرض، هذه الأم، التي بللها المطر،وجللها الصمت والسكون خلال الفترة الطويلة السابقة،لم تعد قادرة على البقاء هكذا حين جاء آذار.

فجأة بدأت تتململ،ثم راحت تهذي. كان هذيانها نشيداً مجنوناً يعلن ولادة جديدة. فأشجار اللوز،وقد كانت أقرب إلى الحطب الذي نُسي تكسيره خلال فصل الشتاء كله،دبت فيها الحياة بنشوة جارحة،واكتست خلال ايام قليلة غلالة بيضاء زاهية. والبستان الذي كان يرى من بدايته إلى أقصاه أيام الشتاء، تحول فجأة إلى غابة يعجز النظر عن اختراق أكثر من بضع شجرات.

حتى أم خليل،في نهاية شارع خرفان،التي ظلت تتلطى وراء تنكات الزريعة في الأيام السابقة،لم تعد تحتاج الى الحيطة بعد أن دبت الحياة في شجرة التين المزروعة في نهاية البيت،ثم حين مدت الدالية أغصانها،اذ أصبحت هذه المرأة مضطرة لأن تمدّ رقبتها وجذعها لكي تراقب الطريق وحماتها،وأيضاً عبد الرؤوف منكو.

كانت أم خليل تقضي وقتاً طويلاً في الشرفة،رغم البرد. تتابع كل شيء بنفسها،اذ لاتحب أن تترك أي شيء للصدفة أو لأن يخبرها به الآخرون. خاصة وان حماتها،أم احمد،تسكن تحت الشرفة مباشرة،على طرف الطريق،وكانت لها علاقات ودية بجميع أهالي الحيّ،فما أن يمر أحد في الشارع،سواء بادرها بالسلام أو تلكأ قليلاً،حتى تمطره بالتحيات الحارة والود وتدعو له بطول العمر،وكان هذا يأكل قلب أم خليل،ويجعلها تحس بالغيظ والحسد.

أما عبد الرؤوف منكو،فبعد أن تعب لعدم وجود«مقر» لجريدته غير الدورية «على هامان يا فرعون» استأجر الغرفة المجاورة لأم احمد. وبمرور الوقت توطدت الصداقة بين الإثنين،وكانت تجري بينهما أحاديث طويلة،الأمر الذي زاد في نكد أم خليل،وندمت لأنها وافقت أبا خليل لتأجير الغرفة لهذا «العواطلي» كما أصبحت

تطلق على عبد الرؤوف،لعدم قناعتها بالعمل الذي يقوم به،ولأنه،وهذا هو الأهم،يكن وداً حقيقياً لأم أحمد.

في وقت ما من الضحى،وبعد أن ينجز عبد الرؤوف بعض المواد التي يحضرها للعدد الجديد من الجريدة،وتكون أم احمد قد «درجت» سيجارتين بعناية،وهيأت القهوة،تدعو عبد الرؤوف. كان يستجيب،أغلب الأحيان،لهذه الدعوة،خاصة وان «القفلات» التي يريدها أو يبحث عنها لخبر أو تعليق تستعصي عليه،أو لايقدر على تدوينها،نتيجة الرقابة التي تمارس عليه من أكثر من جهة،ولذلك كان يلتمس أو يتوقع أن يجد في كلام المسنين ما يساعده على الوصول الى مايريد. وهكذا يبدأ بالأسئلة والحديث،فاذا انتهت السيجارة الأولى،ولكي يستمر بالصفاء ذاته،يسحب من باكيت «النجاح» الذي يحمله سيجارة ويعزم على أم أحمد فتوافق بتردد،أما حين تسعل،ويقول لها عبد الرؤوف «صحة وعوافي» فيهبط عليها من فوق صوت أم خليل :

– مية مرة قلنا: سكاير اللف دخانها بيخنق!

فترد عليها أم أحمد،بعد أن تجر نفساً عميقاً:

– لفّيها ياحرمة وروحي لشغلك!

في بداية الربيع تخرج أم أحمد الى الفلا،كما تسمي الرصيف،مجموعة من الكراسي الواطئة المصنوعة من القش،لاستضافة أي زوار محتملين. ورغم أن هذا يطمئن أم خليل،اذ يتيح لها أن تسمع كل شيئ بوضوح،إلا انها لاتتخلى عن النكد،فما أن يقوم عبد الرؤوف بزيارته اليومية،وهذه المرة في الهواء الطلق،على الرصيف،ويبدأ بالحديث مع أم أحمد،حتى تعتبر أن صوته عال أكثر مما تحتمل،ولابد أن تشير الى ذلك وتعلّم على حماتها،اذ تستدير نحو بيت كاظم سنجر القريب وتصرخ:

– وطوا صوت الراديو ياجماعة مغّرب.

تقول الكلمة الأخيرة بطريقة توحي بوضوح انها تعني غيرهم،وتعني جهة أخرى!

ترد أم أحمد،وتتظاهر بأنها تخاطب عبد الرؤوف:

– الصيف حلو ياعبد الرؤوف،لكن غبايْره كثيرة!

ويأتي صوت أم خليل من فوق،وهذه المرة موجه الى أم أحمد مباشرة:

– بعده الصيف مابلّش ياعمتي،بعدنا بآذار،ولّسه ورانا نيسان اللي شتواته تحيي الانسان وبتطلع للعجوز سنان!

ترفع أم أحمد رأسها الى الأعلى وتقول متوعدة:

– بيجي ابو خليل ونتفاهم!

وتوافق أم أحمد على تناول سيجارة جديدة من عبد الرؤوف،ويتابعان الحديث،لكن هذه المرة بصوت منخفض،لكي يفوتا على أم خليل مايدور بينهما!

أم أحمد هي أم شارع خرفان،ان لم يكن بالدم فبالرسوخ والقدم. كانت أكبر معمرة في عمان تلك الفترة. هكذا يقول الجميع،لكن الكثيرين يختلفون حول عمرها،منهم من يقول أن عمرها تجاوز المائة والعشرين سنة،ومنهم من يعطي لها عمراً أقل او أكثر. أما حين تسألها فتجيب:

– والله يا ابني العلم عند علام الغيوب،لكن اذا ماكذبني ربي فوق المية!

فاذا أحست أن أم خليل تسمع وتراقب فتضيف وهي تضحك:

– ومثل ماأنتم شايفين: بعدني قوية وصحتي عال العال!

وبعد قليل تضيف بسخرية:

– والأعمار،أولها وأخرها،بيد الله!

تتلفت ثم تتابع بمودة:

– عليكم بالزيت،الزيت،أي نعم،هو اللي يطّول الأعمار!

وبعد قليل تستدرك:

– أي نعم الزيت والريحة الطيبة.

وتطبطب على نبتة الريحان الصغيرة أمامها،فتنبعث الرائحة الزكية. ويفهم كلامها على اكثر من وجه،وربما بأكثر من معنى،خاصة لمن يعرف شيئاً عن الخلافات بين الكنة والحماة. فأم أحمد التي تجاوزت المائة نبتت لها أسنان جديدة،وظلت بقواها وذاكرتها،في الوقت الذي تبدو زوجة ابنها،أم خليل،متهدمة،اضافة الى ذاكرة مشوشة. هذا عدا عن علاقة الناس بالمرأتين. ففي الوقت الذي تحظى أم أحمد بالحب والرعاية من الكثيرين،وتتبادل معهم الأحاديث والعلاقات،ويخدمها الصغار أيضاً،فان أم خليل «نحسة» كما تصفها الجدة

«ووجهها يقطع الرزق» كما تقول عنها أم تيسير الطيان،اذ تميل الى المشاجرة والصراخ على الأطفال،خاصة حين يتجمعون حول أم أحمد.

قد يكون هذا جزءاً من تاريخ عمان المنسي،ربما علق صدفة بذاكرة بعض الأطفال،لكن الشيء المؤكد أن فرحاً حقيقياً يسيطر على الحي،ويمتد الى أحياء أخرى كثيرة،اذا جاء الربيع،لأن أم أحمد على قناعة ان الشمس،مثل الزيت،مثل الرائحة الطيبة،تطيل العمر. فاذا تراجع البرد ودب الدفء بالعود كما تقول ،تدب فيها الحياة من جديد،وتتأكد أن الموت ابتعد عنها سنة أخرى ،ولذلك كان فرحها يعدي الآخرين وينتقل اليهم.

ولأن أم أحمد تسكن غير بعيد عن بيت الشيخ حافظ،فان من يأتيها ببشرى ازهار الشجرة العجيبة تقّبله من عينيه،وتعطيه كمشة من قضامة على سكر،وتدعو له،بصوت عال،وهي ترفع يديها الى السماء،تدعو الله أن يعطيه عمراً أطول من عمرها.

شجرة الشيخ حافظ المطعمة أول شجرة تزهر في عمان،هكذا يقولون. واذا اتفق الكثيرون على هذه الواقعة،فانهم يختلفون في تفسيرها. الذين يؤمنون بقدرات الشيخ يعتبرون ان احدى البركات التي خصّه الله بها أن تتبارك الأشياء عنده،وأن تظهر وتعبر عن نفسها بطريقة خاصة. آخرون يعتبرون أن الرعاية التي يوليها الشيخ لشجرته،اضافة الى السماد والسقاية،تجعلها تختلف عن الأشجار الأخرى. غيرهم يقول إن الحجب التي يكتبها الشيخ،وقبل أن تُعطى لأصحابها،تعلق على الشجرة،لذلك فإن الشجرة تمتص فائدتها كلها،أو جزءاً منها،وهذا مايفسر أن بعض هذه الحجب « برّد» ،ولم يؤد إلى نتائج مشجعة بالنسبة لمن كتبت لهم!

الأكثر معرفة،والذين لايؤمنون بالتفسيرات الغيبية،لديهم تعليل بسيط لإزهار هذه الشجرة قبل غيرها: فالشجرة مزروعة في مكان منخفض،والأسوار تحيط بها من جميع الجهات تقريباً،إضافة إلى قرب الطابون،والذي يشع دفئاً طوال أيام الأسبوع،الأمر الذي يجعل التربة والهواء حولها دافئين،مما يساعدها على أن تزهر قبل أشجار أخرى غيرها.

الذين يقدمون هذا التفسير ليسوا دائماً من خصوم الشيخ أو الذين يكرهونه،ولاثبات حسن النية،وصحة مايقولون،يذكرون أنهم شاهدوا أشجاراً مزهرة هنا وهناك في نفس الوقت الذي أزهرت فيه شجرة الشيخ!

ماتكاد البشائر تصل إلى أم أحمد حتى تنقل تنكات الريحان،التي ظلت في

الشباك طوال الفترة السابقة إلى الخارج،كما تضع مجموعة الكراسي على الرصيف إيذاناً بأن الربيع قد بدأ!

وخلال فترة قصيرة تصبح عمان مدينة أخرى،مدينة يعجب لتغيرها حتى المقيمون فيها. ففي أيام قليلة تتبارى الأشجار في أيها يزهر قبل الآخر،أكثر من الآخر. كما تتفجر الأرض بنباتات وأشكال والوان يحار من يراها أين كانت،أو كيف استطاعت أن تتحمل هذا الصمت وهذا الغياب،دون اشارة احتجاج أكثر من ذلك،عمان التي كانت تنطوي على نفسها،وتطل إلى الداخل،تتحول فجأة إلى حالة من العنفوان،فتضج بالحياة والصخب،كأنها تريد أن تخرج من نفسها!

تقول الجدة التي ترى الصخب حولها:

- بني آدم اكاّل نكاّر،ولاكأن ذيك المصايب كلها مرت!

ولأن لا أحد يعتبر ماتقوله يعينه أو يحتاج إلى رد،تتابع الجدة،وكأنها تخاطب نفسها:

- الله،سبحانه وتعالى،خلق الانسان وعلّمه النسيان،ولولا أن البني آدم ينسى كان مات من القهر.

لذلك لاتتردد الجدة في الموافقة على أن تكون جزءاً من السيران.

وأهل عمان يتذكرون وينسون بنفس الوقت وبنفس المقدار،ولذلك لايكافئون أنفسهم حين يأتي الربيع إلا بمقادير بسيطة وبالتدريج. فحين يبدأون مشاويرهم لاكتشاف الربيع يفعلون ذلك بكثير من الحرص.

يبدأ أهل جبل عمان مشاويرهم بالحاووز الصغير،وفي محاولة لاقناع أنفسهم أن هذا المقدار يكفيهم،يطيلون النظر إلى بستان يعقوب السلطي،ويتوقفون عند بيت أبي محمود الدرة،الذي كان منزلاً ومعملاً للسجاير،ثم يلتفون حوله ليصلوا إلى الحاووز الصغير،مقابل بيت العدوان. وهناك كانوا يقضون وقتاً ممتعاً،إذ يصنعون الشاي والقهوة،ويضيفون بعضهم،في الوقت الذي يلعب الأطفال،وقد تجري أيضاً،مباراة بكرة القدم.

والصغار الذين يكونون عادة شديدي التطلب،ولايكتفون بالقليل،فإن المشوار الأول،وإلى هذا المكان بالذات،يجعلهم في حالة من النشوة والرضا،خاصة وأنهم أخذوا يكتشفون اشياء كثيرة حولهم،يكتشفون ألواناً لم يروها من قبل،أو رأوها ثم غابت فترة طويلة،وهاهم يرونها من جديد. ويكتشفون أعداداً من الحشرات المختلفة

الألوان،وقد خرجت كلها،لايعرف من أين،وأخذت تدب أو تطير هنا وهناك،كما أن الدفء ورائحة الأرض،وهذه الجدة في نسق الحياة،يجعلهم لايعرفون ما يريدون،وبالتالي أكثر قبولاً بما حصلوا عليه.

ويوماً بعد آخر،ومع زيادة الدفء،تطول المشاوير وتأخذ محاور كثيرة. فتلاميذ العبدلية الذين كانوا يفضلون أقصر الطرق من أجل الوصول،أخذوا يختارون،لاشعورياً،طرقاً أخرى،طويلة في الغالب،وفي تلك الطرق يكتشفون: الشُعب التي تصلح للمغيطات أكثر من غيرها،الأماكن التي توجد فيها العصافير أكثر من غيرها،البساتين التي يمكن أن تكون هدفاً للغزو،النباتات الجديدة التي تخرجها الأرض وقد تصلح للأكل أو للعب،وكثيراً ماتسببت هذه الأخيرة باشكالات،وربما "معارك"،كأن يضع الواحد في ظهر أحد زملائه،تحت القميص،"قمح الشيطان"،وهو نبات له شكل السنبلة الفارغة،ما إن يصل إلى الظهر،ومن خلال الحركة،حتى ينزلق إلى أسفل مسبباً الحكة والازعاج.. ثم الاحراج!

والكبار الذين يعتبرون يوم الجمعة وحده وقتاً مناسباً للسيران،ويهيؤون لذلك،كانوا في بعض الأيام الأخرى،عند العصاري،لايترددون في أن يقوموا بمشاوير قد تقودهم إلى الحاووز الكبير أو إلى بستان ابو شام

كان طريق مدرسة المطران يحفل باعداد كبيرة من المتنزهين،وكان عدد النساء والأطفال يزيد كثيراً عن عدد الرجال. وفي هذه المشاوير التي تأخذ صفة الاكتشاف لتحديد واختيار المكان المناسب ليوم الجمعة،كثيراً ما بدات فيها أولى قصص الغرام،أو توثقت علاقات كانت قد بدأت في صيف سابق،ثم جاء الشتاء الطويل ليمنع أو يباعد بين الذين افترضوا أنهم عشاق،وأنهم يحبون بعضهم إلى درجة لايطيقون الفراق!

في هذه المشاوير،بالاضافة إلى مهرجان الطبيعة،كانت ملابس الفتيات مهرجاناً آخر،بألوانها،بجمالها. إذ كثيراً ماأعدت الملابس الجديدة لمثل هذه المشاوير،خاصة وأنه لم يكن في عمان،تلك الفترة،أماكن أو مجالات للقاء.

كانت لوسي،وأمها،وهما تتمشيان يومياً بعد العصر وعند الغروب،على طريق المطران،تجعل الفتيان يختارون هذا الطريق! وربما لايوجد شاب في تلك الفترة إلا وأحب لوسي،أو على الأقل مال إليها،لكن حركة الأم،وهي تمشي ببطء،وكأنها البطة،إلى جانب لوسي او خلفها بقليل لاتمكن اي فتى من الاقتراب او التجرؤ على

قول كلمة .كانت ام لوسي حارساً كفؤاً شديد الانتباه،وكانت مستعدة للتدخل في الوقت المناسب.

ولأن الكثيرين أحبوا لوسي،أو ادعّوا ذلك،ولأن لوسي لم تحس بهم،أو لم تبادلهم الحب،فقد أصبح البيت التالي يردد إذا جاء ذكر الموضوع:

كل يّدعي وصلاً بلوسي   ولوسي لا تقرّ لهم بذاكا

وكان بعضهم يضيف إلى البيت السابق كلمة «أم» لكي يبرر عدم وصوله،وبالتالي هزيمته في هذه المعركة!

بالاضافة إلى طريق المطران،كان هناك الطريق الموازي للسوق، لشارعي فيصل ووادي السير،وقد أطلقت عليه الجدة: «الطريق الطويل» لتميزه عن غيره،مع أنه لم يكن طويلاً،لكن شعورها أنه لايشبه الشوارع الأخرى،إذ يخيم عليه الصمت،ويخلو من الأطفال،كما تقوم على جانبه الأيسر بيوت بعض رؤساء الوزارات،إذ كان يسكن فيه أبو الهدى وابراهيم هاشم،هذه الأسباب،ربما جعلته بنظر الجدة يبدو هكذا!

إذا كان دافع الكثيرين للتمشي في هذا الشارع،خلال فترة معينة،الرياضة ومراقبة السوق،فإن السينما الصيفية التي افتتحت باسم سينما الامارة،وتقع عند تلاقي شوارع فيصل والسلط ووادي السير،وتُشاهد من الطريق الطويل،كانت سبباً في تفضيل عدد متزايد لهذا الشارع،إذ كانوا يأتون بالعشرات،يفترشون الأرض،ويأخذون بمتابعة وقائع الفيلم المعروض،مع أن الصوت لايصل! يظلون كذلك،لايغادرون المكان،إلى أن ينتهي الفيلم. ومع أن كل واحد من المشاهدين يرى الفيلم بالطريقة التي تروق له،ويضع على السنة الممثلين الحوار الذي يفترضه أكثر ملاءمة،وكان هذا مثاراً للخلافات والمناقشات بين هؤلاء في ذات المكان،فإن خلافات أخرى كانت تثور بين الذين شاهدوا الفيلم من الطريق الطويل،وأولئك الذين دفعوا مقابل الصوت والصورة،وكانوا داخل السينما!

ظلت السينما سبباً في شعبية هذا الطريق وكثرة المترددين عليه،إلى أن قررت إدارة السينما وقف المشاهدة المجانية،إذ وضعت ساتراً من القماش المقوى ليحجب ليس فقط الصوت،بل والصورة أيضاً،الأمر الذي خلق أسى في قلوب الكثيرين! وقيل في ذلك الوقت أن دافع هذا الاجراء لم يكن مادياً،وإنما تم اتخاذه بناء لرغبة سعاد أبو الهدى،لأن الضجيج الذي كان يسببه متفرجو الشارع يفسد عليها لحظات التأمل!

يصبح الحاووز الكبير،والمنطقة المحيطة،مع تقدم أيام الربيع وزيادة الدفء،أمكنة مرغوبة أكثر من غيرها،لأن البرد الذي كان يستشعره الكثيرون في الأيام الأولى من نيسان،والذي يأتي من جهة وادي السير،أخذ يتراجع لتهب نسمات رقيقة منعشة.

في المساحة بين الحاووز وبستان أبو شام تبدأ البرية،فقد كان هذا البستان،بالقرب من الدوار الأول،يحدد المدينة من ناحية الغرب،فما عدا بيت الجيوسي ذو الشرفة الدائرية،كانت الارض خلاء،ولاتقوم فيها إلا أبنية قديمة متناثرة. هناك،أيام الجمع،كان ينتشر الناس،من الضحى إلى الغروب،وهناك يأكلون ويشربون ويطربون. كان الفتيان،مدفوعين بالجرأة ورغبة الاكتشاف،يتوغلون في الحقول التي تبدأ بعد بستان أبو شام مباشرة. وآخرون يأخذون السفوح الجنوبية. فإذا رجع الذين توغلوا في الحقول مذهولين بما صادفوه من طيور الفري،التي كانت تقفز من بين أرجلهم،وبحصيلة بائسة لاتتعدى أن يصاد أحد هذه الطيور صدفة،وبرمية حجر،فإن الذين أخذوا السفوح الجنوبية يعودون محملين بخيرات الطبيعة،لأن هذه السفوح حجيرة،لاتزرع،لذلك يكثر فيها النبات بأشكال وطعوم عديدة تفوق الوصف،كما يُجني منها الكثير،والحصيلة تتوقف على المعرفة،إذ يعود من هم أكثر خبرة من غيرهم بنباتات لذيذة الطعم،يؤكل بعضها مباشرة،ويؤكل الآخر بعد أن يطهى.

كانت عمان،في بعض عصاري الربيع،تنتقل كلها الى البرية،إلى قرب الحاووز،إلى رأس العين،إلى جبل القلعة. وكان الذين يسكنون القسم الشرقي من المدينة يفضلون بساتين المحطة إلى جانب النهر. حتى الذين يؤثرون المشاوير القصيرة أو البقاء بالقرب من البيوت،كانوا يتناولون طعام يوم الجمعة في الخلاء،لأن المساحات الربيعية الواسعة،والينابيع الكثيرة في السفوح،كانت على أطراف الأحياء أو غير بعيدة عنها.

الذين اختاروا رأس العين مكاناً للنزهة،وبعد أن يقضوا نهاراً ممتعاً،عليهم أن يلزموا الحذر الشديد في العودة،خاصة وهم يجتازون الشارع بالقرب من جامع رويزق،لأن أية تصرفات أو مظاهر لا تروق للشيخ،أو يعتبرها منافية للدين،لابد أن تؤدي إلى الرجم.

فالشيخ رويزق،بالمكان العالي الذي اتخذه مقاماً،كان يشرف على الشارع الموازي للنهر،وكان يعتبر نفسه قيّماً على الأخلاق والسلوك والمظاهر،فما يكاد يرى نساء مكشوفات الرؤوس،أو يرى مجموعة من الفتيان تنقر على الدريكات

والدفوف،حتى تنهال حجارته،ويكون قد أعدها لهذا الغرض. الفتيان والشبان الذين وقعوا ضحية هذه الحجارة في وقت سابق،أو عرفوا طبائع الشيخ،يكونون قد أعدوا لهذه المعركة ما يلزمها. فما أن يمروا من هناك حتى تعلوا طبولهم وأصواتهم المستفزة،وخلال فترة قصيرة تبدأ "المراجدة"،إذ تتطاير الحجارة،خاصة وأن الشبان قد اختاروا حجارة مناسبة انتقوها من جوانب السيل. لكن الشيخ رويزق،بما له من مهابة ومهارة وحنكة،إضافة إلى الخبرة الطويلة،وأيضاً بحكم الموقع الحصين الذي يحتله على قمة الرابية،لايسمح لنفسه أن ينهزم. قد يتوارى قليلاً،قد يبطئ،لكن حجارته وشتائمه تظل تطارد العصاة والفاسقين حتى بعد أن يبتعد موكبهم كثيراً!

كان بعض متنزهي رأس العين يفضلون أن يجتازوا النهر إلى الضفة الأخرى،سالكين طريق المهاجرين،وآخرون يفضلون أن يغادروا قبل أو بعد موكب "العصاة والفاسقين" ،وعلى شكل مجموعات صغيرة تلتزم الصمت أثناء العبور تحت جامع رويزق،وتلتزم أيضاً أقصى يمين الشارع،لكي لايحس بها الشيخ،أو لايستطيع أن يمطرها «ببركاته» !

حين قيل للجدة أثناء إحدى النزهات لرأس العين ضرورة المغادرة المبكرة اتقاء لغضب الشيخ رويزق،وبعد أن استفسرت من يكون،ولماذا يتصرف هكذا،ردت بسخرية:

ـ هذا بعد العايزنا ... مابقي إلا المخابيل.

وبعد قليل وهي تتذكر:

ـ إذا كان العباس راسه حار ويشوّر،ومايصطبر على أحد،فبركاته عمت الدنيا كلها،ماخلى مظلوم إلا ووقف بصفه،وماخلى ظالم إلا وانتقم منه،فهذا صاحبكم،رزوقي،المخبل،وين بركاته؟ شنو اللي سواه للفقراء والمساكين والمظلومين؟

حين ردوا عليها أن الشيخ رويزق لايحسن في الدنيا أكثر من رمي الحجارة،وان صوته،وهو يؤذن،غير شجي،سألت بسخرية:

ـ وهذا يابا .. من شيّخه؟ منو سواه شيخ؟

وحين لم يرد على سؤالها تابعت:

ـ هذول،شيوخ القشمرة،أكثر منهم ماكو،لكن الحق موعليهم،على الناس. لو كان الناس عقّال ويفتهمون كان هذول ماصاروا.

وآثرت الجدة أن تعبر النهر،إلى الضفة الثانية،رغم الصعوبة،على أن تمر من طريق رزوقي المخبل،كما أصبحت تسمي الشيخ رويزق!

ولما اقترح على الجدة مرة أخرى أن يكون السيران إلى جبل القلعة تساءلت:

ـ مو ذاك اللي رحنا يمه قبل سنتين،أبو المغارة والحجارة؟

ولما كان الرد بالايجاب قالت:

ـ يابا بكيفكم،آني ماعليّ،بس بذيك القاع العفرة والتفرة وين اكو ونسة؟

وحين قيل لها أن تلك الزيارة كانت لقبر الفقير،وكانت أواخر الصيف،وأن القلعة في الربيع شيء مختلف،قالت بنوع من التسليم:

ـ اني ماأدري،وهذي عمانكم وأنتم اعرف!

القلعة في الربيع،في السنوات المطيرة،شيء عجب. فالزهور التي تتفجر من كل مكان،بألوانها،وبالشذى الذي يملأ الفضاء،تدفع الانسان للتساؤل: أين كانت تختبئ هذه الأسرار؟ كيف استطاعت أن تحمي نفسها وتتواصل طوال ذلك الزمن؟

حين وصلت الجدة إلى هناك فوجئت،ظنت أنها أُخذت إلى مكان آخر،سألت:

ـ يابا .. هذا نفس المكان اللي أخذتونا عليه حتى "عباسكم" يطيِّب ابنا؟

وأكدوا لها أنه نفس المكان،قالت وهي ترفع راسها للسماء:

ـ سبحانه أبو الخيمة الزرقا،قادر على كل شيء!

ومثل القلعة كل الأماكن الأخرى. فالربيع في السنوات الخيِّرة،يُشعر الانسان بالضآلة إزاء الطبيعة،وماتستطيعه أو ماتعبر عنه. فحدائق البيوت،وغالباً لاتُولى إلا أقل الرعاية،تصبح عنواناً للجمال الصارخ. فكم بيت من بيوت الفقراء لايلفت النظر،يتكشف عن أزهار وورود لايقوى على ترتيبها إلا فنان بارع. وكم من شجرة بدت ثقيلة زائدة خلال الشتاء أصبحت ملء العيون والقلوب في الربيع. حتى أسطحة البيوت،بالعشب الغض الذي ينبت عليها،بالأزهار الصغيرة التي ترفع برؤوسها في بداية الربيع،تجعل الانسان مدهوشاً،لأن هذه البذور والجذور احتملت الشتاء كله،ببرده وصقيعه،واحتملت قسوة الانسان والحجر،ثم واصلت الحياة لتتفجر بمثل هذه الروعة؟

إذا نظر الانسان إلى عمان في أواخر أيام الربيع،وقد غطت الدوالي الكثير

من البيوت،وكانت،نتيجة التضاريس،تبدو متدرجة،متلاحقة،كأن غيمات خضراً حطت فجأة من السماء،فغطت قساوة الحجر الذي كان،وحده،يبدو أكثر الأشياء وضوحاً خلال فصل الشتاء،يتساءل بدهشة: أين اختبأ هذا النسغ طوال أيام الشتاء؟ كيف استطاع أن يقاوم ويستمر؟ ثم كيف تغيب أسرار الحياة التي تكتنز بكل هذه القوة والخصوبة؟

في سنة الطوفان،وربما بعدها بسنة أو سنتين،حين زارت الجدة الرصيفة والزرقاء،قالت بعد العودة،وكانت تعيد ترتيب عباءتها الجديدة،عباءة الخطار،والتي تصر على ارتدائها حين تخرج،أياً كان المكان الذي تذهب إليه،لكي لايقال عنها محتاجة أو فقيرة،قالت الجدة،وكانت تتذكر وكانت أقرب إلى الدهشة:

ـ ماأعرف وين كنا،بيا ديرة،لكن،والشهادة لله،المكان أبد مايفرق عن سلمان باك وبعقوبة.

وبعد قليل:

ـ سبحانه،مايترك أحد من رحمته!

وحين طال السهر،وظل الحديث يدور حول الرصيفة والزرقاء،تساءلت الجدة:

ـ اشو بهذه الديرة مايزرعون تمر وبرتقال ... شنو ماعندهم؟

وبعد قليل وكأنها تجيب نفسها:

ـ تظل بغداد .. بغداد.

تنفست ثم أضافت:

ـ بمثل هذي الأيام ريحة القداح بالخالص ترد القلب،تخلي البني آدم يحس روحه بالجنة!

وإذا كانت الجدة قد رأت جانباً من الرصيفة والزرقاء،فإن الصغار رأوا جوانب كثيرة ويتذكرون هذه الزيارة وغيرها من الزيارات.

فبعد عين غزال تبدأ البساتين الواسعة والأشجار المثمرة.

أما الزرقاء،وكانت لاتتجاوز عشرات البيوت،فإن زيارتها بالربيع لاتُنسى. كان يتطلب الوصول من القرية إلى قصر شبيب وقتاً طويلاً،فقد كان القصر بعيداً منعزلاً،وكان الوصول إليه يمثل نصف الطريق إلى نهر الزرقاء.

وتصميم الزرقاء،تلك الفترة،يشبه نيويورك وبعض المدن الأميركية (!) من حيث إن الشوارع تتعامد وتتقاطع بخطوط مستقيمة. سكة الحديد،من ناحية الجنوب،أقصى مكان يمكن أن يصله الانسان،لأن خلفها مباشرة معسكر قوات البادية،بأشجار الصنوبر والأسلاك الشائكة تحيط به. على مسافة من السكة تبدأ القرية،وهي مجموعة من البيوت على شكل مربعات ومستطيلات،كأبنية وشوارع. معظم سكانها من المزارعين والعاملين في المعسكر أو سكة الحديد. هل كان عددهم ألف؟ قد يكون هذا العدد غير دقيق،إذ ربما يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً،لكنه بحدود هذا الرقم. الشيشان والشركس أكثر السكان القدامى،ثم الذين جاؤوا مع المعسكر،وقبلهم الذين رافقوا السكة منذ بداية انشائها.

نهر الزرقاء يفوق نهر عمان من حيث الاتساع والغزارة والصفاء،وبالتالي الروعة.

السمك في هذا النهر أمواج وراء أمواج. قد يكون صغيراً،لكن الكبير ليس قليلاً. وفي محاولة لأن يتحول الصيادون الصغار إلى صيادين كبار كانوا يستعملون في الصيد أنواعاً مخففة من الديناميت،كانوا يستعملون الكلس الحيّ. فما أن تلقى الزجاجة الحاوية على هذا الكلس وتنفجر حتى تطفو على سطح الماء فروخ السمك الصغير. كانت الجدة حين ترى هذا المنظر تصاب بالغضب والفزع معاً:

ـ نزول عليكم،ظلاّم،ما عتدكم رحم ...

وحين تهدأ قليلاً:

ـ مايسوي هيچ سوايات إلا كل ظالم اللي ماكو رحمة بقلبه ...

تهز رأسها عدة مرات بأسف وتضيف مخاطبة نفسها:

ـ حرام .. ماتنوكل ،صغيّرة،لو خلاّها هذول الظلاّم كانت صارت أكل لفقير أو لمسكين.

وفي الليل يشعر الصغار بالندم،لأن تلك الأسماك رميت،أو تركت تمضي مع التيار،بعد أن فقدت الحياة!

وإذا كان الربيع بالنسبة للصغار اكتشافاً ولعباً،فإنه للكبار حياة جديدة،لأن خيرات الأرض تصبح غذاء يومياً،ولأن أسعار الكثير من الأغذية تميل إلى الانخفاض. كما أن الخروج الى البرية ليس مرحاً كله،إذ كثيراً ماأستغلت مثل هذه

المشــاوير لجـمـع أنواع من النبـاتـات البـرية لكي تؤكل،أو لاســتـعـمـالهـا في العلاج وكانت تتبدى براعة بعض النسوة في جعل الصغار يقومون بجمعها على أنها جزء من اللعب والرياضة،لقاء جوائز رمزية تعطى لمن يجمع أكبر كمية منها!

وخلال هذه الفترة تزداد زيارة القرويات إلى المدينة،وهن يحملن كميات كبيرة من النباتات التي لايقوى الصغار على جمعها،وكن يبعنها بـأسعار مناسبة،إذا لم يقل رخيصة. فالعكوب يباع بالشوالات الصغيرة. والبابونج يُعطى على البيعة! وكان الكما رخيصاً،وكذلك الفقع،وعشرات النباتات الأخرى التي تعرفها المدينة أو لاتعرفها. وكانت بعض القرويات يصلن المدينة ومعهن عدد من الماعز يبعن حليبها،إذ تحلب أمام المشتري. كما أن الكثيرين يوصون على الزبدة والسمن وبعض المشتقات الأخرى. وفي حالات عديدة تتم الموافقة على البيع والشراء مقايضة،وكان البائعون والمشترون لايشعرون بالغبن،لأن مايتم التنازل عنه في هذه البيعة يمكن تعويضه بأخرى،خاصة وأن علاقات وثيقة تقوم بين الطرفين.

إن عمليات البيع والشراء خلال فصل الربيع،رغم أنها صغيرة،وأغلب الأحيان فردية،إلا أنها تخلق شعوراً بالرضى،وتجعل الكثيرين ينسون مصاعب أيام الشتاء التي مرت،وهذا مايدفعهم إلى إظهار الكرم دون خوف،والتصرف بحرية أكثر أثناء عمليات الشراء والتبادل.

ولأن الناس فقراء أو أقرب إلى الفقر،وأيضاً لخوفهم من الأيام الآتية،خاصة وان ذكرى الأيام التي مرت لم تغب من الذاكرة،فإنهم يحاولون إلى أقصى حد استغلال نباتات الموسم،ولكن في الوقت المناسب الفول،مثلاً،لايُشترى في بداية نزوله،إذ يكون مرتفع السعر،وحين يمر بائع الفول على حماره تحت شرفة أم خليل،وهو ينادي وينغّم من أجل الاغراء والتحريض على الشراء،تسأله أم خليل عن السعر،وقبل أن يجيب،أو أثناء إجابته،تقول أم أحمد لقطع الطريق على أي تفكير بالشراء:

ـ بعده قشر ومايناكل.

فترد أم خليل قبل أن تقدر ماإذا كان السعر كثيراً أو قليلاً:

ـ طبيعي مابيقدر عليه إلا اللي عنده سنان.

فتقول أم أحمد،وهي ترفع وجهها الى فوق،لكي تبين أسنان الحليب التي نبتت لها من جديد:

- هذا الفول بعده صغير وبده سنان حليب،مابده سنان ذيب!

وتضيف وهي تضحك مخاطبة البائع:

- أمشِ ياابن الحلال،روح تسبب،لأن هذي ماهي شرايّة!

ما ان يمر اسبوع أو اثنان حتى تصبح عمان من اقصاها إلى أقصاها لاتأكل سوى الفول،وقد يصادف أن يؤكل كل يوم،مع تنويع في طريقة الطبخ أو التسميات!

الجدة التي ضافت أقرباء في الزرقاء،وكانت ربة البيت تطبخ الفول يومياً طوال أسبوع،وبعد أن أثنت الجدة على مذاق الطعام في اليوم الأول والثاني،وحين رأت ربة البيت تهيّىء الفول لليوم الثالث،سألت:

- شنو .. أم عبدالله ،بهاي الديرة ماتطلع غير الباجلا؟

وبعد ان استفسرت أم عبدالله عن معنى الباجلا،ردت بحماس:

- كل شي بيطلع عندنا .. ياحجة.

وأخذت تعدد النباتات والخضروات الموجودة،فقالت الجدة:

- ماشاء الله . ماشاء الله،عندكم مخضرات هواية ياأم عبدالله ...

هزت أم عبدالله رأسها موافقة،فسالتها الجدة:

- اشو ماتاكلون منها؟

أدركت ام عبدالله ماتقصد إليه الجدة،رتبت على فخذها،وقالت وهي تضحك:

- خلينا نشبع فول،أول مرة ،ياعمتي!

حين جاءوا "ليستردوا" الجدة،وقد كان مقرراً أن يبقوا معها يوماً أو يومين،قبل أن يعودوا إلى عمان،وشوشتهم الجدة،وكانت أم عبدالله تهيّىء الشاي في المطبخ:

- خلونا نمشي بالعجل،عيني،لأن قلبي ساف من الباجلا،وبطني صار قبض!

حاولت أم عبدالله أن يبقى الضيوف فترة أطول،وحين بدوا محرجين لايستطيعون الموافقة بسهولة،ويصعب عليهم الرفض أيضاً،قالت أم عبدالله:

- شورنا عند كبيرنا،فاللي تقوله عمتي هو اللي يصير.

قالت الجدة،وهي تحاول أن تنتقي كلماتها:

- عيني أم عبدالله .. آني هواية تونست،ونسة موشلون ماكان ...

وبعد قليل وبطريقة لاتخلو من حرج:

- لكن نريد نرفع الزحمة،واريد أبدل هدومي،فراح نترخص ونمشي.

وبطريق العودة ،وفي البيت،كانت الجدة تسأل أو تتساءل:

- شلون قهر من الله .. كل يوم نفس الزقوم ...

وبعد قليل،وبسخرية:

- كل يوم فول. يوم رز بفول. يوم فول بزيت،يوم برغل بفول .. وبعد شنو؟

وظل الصغار،ولفترة طويلة،يمازحون الجدة،فيرددون بصوت عال،وبطريقة غنائية:

- رز بفول،فول بزيت،فولية .. فولية!

حين تكون أمطار الشتاء وفيرة،وتبشر بموسم جيد،فإن تصرفات الناس تتسم بالشجاعة والثقة بالنفس،ويكونون أكثر استعداداً للمرح. ورغم أن الكثيرين لايعملون بالزراعة بشكل مباشر،إلا أن علاقتهم بالزرع والمطر وثيقة إلى اقصى حد،لأن سنة الخير تعمّ الجميع،ولأن سنة المحل لا تترك أحداً إلا وتمسه بمقدار.

وأمطار الشتاء التي يستبشر بها الفلاحون،ويعتبرونها الخميرة الأساسية،إلا أن شتوات آذار ونيسان ضرورية وينتظرها الناس بلهفة. وفي محاولة لاسترضاء الطبيعة تجري بعض الطقوس التي تعبر عن الكرم من ناحية،وربما لها علاقة بأساطير أبعد. يتجلى ذلك بذبح أعداد من خراف الربيع،وفي تقديم النذور وصيام بعض الأيام،إضافة إلى إخراج الخيول من اسطبلاتها واستعراضها.

كان ملعب كوبان،وملعب المحطة،وحتى ملعب الحاووز الصغير،مضامير للخيل تجري فيها السباقات أو الاستعراض. وبمقدار مايبرع الشركس في هذه السباقات،خاصة وهم يرتدون أزياءهم الوطنية،ويقيمون الاحتفالات،فإن خيول البدو تظهر خلال هذه الفترة،وتعامل بالكثير من الحفاوة والاهتمام.

وفي هذه الفترة،اكثر من فترات اخرى،كان الكثيرون يشاهدون الأمير طلال،عند الغروب،عائداً على الحصان من مشواره اليومي. وكان يشاهد أيضاً الشريف زيد في بعض الأحيان،أو يشاهد رزيق يروض خيول الشريف. اما جويبر

الذي يظل غائباً خلال فصل الشتاء مع خيول القصر،فإنه يعود حين يعتدل الطقس إلى عمان ويميل إلى الدفء. وكان عدد من هذه الخيول يستعرض في شارع خرفان،بالقرب من بيت جويبر،إذ يشاهد جويبر في المقدمة ووراءه بعض الفرسان. حين تعرف أم أحمد بعودة جويبر،وتسمع الضجة تقترب،تقول:

- اللي طوّل الغيبات يرجع بالغنايم ...

وبعد قليل تسأل الذين حولها:

- ياهل ترى .. الكبير لازم يسلم على الصغير أم العكس؟

ولأن السؤال بديهي،ولايحتاج إلى إجابة،وكان ينتقل بسرعة،فإن إجابته تكون مباشرة وعملية، فما أن ينتهي جويبر من الاطمئنان على الخيل حتى يبادر لزيارة أم أحمد. كان يفعل ذلك حتى قبل أن يرى أهله.

كان الكثيرون يتجمعون حول أم أحمد وجويبر وعبد الرؤوف منكو،وكان ينزل أبو خليل من الشرفة،ليشارك في الجلوس على كراسي الرصيف التي فردتها أمه،وتكون قد فردت لنفسها بساطاً تفترشه وتستند إلى الجدار. في هذا اللقاء الذي لايدوم طويلاً،يتحدث الجميع في وقت واحد،ويعم الفرح والهرج في نفس الوقت،لكن يظل صوت أم أحمد هو الغالب!

أم خليل التي تتابع من الشرفة،وقد امتلأت غيظاً،لأن لاأحد يتذكرها أو يسأل عنها،لابد أن تفعل شيئاً لكي تلفت النظر إليها. كانت بعض الأحيان تنادي على أبي خليل،وحين لا يسمعها،أو لايلتفت إليها،تكلف عدداً من الصغار لكي ينبهوه. والصغار الذين يستجيبون،بعض الأحيان،لطلبها،وبعد عدة تنبيهات،يضطر أبو خليل لأن يرفع رأسه،وبيديه الاثنتين يستفسر عما تريد،فتسأله:

- اسوي لكم شاي؟

- شو؟

فيعلو صراخها:

- اسوي لكم شاي؟ قهوة؟

كانت بهذا الصراخ تريد أن تعرّض بحماتها التي "اخذتها" السوالف ولم تقم بواجب الضيافة. وحين يسأل أبو خليل جويبر ما إذا يفضل الشاي أم القهوة، يكون السؤال ايذاناً بانتهاء الزيارة،إذ يعتذر جويبر مع الوعد بزيارات كثيرة قادمة.

ما إن ينفض الجمع،حتى تأخذ أم أحمد نفساً عميقاً،وتقول مخاطبة بعض الذين بقوا حولها:

- إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب!

ولايفهم إلا القليلون من تعني أو لماذا قالت هذه الجملة!

إذا جاءت شتوة أو اثنتان في نيسان تزداد ثقة الناس،خاصة أن الكثيرين يعرضون أجسادهم ورؤوسهم لهذه الشتوات،لأنها تنفض البدن وتقويه وتجعله أكثر جمالاً. وفي هذه الأثناء تفتح الأمهات عيونهن أكثر من قبل لاكتشاف الفتيات اللواتي كبرن في غفلة عنهن! وتبدأ كل أم باجراء تقديرات ومقارنات بين واحدة وأخرى، من حيث الجمال والصحة،اضافة الى الحسب والنسب،في محاولة لاعتبار واحدة،وربما أكثر،ملاءمة لابنها،فيما إذا انتهى الموسم كما تتمناه!

بعد أن ينقضي القسم الأكبر من شهر أيار،يبدأ الخوف من الشوبة،ويظل هذا الخوف قائماً ومستمراً إلى أن تنضج حبات الشعير،ثم بعدها حبات القمح،ويحل وقت الحصاد.

والحصاد في عمان،رغم التعب،احتفال كبير.

ما إن ينفض الجمع،حتى تأخذ أم أحمد نفساً عميقاً،وتقول مخاطبة بعض الذين بقوا حولها:

- إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب!

ولايفهم إلا القليلون من تعني أو لماذا قالت هذه الجملة!

إذا جاءت شتوة أو اثنتان في نيسان تزداد ثقة الناس،خاصة أن الكثيرين يعرضون أجسادهم ورؤوسهم لهذه الشتوات،لأنها تنفض البدن وتقويه وتجعله أكثر جمالاً. وفي هذه الأثناء تفتح الأمهات عيونهن أكثر من قبل لاكتشاف الفتيات اللواتي كبرن في غفلة عنهن! وتبدأ كل أم باجراء تقديرات ومقارنات بين واحدة وأخرى، من حيث الجمال والصحة،اضافة الى الحسب والنسب،في محاولة لاعتبار واحدة،وربما أكثر،ملاءمة لابنها،فيما إذا انتهى الموسم كما تتمناه!

بعد أن ينقضي القسم الأكبر من شهر أيار،يبدأ الخوف من الشوبة،ويظل هذا الخوف قائماً ومستمراً إلى أن تنضج حبات الشعير،ثم بعدها حبات القمح،ويحل وقت الحصاد.

والحصاد في عمان،رغم التعب،احتفال كبير.

١١

الصيف في عمان شاسع ومديد،ويبدأ قبل الصيف بفترة طويلة!

فما يكاد الدفء يسري في جسد الأرض،ويوقظ الأشجار،ويحرك الكائنات التي نامت منذ أمد بعيد،حتى يحس الانسان نفسه أنه جزء من هذه الأرض والكائنات،وأنه مرتبط بهذه الحركة،فينفض بقايا الشتاء عن روحه،وينطلق بقوة ليلتحم ويتفاعل مع الطبيعة حوله،بحركتها وسرعتها ومزاجها.

ولعلّ أبرز مظاهر الصيف،وربما أولها،في عمان الأربعينات ـ وبالتأكيد قبل هذا التاريخ طبعاً ـ عربات الشركس. فالعجلة التي كانت أحد أهم مراحل التطور في حياة الانسان القديم،إذ نقلته من وضع الى وضع أكثر رقياً،ماثلتها العربة التي جاء بها الشركس في رحلتهم التاريخية إلى المنطقة،إذ لعبت أيضاً دوراً مشابهاً في تطوير ونقل المجتمع. صحيح أن الحيوانات كانت تقوم بدور أساسي في نقل المحاصيل والمسافرين في أوقات سابقة،إلا أن وضع العربات التي تجرها الأبقار والثيران في حيز الاستخدام الواسع والكفؤ،وما يتطلبه ذلك من شق الطرقات،وإيجاد بعض الصناعات المرافقة،جعل التطور أكثر سرعة وأكثر فاعلية.

كانت عربات الشركس عنواناً وتلخيصاً لحالة عمان بكاملها خلال تلك الفترة. فبعد أن تقوم هذه العربات،في أواخر الخريف،بنقل البذار إلى الحقول،تدخل كلها أو أكثرها في سبات طويل،تغيب،وكأنها أحيلت إلى التقاعد،خاصة حين تُركن الى زوايا الحواكير،بأغصانها القديمة،اليابسة،حتى يظن من يراها أنها لم تعد صالحة إلا لتكون وقوداً. لكن فجأة في أواسط الربيع،تُسحب مرة أخرى من تلك الزوايا،ويتم ترميمها،خاصة الجوانب،بأغصان جديدة،وتشحم عجلاتها،كما يعاد "نعلها" بالحديد،لتصبح قادرة على القيام بالمهمات الكثيرة التي تنتظرها. أما الأبقار والثيران التي طالت اقامتها في "الياخور"،فلا بد من اعادة تأهيلها قبل أن تُشد من جديد على العربات.

رحلة الزرع بين البذار والحصاد طويلة ومليئة بالأخطار. "وكل يوم بسنة،وكل شبر بندر" كما تقول أم أحمد. وهذه الرحلة تعتمد على الطبيعة وحدها. إذ بعد أن يتم بذار الحب،يبدأ الانتظار. فإذا واتت الظروف،وجاءت الأمطار بمقادير وأوقات مناسبة،وبعد أن يستوي الزرع،تجري،بسرعة،عمليات العزق والتعشيب. ومع ذلك يظل الخوف قائماً ومستمراً،لأن شتوات الربيع مهمة،او لاغنى عنها،فهي التي تعطي الحب قوامه وثقله. لذلك يجب أن تكون تلك الأمطار بالحدود الضرورية،أي لا كثيرة فتغرق،ولاقليلة فتحرق،حتى إذا بدأت الخماسين وجفت القلوب،لأن الرياح الجافة،والحرارة حينما تزيد عن حد معين،يمكن أن تؤدي احداهما او كلتاهما إلى "الشوبة"،وهي أن تضمر الحبة وتنشف وبالتالي يضيع جزء كبير من قيمتها أولاً،ثم "تفرط" السنبلة أثناء الحصاد بعد ذلك.

أم احمد التي لاتستطيع أن تذهب إلى البرية،لكي تراقب الزرع،تعتبر الريحان المزروع في تنكات صغيرة غير كاف،رغم رائحته الزكية. لذلك،ولكي تحس بالريح الخطرة،وضعت كمشة من الحنطة،ومثلها من العدس،في أوان صغيرة،وأخذت ترشها بالماء بين فترة وأخرى،وبمقادير تساوي أو تقارب الأمطار. لقد وضعتها على حافة الشباك من الخارج،لترى تأثير الخماسين.

ما ان رأت أم خليل هذه الأواني حتى وجدت الفرصة مناسبة للتنغيص على العجوز،إذ أسّرت لبعض معارفها أن الحالة التي وصلت إليها العجوز لاتسرّ،إن لم تكن خطرة. قالت وهي تحاول أن ترسم على وجهها مظاهر الحزن:

ـ خسارة .. العجوز خلصت،ودّعت ...

وحين تبدو علامات التساؤل على وجوه من تتحدث إليهن،تتابع بنبرة أقل حزناً:

ـ صارت،المسكينة،تظن أن البحر مقاثي ...

ولأن كلامها ليس مفهوماً بعد،تضيف بنفاد صبر:

ـ قبل كم يوم بذرت بالطاسات حُمصّ وشعير وكرسنة،وصمدتهم في الشباك،وكل ساعة راكبة،مخيلة،ودايرة بين طاسة والثانية .. وهات ياحكي .. وهات يا سوالف ...

وتبدو أم خليل منشرحة بعد أن كشفت لعبة حماتها وجنونها،فتضيف:

ـ وإذا اجا الحصاد وحصدت .. الله يستر،ماراح نلاقي محل نحط فيه شوالات الحصيد!

الذين لم ينتبهوا في البداية،لما قامت به أم أحمد،ينظرون باهتمام لهذه الطاسات،وبعد أن يتأكدوا من وجودها،يسألون عنها،وتعرف أم أحمد من دفعهم لهذا السؤال، فتقول:

ـ ابن الحلال عند ذكره يبان ...

تهز رأسها عدة مرات،وتتابع بلهجة لاتخلو من حزن:

ـ والله ياوليداتي ريحة الزرع تروي القلب،مثل النعنع والريحان،فإذا الواحد شاف أو شم، قلبه من جوا يفرفح ...

تجر نفساً عميقاً،تنظر الى أعلى،لعلها ترى أم خليل،وتتابع بصوت عالٍ:

ـ نحن زرعنا وحصدنا، نحن خلص دورنا،هسّه دور غيرنا،الصغار،حتى يرجدوا ويحصدوا،فخلّهن يشمرن وبعدها نشوف!

وتحاول أم أحمد أنهاء الموضوع،لكن أم خليل لاتريد له أن ينتهي. فما يكاد يبرز شيء له علاقة بالزرع والحصاد حتى يهدر صوتها:

ـ تأخر المطر على زرعنا،وإلا أنا غلطانة،ياأبو محمد؟

ويرد عليها أبو محمد مؤيداً أو مخالفاً،فتقول بسخرية:

ـ لو كان زرعنا سقي،يا أبو محمد،كان موسمنا،مثل بعض الناس،عال العال!

وحين لاتنفعل أم أحمد ،ولاتجيب،تنتظر فرصة أخرى:

ـ ها ياعبدالله .. متى حصادكم؟

ـ قرّب،بعد كم يوم!

ـ وغيركم حصد؟

ـ في من حصد،وفي اللي بعده.

ـ وفيه من حصاده لاقمحة ولاشعيرة!

ـ وكلي الله ياحرمة .. الدنيا ماخليت!

ويأتي صوت أم أحمد،ويكون ساخراً:

ـ روح لشغلك ،ياابن الحلال،لأن الفاضي بيعمل قاضي!

وتتمادى أم خليل أكثر. ذات يوم،استوقفت أبا زهدي،صاحب إحدى العربات،وسألته ماإذا كان لديه الوقت والامكانية لنقل محاصيل كثيرة وقريبة. للحظات ظن الرجل أن الأمر جدي،وبعد أن استفسر ليتأكد،أشارت أم خليل إلى الطاسات الموضوعة على طرف الشباك،وقالت إنها تريد نقل حصاد هذا الزرع!

غضب أبو زهيد،وهدد.

قيل أن أم احمد لم تتكلم،لم تنفعل،خلافاً لمرات كثيرة سابقة. وأبو زهدي الذي لم يستطع أن يتحمل هذه السخرية،الأقرب إلى الاهانة،شكا المرأة لزوجها،وسانده في الشكوى بعض الذين حضروا،فما كان من أبي خليل إلا أن منعها من الوقوف،مجرد الوقوف،على الشرفة. بل أكثر من ذلك،قيل إنه صاح أمام عدد من الرجال:

- هذه الحرمة طالق إذا طبت السطح،واشهدوا عليّ ياناس!

ظلت أم خليل اسابيع عديدة لايراها أحد،وقيل أن الكثيرين توسطوا لكي يفرج عنها،ولم تنته المشكلة إلا بكفارة،كما أشار احد الشيوخ. وقيل أن أم أحمد تبرعت أن تصوم وأن تتصدق نيابة عن ابنها.

ذكرت أم خليل لزوجة كاظم سنجر،بعد فترة طويلة،ان أصعب اللحظات التي مرت عليها،أثناء فترة الاقامة الاجبارية في الغرفة،كانت أثناء سماعها صرير عربات الشركس التي تنقل الحصاد،ولاتستطيع أن تراها!

إذا تم تجاوز اخطار الزرع،وهي كثيرة،وتتطلب وقتاً طويلاً،فإن الحصاد يكون سريعاً،بل أكثر من ذلك،يود كل مزارع لو يستطيع أن ينتهي من حصاد زرعه في يوم واحد! لذلك لابد في الحصاد من "فزعة"،اذ على كل فرد من الأسرة،والأقرباء،وبعض الجيران،أن يقوم بعمل ما. كان يتجند الكبار والصغار،النساء والرجال. والعادة أن توكل الأعمال حسب المؤهلات والحاجة.

وعلى الرغم من الجهود التي تبذل للانتهاء من الحصاد في وقت مبكر،إلا أن النتائج لاتتوافق مع الرغبات،لأن المصاعب والنواقص،علاوة على الظروف،تتدخل. وحين تطيل أم أحمد سهراتها على الرصيف،لتتأكد من بعض الأمور،وتعرف أنها سارت بشكل مختلف أو معاكس،تقول،وهي تبتسم،لعلّها تشجع على تجاوزها:

- طوّلوا بالكم ياجماعة الخير،الله،سبحانه وتعالى،خلق الدنيا بسبعة ايام،وهو الله!

وتضيف بلهجة تعليمية:

- وبعدين ... بطيختين بيد واحدة ماتنحمل،يابتحصدوا ... يابتنقلوا ...

وحين يخيّم الصمت اعترافاً أن أخطاء من نوع ما حصلت،تقول:

- شوفوا السرسك ... وتعلموا منهم!

كان الشركس أكثر استعداداً وأكثر تنظيماً للزرع والحصاد: إذ يهيئون أنفسهم من وقت مبكر: مَن يجب أن يحصد ومن عليه أن ينقل؛ من يدرس ومن عليه أن يشوّل القمح والتبن؛ ومتى ينقل هذا ومتى ينقل ذاك. والنقل لايعتمد على الصدفة أو على رغبة الآخرين،إذ هيئت الوسائل والأشخاص والثيران والعربات،إضافة الى المخازن.

كانت عربات الشركس،وهي تنقل المحاصيل من البيادر إلى المخازن،لاتكاد تتوقف. وكان يشارك في هذا العمل كل من هو قادر. حتى الاستاذ مولود،الذي كان يحرص على أناقته في المدرسة،أو في الأحوال العادية،يتحول،بمظهره،وبعمله،خلال موسم الحصاد،إلى مزارع. كان يساعد في نقل الأكياس،في ترتيبها،وأيضاً في فك الثيران عن العربات لكي تستبدل أو لترتاح. وشوكت الخطاط،يحمل الفرشاة والحبر ويخط على الأكياس. وخطا الذي يعمل نجاراً في الجيش،يستفيد من يديه الخشنتين في هذه الفترة،ومن خبرته،لكي يساعد في استقبال المحصول. كان يؤجل اجازته السنوية لأيام الحصاد،وبكل ماأوتي من قوة،وحتى وقت متأخر من الليل،يظل يصلح العربات،يرتب الرفوف التي يجب أن تُصف عليها أكياس القمح والشعير.

كل هذه الأعمال تجري بروح عالية من التفاهم والتضامن،وبطريقة لاتكاد تُلحظ. في الوقت الذي تنفجر خصومات كثيرة،وبشكل مفاجئ،بين "العربان"،ولأسباب،كما يعترف الجميع،في وقت متأخر،تافهة،لاتستوجب مثل هذا الانفعال أو العراك.

كان ليل عمان،في تلك السنين،يتحول إلى نهار،من حيث الحركة وكثرة الناس في الشوارع،ولقد ساعد في ذلك مجيء رمضان خلال فترة الحصاد !

فصرير عربات الشركس،وقت السحور،وضربات طبل الحاج عمر،وذلك التحفز في العقول والقلوب،يولد في الخيال صور احتفالات اسطورية،تشبه صور المحاربين القدامى الذاهبين في الليل المتأخر إلى ساحات الحرب البعيدة والمجهولة. ولذلك كان انتظار مرور العربات،بل والاشتراك في المساعدة،أمراً يدعو إلى الحماس،بحيث يندفع كثيرون للمساهمة بشكل ما. وكانت الجدة،حين تسمع صرير العجلات،قبل أن تسمع الطبل،تقوم لتحضر النقوع والشاي. ولأن الآخرين يكونون قد ناموا متأخرين،ولاعتمادهم على الطبل اداة اساسية لايقاظهم من أجل السحور،حين لايُسمع مدفع القلعة،فإن طريقة الجدة لم تكن كافية،فإذا الحت في الضجة والحركة لايقاظ النيام،ولايستجيبون،كانت تصرخ:

ـ قولوا مانريد نصوم ...

ومثل الجدة جدات كثيرات يحاولن ايقاظ النائمين،وتكون النتيجة،أغلب الأحيان متوسطة!

ورغم أن لرمضان تقاليده،وكان الشركس شديدي التمسك بها،فقد كان بعض الحصادين العرب،اعتماداً على فتوى لايُعرف من أفتى بها،يبيحون لأنفسهم الافطار،نظراً للمشقة البالغة التي كانوا يلاقونها خلال الحصاد،وكان الآخرون يتسامحون،شريطة أن يقوم المفطر "بسدادها" بعد انتهاء الموسم!

كانت البيادر الأهم والأكبر،والأقرب أيضاً،إلى عمان،تقع على أطراف ملعب كوبان،مقابل بيت الفرج. وهناك لاتهدأ الحركة ليل نهار. وكانت ليالي القمر على البيادر تضفي جواً حافلاً شديد الغنى،إذ بالاضافة الى العمل الجاد،وأكواب الشاي التي تدور بين فترة وأخرى،كان الغناء ينبعث من أماكن عديدة،وكان المزاح أيضاً،ولكن الى درجة لايعيق العمل ولايزيد عن حد معين.

كما كان يصادف في مثل هذه الليالي أن يصل الى البيادر عدد من التجار. كانوا يجيئون مبكرين،لا لاستيفاء ديون لهم على بعض المزارعين،وإنما للتثبت من أوضاعهم،ولتحديد مواعيد تسديد هذه الديون،وربما أيضاً الوصول إلى عقد بعض الصفقات! والمزارعون الذين يبدون وداً مصطنعاً،ليسوا مستعدين في مثل هذا الوقت،وفي مثل هذا المكان بالذات،للمساومة أو التنازل،متظاهرين بالانشغال الزائد الذي يمنعهم من مواصلة أي حديث!

وإذا كان العمل الزراعي قد ظل مقتصراً طوال الفترة الماضية على الذين يقومون بالزراعة فعلاً،فإن عمان كلها بعد الحصاد،ولفترة طويلة نسبياً،تصبح ذات علاقة وثيقة،بل وتنشغل بهذا الأمر وحده،تقريباً. تفعل ذلك من أجل استيفاء الديون،لتدبير المونة،لفض المنازعات التي تنشأ عن قسمة المحصول،وأيضاً لعقد اتفاقات مزارعة للسنين القادمة،ان كان موسم هذه السنة جيداً،أو لنفض اليد من الزراعة ومشاكلها،مع إيمان مغلظة،وعليها الشهود،ان كان الموسم سيئاً!

حتى تجار النوفوتيه والسكاكر،وهم عادة بعيدون عن الزراعة،يجدون أنفسهم متورطين بقبول كميات من القمح والشعير والعدس،بعد أن حوّل مدين ديونه من واحد إلى آخر،وكانت النتيجة هذه المحاصيل! وهكذا تجد في عمان خلال الموسم أعداداً كبيرة تبيع وتشتري نفس الصنف،كما يقول التجار،وتكون النتيجة مجموعة من العلاقات المتشابكة،والتي يعتبر كل طرف نفسه مغبوناً بشكل ما،بنسبة ما!

وإذا كان الصيف يبدأ بالنسبة للصغار مع انتهاء السنة المدرسية،ومايرافقها

من خطوط على الألواح تفيض بعاطفة مفاجئة من الحنين الذي لم يظهر خلال الشهور التسعة الماضية! فإن من المظاهر الأولى التي تذكر أن الصيف قد بدأ: "ضو الحصادين"،تلك الحشرة الطائرة التي تظهر بعد الغروب مباشرة،ويكون القسم الخلفي منها مضيئاً،إذ تصبح هدفاً يلاحقه الصغار،وبمقدار ماتبدو مضيئة جميلة وهي تطير،فما أن تصاد،وبعد أن يمر وقت قصير،حتى يخبو هذا الضوء اعلاناً عن النهاية.

بين هذه البداية،وعصفور التين،الذي يأتي في نهاية الصيف،تأخذ مسيرة الصغار طرقاً متعرجة،بين "الزرب" مجدداً في أحد الكتاتيب،باعتباره أفضل من الشارع،وبين ايجاد أعمال للصغار لدى عدد من التجار. أما أولئك الذين يفلتون من أحد هذين المعسكرين،ويبدون أكثر حرية أول الأمر،فلا تلبث الشمس القاسية ان تحرق جلودهم ،وتجعلهم أقرب إلى الأشقياء،خاصة وانهم قضوا أوقاتاً طويلة في النهر،أو في صيد العصافير والحرادين.

الذين جاءوا من القرى،وسكنوا عمان،لكن ظلت علاقاتهم بقراهم مستمرة،ماان يبدأ الصيف حتى يرحلوا. كان كثيرون من سكان شارع منكو،مثلاً،يغادرون إلى السلط والفحيص وماحص،وهناك يقضون الصيف كله. واؤلئك الذين لهم قرابات أو صلات ببعض القرى،كالزرقاء،كانوا يذهبون إلى هناك لقضاء أيام قد تمتد لأسابيع.

حين اقترح على الجدة الذهاب إلى الزرقاء ذات صيف لقضاء أسبوع أو أكثر هناك،كان رد فعلها سريعاً ومفاجئاً:

ـ يابا .. انتو روحوا،آني ابقى هنا،هنا اروح لي!

ولما استغربوا رفضها وتساءلوا،قالت:

ـ أم عبدالله خوش مريّة،بس الواحد بيته اروح له ...

وبعد قليل،وكأنها تحدث نفسها:

ـ الواحد بببيته ياكل ايشمايريد وشوكت مايريد.

وحين تذكروا ماتقصد إليه الجدة،وأكدوا لها أن موسم الفول قد انتهى،ويمكن لها أن تأكل ماتريد،ردت في محاولة لأن تنفي هذا السبب:

ـ يابا .. مو على مود الأكل،آني آكل خبزة وبصلة وأقول: الحمد لله والشكر،لكن نحن هواية،والمرية بيتها زغير ...

وفي محاولة لأن يتركوها ويذهبوا قالت بلهجة جديدة:

- يابا روحوا انتو،روحوا وتونسوا،آني هنا هواية متونسة!

بعد جهد وافقت الجدة،خاصة وأنهم تعهدوا أن يقوموا بأنفسهم باعداد الطعام،بتوفير الراحة لها،كما أكدوا أن أم عبدالله ستغضب لو تخلفت عن الذهاب معهم. ذهبت الجدة،ولكن صنعت لنفسها عدة أقراص من "خبز عروق" وأخذت كمية من التمر. وماكادت تصل إلى الزرقاء،ولكي تخلص من أية احراجات متعلقة بالأكل،قالت أمام الجميع حين وجدت الوقت مناسباً:

- اللي يحبني ويريدني مايلح عليّ بأكلة،بشربة،ترى آني وجعانة،وماكان اتعنى واجي لولا خاطر ام عبدالله .. سمعتوني؟ سمعتوني زين؟

ولما تعالت أصواتهم أنهم سمعوا،وأنهم سيطيعون،قالت وهي تضحك:

- الواحد يحب الثاني موبس بالاكل ..

ومع ذلك فان الاكل أحد أبرز الأمور التي تشغل الانسان،وتدفعه لأن يفكر ويتصرف بما يتلاءم مع امكانياته،والمحيط الذي يعيش فيه.

فالحمص الذي يكون أول نتاجات الموسم الزراعي،مايكاد ينضج حتى يصبح الأكل - التسلية للكثيرين في عمان. كان يؤتى به أخضر،خلال الفترة الأولى،ويباع بالشليل أو بالكوم،وكانت تستهلك منه كميات كبيرة .أما القمح قبل أن يكتمل جفافه فكان يتم قطاف حزم كثيرة منه،تختار بعناية من نوع جيد،لكي تهيأ منه الفريكة،وكانت هذه أكلة عزيزة ولها طقوس! أما السليقة في عمان،خلال تلك الفترة،فقلما يخلو سطح من الأسطحة من الشراشف المنشور عليها القمح المسلوق.

كان البرغل،خاصة أثناء الحرب،مادة اساسية لمعظم الناس. إذ بعد أن قلّ الرز وارتفعت اثمانه،أصبح الجميع يعتمدون على البرغل،ولأنهم يحتاجون إلى كميات كبيرة،باعتباره،كما يقولون،مسامير الركب،لابد من تحضيره،لذلك فان موسم السلق أحد المواسم الهامة والحافلة في عمان.

اذ بعد ان "يصوّل" القمح،بغسله وتنقيته من الشوائب والزوان،وبعد أن يجف،لابد من تحضير كميات وفيرة من الحطب الذي يولد الجمر من أجل غلي الماء في حلة كبيرة،وفي الماء الغالي يتم سلق القمح حتى ينضج،وبعد ذلك يجفف ثم يطحن إلى مستوى معين،ليصبح بعدئذ جاهزاً للطبخ.

كان موسم السليقة يبدأ بعد الحصاد بفترة،ويستمر حتى وقت متأخر من الصيف. إن تحديد الموعد لايتوقف على الرغبة وحدها،لأن "الحلة" هي الأساس،خاصة وان من يملك مثل هذه الآنية الكبيرة عدد محدود جداً،الأمر الذي يضطر لاستعارتها،أو لاستئجارها،إذا لم يتم الاستعاضة عنها بأواني أصغر،كالتنك.

ابو مجدي بائع الذرة الصفراء المسلوقة،والذي "يبسط" مابين مطبعة السمان وسوق البخارية،رجل طريف،اذ يتحول و"حلته" خلال فصل الصيف إلى "سلاق" يعرض خدماته لمن يحتاجها. بعد أن يعاين الكميات التي يراد سلقها،يحدد المكان المناسب لاقامة الموقد،والحطب اللازم « للعملية» كما يحدد اليوم الذي سيقوم فيه بالعمل. كان يفعل ذلك بدراية الخبير ودقته،تاركاً مسألة المقابل الذي يريده لقاء العمل إلى آخر لحظة. فاذا أُعتبر المقابل الذي يطالب به كبيراً يبتسم،وتكون ابتسامته اقرب إلى السخرية،فيستدير نصف استدارة كأنه يريد أن يغادر،وهو يقول:

- اي نعم سعر أبو مجدي غالي ...

يتطلع في الوجوه بثقة وهو يضيف:

- الغالي سعره معه ...

وبعد قليل تغيرت النبرة:

- سلاّق عن سلاق بيفرق،وأنا إذا حطيت ايدي بهذي الشغلة بدي الواحد يقول: الله يعطيه ألف عافية اللي سلق هالبرغل،مابدي واحد يقول: يكّسر ايديه !

وتتغير اللهجة:

- ومع ذلك ماصار شي،دوروا على واحد أرخص مني !

ويضحك بصوت عالٍ متحدياً قبل أن يواصل:

- بس لعلمكم ... إذا مالقيتم،وبعثتوا ورا أبو مجدي،ترى سعر أبو مجدي راح يكون أغلى!

وابو مجدي ليس سعراً مرتفعاً فقط،وإنما كثير الضوضاء،كثير المطالب،اضافة إلى أنه بحاجة إلى عدد من المساعدين. كانت لديه القابلية لتسخير أي من الذين حوله،سواء له علاقة بالسليقة أم لا!

وثالثة الأثافي،كما يقال،في صفات هذا الرجل،مجموعة النظارات التي يستخدمها الواحدة بعد الأخرى،وحسب الحالات. فحين يكون الأمر متعلقاً بالنار يضع على عينيه نظارات سودا قاتمة،وحين يعاين غليان الماء أو نضوج القمح يضع نظارات بيضاء،والأغلب ليست طبية،أو على الأقل ليست له! وحين يقف منتظراً قدح الشاي،أو نضوج السليق،كان يضع نظارة لها زجاجة واحدة!

الجدة التي لم يرق لها هذا الرجل،لكن،على عادتها،كتمت عواطفها خلال الساعات الأولى،خاصة وهو يسخر الصغار،ويجعلهم في حركة دائمة،لجلب الحطب،الماء البارد،الشاي،الغداء،ثم كميات كبيرة من السكر الناعم لترش على السليقة...

في لحظة معينة لم تعد قادرة على الاحتمال أكثر من ذلك. صرخت بشكل مفاجئ:

ـ شلون،يامعودين،ثبرنا هالابن الحرام. خبصنا خبصة موشلون ماكان ...

وحين تبدو كلماتها غير واضحة بالمقدار الكافي،تضيف بعصبية:

ـ يابا شقعا يسوي هالابن الحرام غير يفّور الماي ويشمر بيه الحب؟ آني أقدر أسوي مثله وأحسن منه،لكن أنتم،أهل عمان،تحبون الهرجة والخبصة!

فإذا وضحوا لها أن الأمر ليس من السهولة التي تتصورها،ترد بسخرية:

ـ طيروا .. احچوا هذا الحچي لواحد زعطوط ...

وبعد قليل،وكأنها تخاطب نفسها:

ـ كنا إذا قمنا عن التنور ننذار على المواعين،وبعدها نركب،وبعد التركيب ننذار على المغزل،وماكنا نقول كلمة واحدة،لانقول آخ ولاأوي،لانقول عيني ولا أغاتي،بس أهل هذي الديرة يريدون كل شيء على البارد المستريح!

وذهبت إلى أبي مجدي،تطلعت إليه ملياً،وكان يضع،تلك اللحظات،نظارات الزجاجة الواحدة،سألته:

ـ يابا ما تجوز من تسخير الجهال؟

ـ نعم ستي؟

هكذا سألها،وكانت ضحكته تملأ وجهه،ردت بغضب.

ـ اشو ماكو عندك الا تدز الجهال خري مري. انت جيتنا حتى تشتغل ام تريد تسويها سختة؟

ـ مافهمت عليكي،ستي!

ـ عبالك شعّار،مايعرف غير السختات.

احس أنها غاضبة وأنها تؤنبه،ولكي ينهي هذه الموجة من الغضب،استبدل النظارات التي يضعها على عينيه بالأخرى التي يراقب بها مدى نضوج القمح،وحين تأكد،صاح،وقد تعود الصغار على صيحته:

ـ استوت ياشباب ... اتحضروا.

قالت الجدة لنفسها،وهي تفسح الطريق للصغار الذين أخذوا يتراكضون لمساعدته:

ـ مايعيش بهذي الدنيا إلا السختچي!

ودخلت،بعد أن تفلت،وربما سمعها من كان قريباً وهي تقول:

ـ الحق عليّ،شلون احچي مع واحد ماأعرف قرعة ابوه منين؟

ماكاد السليق يُنزل عن الأسطحة،حتى امتلأت من جديد بالبندورة المعصورة؛ كانت الأواني المتعددة الأحجام والأشكال،والتي تشبه بحيرات دم صغيرة متخثرة،تنتشر في كل مكان تحت شمس عمان. وهذه الأواني التي تكون كثيرة مثل البقع المتناثرة على كل سطح لاتلبث أن تتقلص يوماً بعد آخر،حيث تتركز في النهاية بأوانٍ قليلة،تمهيداً لوضعها في قطرميزات تحفظ لأيام الشتاء،لتكون مادة أساسية لغذاء كل يوم.

وإذا كانت عمان لم تعرف في تلك الأيام تجفيف وحفظ مواسم الصيف لأيام الشتاء،وكانت تختص بذلك بعض السيدات اللواتي يجلبهن هذه الخضار من الشام،فقد بدأت تظهر،فترة بعد أخرى،حبال الباميا المجففة،والفليفلة،وتجرأت بعض النسوة فجففن الكوسا والباذنجان وبعض الخضروات المشابهة. صحيح أن أخطاء كثيرة حصلت في هذه العمليات،نتيجة قلة الخبرة أو أخطاء التعامل،لكن يوماً بعد آخر أصبحت عمان تعرف كيف تواجه أيام الشتاء،وكيف تتغلب على المصاعب والنواقص.

قالت الجدة،وهي تستذكر الأيام الماضية:

ـ يجوز أني مافتهم،لكن اشبلاهم الجوارين،لو أربعة خمسة منهم،اشتروا جدر چبير،ماكان أحسن من ذاك السختچي،أبو الجدر والمناظر اللي جا وخبص الدنيا،وبعدها أخذ كوم فلوس،وما قال في أمان الله؟

ولأن رمضان،خلال تلك الفترة،جاء في الصيف،فقد أضفى على الحياة لوناً من التسامح أقرب إلى الرحمة والتعاطف،الأمر الذي لايكون بنفس المقدار في الشهور الأخرى. فالحريصون،وهم في الحقيقة أقرب إلى البخل،ينقلبون إلى كرماء بين يوم وآخر،إذ يتخلون عن الحرص الشديد أو اللافت، بل ويبالغ بعضهم في السخاء،ليزيل من أذهان الناس الصفة التي يلصقونها بهم،ويعتبرون ذلك تجنياً! والذين واجهوا أكثر من غيرهم صعوبات الحرب،وعانوا الكثير في الأيام الماضية،يصبحون في هذا الشهر قادرين على النسيان نتيجة الكرم الذي يظهر من الذين حولهم. والمؤن التي وضعت بعيداً خوفاً مما قد تأتي به الأيام،لاتلبث أن تخرج كلها أو بعضها،وكأن الحرب انتهت وأصبحت ذكرى من ذكريات الماضي.

كان أهل عمان يسخون على انفسهم وعلى غيرهم خلال شهر رمضان،حتى ليظن من يرى تصرفاتهم،وبعض الأحيان اسرافهم،يفترض أنهم في بحبوحة كبيرة،وان الحرب لم تقترب كثيراً منهم. فباعة القطايف لايظهرون إلا في هذه الفترة من السنة،والذين لايستطيعون شراء الكنافة لايترددون في أن يحاولوا عملها في البيت. طبيعي لايتجرأون على ذلك إلا بعد استكمال المعلومات الدقيقة والتفصيلية الخاصة بالصنع،وبعد الاستعداد الكافي من حيث المواد والأدوات،ومع ذلك،وماتكاد تعتبر الوجبة قد اكتملت ويتم تذوقها،حيث يكتشف الجميع الفرق بين الكنافة التي يعرفونها،وهذه التي يأكلونها الآن،ورغم ذلك تُفترض مزايا كثيرة لكنافة البيت،ويبالغ في ذلك الصانع الأول،ثم المساعدون،من حيث خلو المواد المستعملة من الغش،والنار الهادئة،وأخيراً الأنفاس!

وباعة السوس الذين لايظهرون إلا نادراً،وفي أمكنة خلفية من المدينة،بل ويلجأ بعض باعته إلى استبداله بالتمرهندي معظم الأيام العادية،يظهرون فجأة وبكثافة خلال شهر رمضان،وكأن السوس أحد الطقوس أو أحد المظاهر المميزة لهذا الشهر. والباعة الذين غابوا أو صمتوا طوال الفترة السابقة،تعلو أصواتهم،خاصة بين العصر والمغرب،وهم ينادون: "خمير وبارد ياسوس" "طيب ومرطب ياسوس". ويكون الكثيرون من الصائمين قد استعدوا بأباريقهم والسطول الصغيرة،إذ يملأونها ويهرولون انتظاراً للمدفع،وليكون السوس والتمرة مايفطرون عليه!

هل كان في عمان ثلاجات خلال تلك الفترة؟

أغلب الظن أن معظم الناس ـ هل تمكن المجازفة والقول الجميع؟ ـ لم يفكروا أو لم يبلغوا هذا المستوى من الترف لاقتناء ثلاجة! وإذا كانت بعض الأدوات تفضح نفسها،كالراديو مثلاً،فإن الزقاق الصغير الذي على رأسه،من ناحية شارع فيصل،أبو جضم،ومن الناحية الأخرى أبو صلاح العلبي يمكن أن يعطي الجواب!

كان هذا الزقاق يمتلئ أكثر من أي مكان آخر بين العصر والغروب،خاصة في شهر رمضان،من أجل الحصول على قطعة ثلج من الألواح المرصوفة في ذلك المخزن الذي يقع وسط هذا الزقاق. كان المنشار لايتوقف لحظة واحدة،وماتكاد القطعة تصل إلى يد صاحبها،حتى يكون الخيط مهيئاً لربطها،ثم الهرولة إلى البيت لتكون هذه القطعة جزءاً من الافطار،إذ توضع في السوس أو الماء في الوقت المناسب!

لم يكن الفقراء وحدهم الذين "يدللون" أنفسهم بشراء قطعة ثلج بقرش أو اثنين،كان الأغنياء يفعلون ذلك،الفرق بين الفريقين: الكمية والتوقيت،فالأغنياء يشترون مبكراً نصف لوح من الثلج،وربما أقل أو أكثر،وكان ذلك لايجري إلا خلال شهر رمضان،إذ يبدو مخزن الثلج في الأيام الأخرى،وفي معظم الأوقات،بطئ الحركة.

حتى تجار السوق كانوا يفضلون ماء النبع،بحجة أنه صحي وبرودته طبيعية،كل مايحرصون عليه أن يسخروا الأولاد بتجديده بين فترة وأخرى،خاصة حين يأتي زبون " دسم " أو ضيف عزيز!

في وقت لاحق،أواخر الأربعينات،عرف الناس الثلاجات،وتم شراؤها،ودخلت البيوت،وكان موقع بعضها في غرف الضيوف،للدلالة على الموقع الاجتماعي للمالك!

الذين سافروا إلى بلداتهم وقراهم للاصطياف لم يكونوا قادرين على ترك بيوتهم لفترات طويلة،ليس خوفاً من السرقة،وإنما لوجود الدجاج بالدرجة الرئيسية! والجارة التي تستطيع أن تعتني بدجاجات جارتها لبعض الوقت،لايمكن أن يُثقل عليها،الأمر الذي يقتضي عودة بعض المسافرين لاقامات قد تطول أو تقصر. أما حين ينضج العنب والتين فتصبح العودة ملحة،لأن تحضير مواد الشتاء يتطلب الاستعداد،وهكذا تنتشر المدارق من جديد،اعلاناً عن العودة،ويبدأ بعدها تحضير الخبيصة والقطين والزبيب،كما يكون جزء من المونة قد تم تحضيره في القرية،وفي هذه الفترة،واعلاناً عن كرم الطبيعة،كان يرسل العائدون للجيران العنب والرمان واللوز اليابس،مع رسائل ودية: "بعد فترة سيصلكم القطين والخبيصة!" كان أهل القرى اكثر كرماً من اهل المدينة،وربما الجذر البعيد الذي لهم هناك يجعلهم اكثر ثقة!

وإذا كان الشتاء،هو انكفاء للداخل،والربيع دهشة واكتشاف وإعادة الصلة بالطبيعة،فإن ليالي الصيف،لا نهاراته،فرصة لاعادة ترتيب الأولويات والأشياء

وتأملها،وأيضاً محاولة لامتصاص الرحيق،تماماً كما يفعل الصغار وهم ينتزعون تويج أحد النباتات الشوكية ذات اللون البنفسجي،ويمتصون الحلاوة منه!

كانت الليالي في أصياف عمان مليئة بالسحر والايحاء،وكان الناس يسهرون ويطيلون السهر،ويبالغ البعض فينام تحت السماء. وفي هذه الليالي يطيب السمر وتجري الأحاديث واستغابة الآخرين،وقد يتخللها الغناء،لكن الأصوات ،أغلب الأحيان،متواضعة،وتظل في محيط لا تتعداه.

تعّود أن يمر في أحياء عمان بائع صغير للحلويات،كان هذا البائع يبيع أكثر من الآخرين،خاصة من عبده،ابن صاحب الدكان في بداية شارع خرفان،رغم أن العربة التي يجرها عبده تحوي أشياء كثيرة وتتنوع حسب الفصول،والسبب في حجم المبيعات ان هذا الصغير كان شجي الصوت،يردد بعض الأغاني. فعندما يبدأ بأغنية: "قل لي ياغنام" تفتح أبواب البيوت،وتخرج الفتيات إلى الشرفات لتتابع هذا "الغنام" الصغير!

بعد أن تم انشاء محطة إذاعة في عمان،وكان ذلك في النصف الثاني من الأربعينات،وكانت فترات بثها قصيرة،في الصباح والظهر،وأطول فترة في المساء،فقد كان من أبرز المغنين في هذه الإذاعة: عبد الوهاب اقومي،المغربي. ورغم جمال الأدوار التي كان يغنيها،فالجدة لاتتوقف عن السؤال بين كلمة وأخرى،بين مقطع وآخر:

- شيقول هذا؟

وحين توضح لها الكلمات التي يغنيها،تقول:

- وهاي شنو؟

فاذا اشكلت عليها الأمور أكثر مما تحتمل تعلق:

- واي .. واي .. غنا هذا غنا وغنا صديقة الملاّية غنا؟

وبعد قليل تقول،وكأنها تخاطب نفسها:

- خلني اقوم اتوضا واصلي أحسن من هذه الطِن طِن!

ويستمر الدفء،وإذا بدأ الصيف مبكراً في عمان،فإنه لاينتهي بانتهاء الصيف!

١٢

بمقدار مايبدو الربيع في عمان صريحاً،أقرب إلى الفضيحة،وهو يعلن عن وصوله،فإن الخريف مخادع،إذ يتسلل بهدوء أقرب إلى الخفاء،حتى لايكاد يُحس به،لكنه يوماً بعد آخر يتمكن ويستبد تماماً كالنعاس حين يسيطر.

قد تشي بالخريف بعض المظاهر في السوق التجاري،كالازدحام حول مكتبة الصفدي أو مكتبة المغربي لشراء اللوازم المدرسية؛ ومثل شراء الأحذية،خاصة صندل الحنتور،أو شراء الملابس،وغالباً مايتم ذلك من مخازن السبتية،حيث تتوافر الملابس الجديدة والقديمة،وأبو فؤاد ومتري،وبفراسة لاتخطئ،يعرفان أية ملابس تلائم المشتري،سواء من حيث الامكانية أو المزاج،وبالتالي لابد أن يبيعا،ولابد أن يسقطا أي تردد أو اعتراض عند المشتري.

وقد تشي بالخريف أيضاً الحركة النشيطة لعدد من البناءين. فراضي أبو الشوارب يكون في حالة من الانشغال والحركة إلى درجة تصبح معها تصرفاته اقرب إلى النزق،خاصة وانه يريد أن ينتهي قبل أن تبدأ الأمطار.

أما عربات الشركس التي هدأت حركتها خلال الفترة الأخيرة من الصيف،فإنها تعود مرة أخرى من أجل المساعدة في أعمال الحراثة والبذار. أما إذا ظهرت بعض الغيوم،وأخذ الصغار يتحرزون حول اشكالها وما تمثل من مخلوقات أو معارك،فالجدة تتظاهر بالغضب،لأن الصغار لم يتعلموا من الدروس السابقة،ولذلك تعيد عليهم هذه الدروس:

ـ قراية النجوم وقراية الغيوم شغل السحارين .. وهذا اول الكفر.

المدرسة بعد العطلة تبدو مختلفة،مع أنه لم يتغير فيها شيء،إذ تبدو أصغر،بنظر التلاميذ،عما كانت عليه حين تركوها في أول الصيف! حتى الأساتذة تغيروا أيضاً،إذ تبدو ملابسهم أكثر قدماً،والتعب غزا ملامحهم واشكالهم.

وكلوب باشا الذي غاب خلال الصيف،لايعرف أين،وعاد،بدا بنظر كثير من الذين رأوه أكثر حركة وشبابا؛ والبدو الذين انقطعوا طوال الشهور الماضية عن بيته وعن القيادة،عادوا من جديد،وقيل إنه تم تجنيد أعداد كبيرة منهم في قوات البادية. أما مبرد،مرافق كلوب،فقد رقي إلى رتبة ضابط،وكذلك حكمت مهيار.

الذين كانوا متحمسين لهتلر،أبو علي،وكانوا يتابعون أخبار راديو برلين،ويحفظون تعليقات يونس بحري،لم تفتر حماستهم،لكن أصبحوا مختلفين عن السابق،أصبحوا أكثر نزقاً وأكثر استعداداً للعراك،خاصة وقد أخذت تصل قوات متزايدة من الحلفاء،وتمر في عمان باتجاه الشرق وباتجاه الغرب،ولايعرف الناس أين ذهبت أولماذا.

الجدة التي حاولت بالحاح أن تذهب إلى بغداد خلال الصيف،وأُجلت رحلتها مرات عديدة،بالرجاء والاقناع،لم تعد قادرة على الاحتمال أو التأجيل،لذلك أخذت تستعد بعد أن انكسرت حدة الحرارة،وأصبح الجو في بغداد مقبولاً.

بستان الغريب الذي ظل مكاناً محرماً من بداية الربيع وحتى نهاية الصيف،أخذ يغيب عنه محيي الدين،وانشغلت امه بتنشيف الملوخية والنعنع،وأيضاً بطرد العصافير والدبابير عن دالية العنب التي تخيم على مدخل البيت،وقد "كيست" عدداً من قطوف العنب،وتركت أخرى لكي تقطف مبكراً،وبذلك أصبحت مشغولة،وتحوم فقط حول البيت والدالية طوال النهار،مما أتاح للتلاميذ المتأخرين أن يمروا من البستان وهم في الطريق إلى المدرسة. ليس ذلك فقط،أصبحت لعيون هؤلاء علاقة مغناطيسية مع اللوزات المنسية،خاصة وان الأوراق بدأت بالذبول،أو على الأقل فقدت الكثير من لونها،مما يتيح لهم أن يستعملوا المغيطات في انزال اللوزات المتأخرة،أو استعمال الحجارة،وبعض الأحيان يستغلون بطء العجوز وبعدها لكي يتسلقوا الأشجار. وقد صادف أكثر من مرة أن جاءت للبحث عنهم،بعد أن سمعت أصواتهم،لكن نتيجة الخوف أو المكر ظلوا "لابدين" دون صوت أو حركة،ومرت تحت الأشجار التي يكونون فوقها،فإذا ابتعدت مسافة أمن كافية هبطوا بسرعة ضاحكين،وحين تكتشف أم محيي الدين الخدعة،تحاول أن ترمي وراءهم بضعة حجارة!

ما إن تمر أسابيع قليلة حتى تتساقط أوراق أشجار اللوز وتتعرى الأغصان تماماً،وتدخل أم محيي الدين في سبات طويل.

وبستان أبو شام الذي كان يفخر بأن فيه الفواكه المبكرة،والتي تنزل قبل

غيرها إلى السوق،وتحصل على أسعار مرتفعة،كان يفخر أيضاً بوجود فواكه تتأخر عن غيره من البساتين،كالسفرجل أول الأمر،ثم نوع من الخوخ،كان يطلق عليه الخوخ الاستنبولي،وقد جلب شتلاته سليمان أبو شام في إحدى سفراته إلى تركيا.

العلاقة بين الجدة وأم عمر أبو شام وثيقة وبالغة الود،إذ كانت المرأتان تتزاوران وتقضيان وقتاً طويلاً معاً. وفي هذه الزيارات،وحدها،أم عمر،تتكلم،والجدة تصغي. كانت الأحاديث تدور حول الدين وقصص الأنبياء،والجدة التي تفهم بعضاً مما يقال،ولاتفهم البعض الآخر،كانت تردد باستمرار: صلوات .. صلوات على النبي.

في هذا الخريف،وقبل سفر الجدة بيوم واحد. حدث أمر لم يتوقعه أحد:

ففي الوقت الذي كان يفترض أن تأتي أم عمر لوداع الجدة،وأن تحمل معها بضع حبات من الخوخ الاستنبولي،لكي تأخذها الجدة معها إلى بغداد،"ولازم تزرعوها هناك ياحجة" جاءت أم علي الشرشوحة.

جاءت أم علي تنقل خبراً لم يُصدق رغم وضوح الكلمات:

ـ أعطاكم عمره سليمان.

ـ شنو؟ منو؟

ـ سليمان أبو شام مات .. اختنق،خنقته خوخة!

مرت دقائق حتى استوعبت الجدة ماحصل،بعد أن استعادت أم علي الخبر عدة مرات،ولم تتأخر لتذهب وتكون قرب أم عمر.

إنه يوم تتذكره عمان جيداً،فذلك الشاب الأوسط بين اخوته،كان وحده المسؤول عن البستان الكبير،كان يفيض شباباً وقوة وحيوية،ويريد أن يجعل البستان،كما كان يردد: "جنة الله على الأرض". كان لايتعب من التعشيب والتقليم والتهجين،في محاولة لأن يتفوق على أصحاب البساتين الأخرى ... وفجأة تأتي أم علي الشرشوحة بخبره.

تقول أمه،وكانت أقرب إلى الذهول،وكأنها تتحدث عن واحد بعيد:

ـ وحده سافر إلى تركيا،لا أحد قال له،ولا أحد جره. حمل حاله وراح،وجاب معه خوخة الشيطان!

وبعد قليل وبلهجة غاضبة:

ـ ياحجة .. احلفلك بالله وملائكته،وهذول الناس شاهدين،لاتحملي شجرة الزقوم ولاتذوقيها.

ومن بين دموع النسوة ونحيبهن يخرج صوت لايعرف لمن:

ـ الأشجار مثل الأولاد،موكل شجرة عجبتك صارت شجرتك،ولا كل ولد هفّت له نفسك صار ولدك.

يقول من كان موجوداً أن الأخ الأصغر لسليمان حمل الفاروعة وأراد أن يقطع أشجار الخوخ،لكن أباه منعه وكان قاسياً في منعه.

وقيل إن أحد أقرباء سليمان اقترح دفنه في البستان ذاته،لكن أحداً لم يستجب لاقتراحه

قالت الجدة إن نعش سليمان ،والرجال يسيرون به عبر الممر الطويل بين البيت وبداية الشارع،غطته أوراق الأشجار التي كانت تتساقط،رغم أن النهار كان ساكناً.

وأكد الكثيرون أن خريف ذلك العام جاء مبكراً،خلافاً لكثير من السنوات،وأن الكثيرين أوقدوا النار وشتوا قبل أربعين سليمان.

والجدة التي اشترت بعض الحاجات،لتحملها معها إلى بغداد،وزعتها على روح سلميان أبو شام،بعد أن أجلّت سفرها إلى الربيع.

أما بعد أن سافرت وعادت فقد وجدت أن أم عمر غادرت البيت،إلى بيت آخر.

وبعد عدة سنوات أنكرت الجدة أن يكون ذلك المكان هو نفسه بستان أبو شام،أما حين انفجر اللغم في البستان.

بعد سنوات من وفاة سليمان،فقد قيل أن المكان تحول إلى مستودع،ولم يعد،بعد بستاناً.

١٣

الانتقال من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الثانوية كالانتقال الفجائي من الصيف إلى الشتاء،ويشبه اقتلاع شجرة من مكانها وغرسها في مكان مختلف. إنها عملية شاقة،رغم الشعور بالكبرياء الملتبس،حيث يحس التلميذ أنه كبير وصغير في آن واحد. فالمدرسة السابقة لم تعد له،لم تعد تسعه،رغم أنه كان في الصف الأعلى،ولذلك عليه أن يغادر. وفي المدرسة الجديدة يحس أنه ضئيل ومجهول،وبالتالي لايستطيع أن يتكيف مع المكان الجديد بسهولة.

في بداية السنة الدراسية تتكون مجموعات على شكل جزر من الطلبة الجدد،تعتبر امتداداً للمصادر السابقة. فهؤلاء الطلبة أتوا من أماكن عديدة،من عمان والبلدات الأخرى القريبة،عدا السلط،ولذلك تبدو الهيئات والمستويات شديدة التنوع والتباين،إضافة إلى تعدد اللهجات.

طلبة العبدلية،مثلاً،أياً كانت الصلة التي تربطهم سابقاً،يصبحون أصدقاء،شديدي العصبية والتضامن،بل ومستعدين للدخول في معارك إذا تعرض أحدهم للاعتداء أو للسخرية. ولايختلف طلبة المدارس الأخرى عن العبدلية،إن لم يكونوا أكثر ترابطاً،خاصة الذين جاؤوا من خارج عمان.

ولكن كيف تبدو المدرسة الجديدة؟

بناية قديمة كانت في يوم بعيد ثكنة عسكرية،تقع في شارع جانبي متفرع عن شارع الأمير طلال،وسط السوق. لاتبعد إلا قليلاً عن الجامع الحسيني وسينما البتراء والمنشية والكرنتينا،من ناحية الشرق. أما من ناحية الغرب،فإنها على رمية حجر،كما يقولون،من الحمام وسوق الحلال الصغير. يحيط بهذه المدرسة ـ الثكنة سور عالٍ لايفكر أحد،مجرد تفكير،بتسلقه،عدا عن كونه يمنع الكرة من الوصول الى الشارع! وسط السور،من الناحية الشرقية،بوابة حديدية عالية ثقيلة،كأنها بوابة

سجن،يقف وراءها،من الداخل،حارس له مهمات عديدة،من جملتها فتح البوابة واغلاقها!

الصفوف المخصصة للطلاب الجدد في الطابق الثاني،تطل مباشرة على الشارع الرئيسي. عبر هذا الشارع تماماً حداد لايهدأ كوره ولا تتوقف مطارقه. إذا شرد انتباه أي طالب للحظات،وكانت النوافذ مغلقة،يستطيع أن يلتقط الكثير مما يقال تحت النوافذ،أما إذا فتحت هذه النوافذ،وكان يحصل ذلك لفترات قصيرة بين حصة وأخرى،من أجل التهوية والتسلية معاً،فإن السوق كله ينتقل إلى داخل الصف! أصوات الباعة والمساومات والسؤال عن الصحة والمواسم والمسافرين،وأيضاً الضحكات الصاخبة التي تعقب نكتة جنسية مكشوفة!

المدرسة واسعة بباحاتها،رغم مافيها من أدوات رياضية،اضافة إلى الأشجار المعمرة الكثيرة والمنتشرة على الطرف الجنوبي بشكل خاص. عدد الصفوف والشعب كبير في المستويات الدنيا،يتقلص تدريجياً ما ارتفع المستوى،حتى إذا نجح عدد من طلاب الثالث ثانوي كان عليهم أن يغادروا إلى السلط،فيما لو أرادوا مواصلة الدراسة،تمهيداً للتخرج من هناك،والعودة إلى دوائر الدولة والتعليم،أو لمتابعة دراستهم الجامعية.

تناوب على ادارة المدرسة،خلال تلك الفترة،عليان: على روحي وعلي سيدو،وإذا كان الأول استطاع ذلك،رغم كونه مصرياً،من خلال اللباقة والمسايرة وخفة الدم،فإن من مزايا المدير الآخر،علي سيدو الكردي،الحزم وتقطيب الجبين،إذ لم يكن يعرف الابتسام مطلقاً،وكأنه خُلق وعلى كتفيه هموم الدنيا كلها،أو كأن التلاميذ شياطين بالفطرة،وبالتالي لابد من معاملتهم بقسوة!

إذا كانت الطبيعة،بالاشجار والخضرة والطيور أيضاً،شديدة الحضور والكثافة في الشوارع التي تؤدي إلى المدارس القديمة،فإن الوصول إلى المدرسة الجديدة يتطلب المرور في شوارع مزدحمة،مليئة بالبشر والحاجات،الأمر الذي يجعل العيون تتفتح على أنماط مختلفة من الأشكال والعلاقات والناس،اضافة إلى اختلاف "اللغة" !

لم يكن لأهل السوق موقف سلبي من التعليم،وبالتالي من المدارس وطلابها،ومع ذلك لايبدون مرتاحين أثناء انصراف الطلاب بشكل خاص . فهذا الكم من البشر الذي يتدفق فجأة،ودفعة واحدة،إلى السوق فيملأه،ويحصل ذلك مرتين،عند الظهر،وبعد العصر وقبل الغروب،يجعل الكثيرين أقرب إلى النرفزة

وأميل إلى الحذر،خاصة حين ينصرف الطلاب الانصراف الأخير،إذ يكون هؤلاء ميالين الى التسكع،ومضايقة بعض المشترين،خاصة من البدو،اضافة إلى أن أحداً منهم لايشتري "ببارة" ،فهم مفلسون،وإذا وُجد في جيب أحدهم "تعريفة" أو قرش فلشراء أشياء غير تلك المعروضة في هذا السوق. هذا عدا عن حالات الضوضاء والكثافة،وهما سببان يساعدان على السرقة أو السهو عن تسديد القيمة! وفي حالات كثيرة إلى الخطأ في الحساب! ولايخلو الأمر،في حالات معينة،من التنغيص على الباعة!

لقد كان هناك عدد من "الباعة"،لكي يحرّضوا على الشراء،يتفقون فيما بينهم،ويمثلون أدواراً؛ إذ يتظاهر بعضهم أن السلعة المعروضة بالغة الرخص،لذلك يُقبل بحماس على الشراء أمام الآخرين،ويبدي اغتباطه للسعر والنوعية بصوت عال،وقد يشتري مرة أخرى وثالثة،لكي يشجع المترددين على أن يفعلوا مثله،وغالباً ماتسري العدوى فيشتري البعض. بعد أن ينفض الجمع يعيد المشترون الصوريون البضاعة إلى صاحبها. تنطلي الحيلة على الكثيرين أما المفلسون فإن همهم المراقبة والمتابعة،لأنهم يقضون وقتاً طويلاً في السوق،ولابد أن يكتشف بعضهم الحيلة،فإذا صرخ أو صرّح .. وبعض الأحيان إذا ابتسم،فلا بد أن يصبح خصماً،وقد يتعرض للأذى!

كان عدد كبير من التلاميذ يقضون وقتاً طويلاً في السوق،رغم التعليمات المشددة التي يكررها المدير علي سيدو! وخلال هذا الوقت "يتلقون دروساً" من نوع آخر،فأثناء حضور المساومات التي تجري في سوق الحلال،القريب من الحمام،يعرفون أسعار الملح والخراف وبعض المحاصيل. وكانوا يرون طريقة البدو في البيع والشراء،إذ رغم ماتتسم به هذه الطريقة من بساطة،فإنها لاتخلو من مكر،فحين يريد البدوي أن يشتري يدوّخ السوق،بالذهاب والعودة والمساومة،راسماً على وجهه البراءة والبساطة،وغالباً مايصل إلى أقل الأسعار! أما إذا أراد أن يبيع فيتظاهر بالجهل الأقرب إلى البلاهة،مع كلمة واحدة تفتح البازار. "سوم". وكلما عرض عليه سعر قال :

بعيد ... بعيد ،مع التأكيد ان من يعرض مثل هذا السعر لا يريد ان يشتري، وحين يبلغ السعر حداً معيناً وبشكل مفاجئ يقول البدوي: الله يبارك لك،صار حلالك. وكثيراً ماأظهر المشتري ندماً لأنه تسرع ودفع أكثر مما قدر،وأكثر من سعر السوق!

القصص المتعلقة بالأساتذة،شخصياتهم ومزاجهم وطريقتهم في التصرف،تُعرف وتنتقل حتى قبل أن يصل التلاميذ الجدد إلى المدرسة.

يعقوب هاشم،أستاذ الرياضيات في الثانوية،أهم شخصية في المدرسة. يعرفه،أو على الأقل،سمع اسمه،كل انسان في عمان.

رجل شديد البساطة بشكله وملابسه،وبعض الأحيان بتصرفاته،رغم كونه الأخ الشقيق لرئيس الوزراء ابراهيم هاشم! كان قليل العناية بشعره وبثيابه،وكثير العناية بالمسألة التي يفكر بها ويريد حلها. إذا سيطرت عليه مسألة،واستعصى الوصول إلى حل لها،يصبح أقرب إلى الذهول،إذ لايحس بكل ماحوله،من أصوات وبشر. والقصص التي تروى في هذا الشأن كثيرة،ولايخلو بعضها من مبالغة!

يروون أنه في إحدى المرات،وكان يسير في السوق،بالقرب من مطبعة السمان،حيث تقف باصات مأدبا،وكان مستغرقاً بمسألة رياضية تشغله،فجأة برقت في ذهنه بداية حلها،فما كان منه إلا أن أخذ يخط على غبار الباص الأرقام والرموز،وحان وقت تحرك الباص،وهو مشغول يكتب ويتابع،فلما نُبه إلى ذلك،دفع أجرة راكب،فقط لكي ينقل النتائج التي توصل إليها!

تروى القصة بهذه الطريقة،ويرويها آخرون أنه اضطر،لضيق الوقت،أن يركب الباص ويذهب إلى مأدبا،لعّل تتاح له هناك مواصلة الحل والوصول إلى النتيجة،لكن باعتبار أن الطريق لم يكن معبداً،فقد تراكم الغبار من جديد على "المسألة". ورغم سفره إلى مأدبا،في هذه الرحلة،والجهود التي بذلها،فقد كانت النتيجة الفشل،وظلت المسألة دون حل لسنوات كما يقال،رغم المراسلات التي كان يتبادلها مع أساتذة آخرين،ومع بعض المراكز الرياضية!

ولأنه يدخن الأركيلة،والمنشية غير بعيدة،كان "يعزم" نفسه إلى هناك بعض الأحيان،بعد أن يعطي الطلبة فروضاً،مع التأكيد على العريف أن يسجل أسماء التلاميذ المشاغبين،أو الذين لايتابعون حل الفروض،ولأن العريف راشد الحنيطي،أكثر شغباً من المشاغبين،فقد قاد ذات يوم مجموعة من هؤلاء إلى المنشية كي يعاقبهم الأستاذ يعقوب هناك!

وثمة قصص كثيرة تروى،من اطلاق الجنادب في الصف،إلى رشق بذلته السكرية من الخلف بالحبر،إلى التهمير.

كان أكثر مايضايق الأستاذ يعقوب سماع تهمير المشاغبين،وهو الصوت الذي يخرج على شكل ونين،دون أن تُفتح الشفاه. كان يصرخ:

ـ انا اللي بيّهمر بضربهوش بضرب اللي بحداه!

ومايكاد يتوجه إلى حيث يخرج الصوت حتى يصدر صوت التهمير من ناحية ثانية،ويظل الأمر كذلك إلى أن يأتي الأستاذ وهيب أو المدير!

كان الأستاذ وهيب،بعد المدير،أقوى الأساتذة وأكثرهم حضوراً،إذ بالاضافة إلى كفاءته في مادته،اللغة العربية،فقد كان حريصاً على أن يكون مربياً،بالنسبة لأكثر الصفوف. كان يهتم بالنظافة بشكل خاص،إذ يتأكد من الحلاقة والأظافر والملابس،ويقسو في معاقبة المخالفين،كما كان يهتم بالرياضة،رغم سمنته وتقدمه بالسن. ومن الأمور اللافتة أيضاً صوته الشجي حين يتولى تدريب التلاميذ على الأناشيد!

والأستاذ حسيب،بطربوشه المائل قليلاً،والذي يدل على المرح،وبخبرة السنين الطويلة،يعرف كيف يحوّل التاريخ والجغرافيا إلى مادة ممتعة،كان يستحضر المدن والقارات ويجعلها تنبض بالحياة والحركة،بحيث أصبحت الجغرافيا أكثر المواد التي يحبها الطلبة وينتظرونها! أما إذا دخل إلى التاريخ فكان يُدخل الطلبة معه،يتحدث عن ملامح الوجوه،عن غبار المعارك،عن دسائس السياسة والسياسيين،بحيث تبقى الصور في الذاكرة،لاتغيب أبداً.

إن الأساتذة،في مرحلة معينة،هم الذين يكوّنون الطلبة،يجعلونهم يحبون هذه المادة أو يكرهونها،يبرعون فيها أو يفشلون. كما أن قوة شخصية الأستاذ أو ضعفها تنعكس على المادة ذاتها،إذ تصبح هامة وجدية أو العكس.

ولأن الطلبة جاءوا من أماكن ومستويات مختلفة،وحين لايستطاع الوصول إلى نوع من التجانس خلال فترة قصيرة،فإن المكر البدائي،والقوة الجسدية،اضافة إلى الالتفاف على التفوق الدراسي بوسائل أخرى،تصبح السمات التي تميز الكثيرين،خاصة وأن التقصير يجر إلى تقصير آخر،والكسل يعدي الآخرين،كما ينعكس على الأساتذة،بحيث يصبحون أقل صبراً وأضيق صدراً في التعامل مع هذه الظواهر.

كان المفتشون: سعيد الدرة،ابراهيم قطان،عوض الرويلي،إذا جاءوا إلى المدرسة،وقد تعددت هذه الزيارات،لايتوقفون طويلاً عند الصف السادس،وكان هذا الصف عدة شعب،ربما لتقديرهم أنه انتقالي،إذ لابد أن "يتخرج" منه من لايستطيع أن يواصل،خاصة وأن هذا الحوت الذي يحاصر المدرسة من كل جهاتها،السوق،قادر على استيعاب الكثيرين،ولقد صادف أن غادر عدد كبير منهم قبل أن تنتهي السنة الدراسية،بحجج ولأسباب عديدة ومختلفة.

إذا خرج الطلاب،وأخذوا جهة الغرب،يمرون بدكان عبيدان،ورغم وجود بضعة أكياس من الرز والعدس،اضافة إلى صندوق أو اثنين من الشاي،وكان يتولى أمر البيع أخوه صويلح،فإن هذه الدكان مركز للبدو،فيها تجري الصفقات الكبيرة على الرعايا التي وصلت أو التي لم تصل بعد،اضافة إلى بعض الصفقات السياسية!

بعده يأتي وديع اللحام،"الملحمة" الكبرى في عمان الأربعينات،خاصة أثناء الحرب،حيث الذبائح المعلقة،وتحديداً البقر والجمال. وغير بعيد عن الملحمة خمارة قعوار،على كتف طلعة الحمام.

كان اسم عرار يتردد كثيراً على ألسنة الناس،لأن حياة هذا الشاعر ارتبطت بالسياسة والنور وبالشعر السري،إمّا لكونه شعراً مكشوفاً أو ممنوعاً. ولأن أحد أبرز الأماكن التي كان يشاهد فيها خمارة قعوار،فكان يروق للتلاميذ الذين حفظوا شيئاً من شعره أن يتوقفوا،للحظات،وهم يرددون:

فمن سجن إلى منفى ومن منفى إلى غربه

ومن كـــر إلى فـّــــر ومن بلوى إلى رهبة

فبي من كل معركـــة اثرت عجاجَها ندبه

وحين يهز رأسه طرباً،وبعض الأحيان يقف ويصفق،ملتفتاً إلى الذين معه وهو يقول:

- شايفين،يابجم،شو أهمية الشعر،حتى أولاد المدارس حفظوه!

ويشرب من كأسه وهو واقف يردد،وموجهاً الكلام إلى ندمائه:

كم صحت فيكم وكم ناديت من ألم فلم تفيقوا لصيحاتي وأناتي

ربما كانت خمارة قعوار الوحيدة في عمان آنذاك،أو ربما وحدها التي تبيع الخمر الذي تصنعه المعامل. فالعادة أن الكثير من المسيحيين يصنعون في قراهم الخمر لاستعمالهم الشخصي أو لاهدائه للأصدقاء. وفي محاولة لأن تثّبت خمارة قعوار أقدامها في السوق،فقد انتشرت عبارة كان يرددها زبائنها: "إذا بدك تفرح وتغني اشرب من عرق يني"،وهو العرق الذي كان يأتي من لبنان بزجاجات مختومة!

الذين يأخذون طلعة الحمام يصلون بسرعة إلى الجبل،وإلى الطبيعة من

جديد،أما التلاميذ الذين "أدمنوا" طريق السوق،لما فيه من أشياء غريبة ومفاجآت،فلابد أن يتوقفوا عند السينما التي كانت في هذا الشارع،وقد ظلت تعرض لأسابيع طويلة،خلال تلك الفترة،فيلم عنتر وعبلة،وكان هناك من يشاهده مرات عديدة،وربما كل اسبوع،لكن تضطر السينما لاستبداله بفيلم الوردة البيضاء،ارضاء لمتذوقي وعشاق عبد الوهاب.

كان الذين يأخذون هذا الطريق يصلون إلى درج الزعامطة،أو درج الكوريا،كما يطلق عليه أيضاً،نظراً لوجود التواء فيه،ويبدأون الصعود وتسلق أعلى درج في عمان.

كان هذا الدرج للنازلين،خاصة الصغار،ممتعاً إلى أقصى حد،إذ بعد التدريب،وبطريقة متقنة،يمكن قطع كل ثلاث درجات بقفزة واحدة،كانوا يفعلون ذلك وكأنهم يركضون في مرج أو ينزلقون فوق الماء،وكان الكثير من الصاعدين يخافون منهم وعليهم،ولذلك يفسحون المجال واسعاً أمامهم.

بعد الدرج مباشرة أم أحمد؛ ولابد أن يتوقف الصغار،الذين كبروا،في هذه المحطة،خاصة وأن الكثيرين منهم أصبحوا يدركون المهمة التي يقوم فيها عبد الرؤوف منكو،ويتعاطفون معها،وكان يروقهم أيضاً أن يروه وهو يعمل،وهو يفكر.

أم خليل لاتتوقف عن المناكدة أبداً،بمجرد أن ترى التلاميذ،وقد توقفوا عند الحماة وعند "العواطلي" يخرج صوتها المشروخ،وكان أقرب إلى السخرية:

ـ آهي .. وياماشاء الله .. وصل ولاد المدارس ...

وبعد قليل وهي تخفي ضحكتها:

ـ آخر الزمر طيط ...

تهز رأسها عدة مرات وهي تضيف:

ـ اجتمع المقرود على خايب الرجا

فتصرخ بها أم أحمد:

– ولكْ ،يا حرمة ، انضبي، استحي!

وحين ترد أم خليل بضحكة،تقول أم أحمد،وهي تجر نفساً عميقاً:

ـ الله يجيبك ياطولة الروح!

أما عبدالرؤوف الذي يصغي إلى هذا الحوار ولايصغي،وحين يرى التلاميذ يراقبونه وهو يكتب،يرجع كرسيه إلى الخلف وهو يردد:

أنت بلادي مهد العلوم   فبالجهاد وبالهجوم

نرمي الأعادي من الخصوم   إلى الأمام سر بانتظام

إلى الأمام .. إلى الأمام

ويصفق التلاميذ ثم يمضون!

الجدة تراقب،تسمع،تقارن بين اهتمامات الصغار في هذه المرحلة واهتماماتهم في المرحلة السابقة،تفعل ذلك بصمت،لكن بشعور الخائف أيضاً.

في نهاية السنة الدراسية،وبعد أن تراكم عدد كبير من "الحرمانات" التي فُرضت على الصغار،نتيجة الشغب أو لعدم انجاز الوظائف،بحيث كان يُحجز المقصرين لساعة أو لساعتين بعد انتهاء الدوام،وبعض الجمع،ولايعود الصغار إلا متأخرين .. ثم ذلك الخروف الذي تم شراؤه في اليوم الأخير،إذ اشتراه الصغار وهم عائدون من المدرسة،ليبدأوا العطلة الصيفية،فقد سألت الجدة بارتياب:

ـ اشو هذا الطليّ جلد وعظم شراح تسوون بيه؟

وجاءتها الاجابات الصاخبة إن هذا الخروف،بعد أن تتم العناية به،وعلفه بشكل جيد،سوف يتضاعف وزنه خلال فترة قصيرة،وبالتالي سوف يتم بيعه بأضعاف السعر الذي اشتري به!

وبعد أن استفسرت عن السعر الذي دُفع،ولماذا يراد بيعه،قالت بلهجة ساخرة:

ـ وين تعلمتم هذه العلوم؟ بالمدرسة قالوا لكم سووا هالشكل؟

وحين تلقت اجابات ساخرة رداً على سؤالها،قالت بغضب:

ـ هذي العايزة ....

وبعد قليل وبغضب أشد:

ـ لو چنا ندري،لو قلتوا من قبل،ان الواحد منكم يريد يصير بياع شرًا كان ماشلعنا قلبنا بالقراية،كان بعنا اللي فوقنا واللي جوانا وفتحنا لكم علوة ...

استراحت،أخذت نفساً واضافت بسخرية:

ـ كان لقينا لكم عِرف،قرايب،بالشورجة،بعلاوي الحلة،بسوق حمادة،وقلنا له: عليك الله ياأبو فلان ... علّم الوِلد ملاعيب السوق،علمهم شلون يبيعون ويشترون،وبليّا قراية ودوخة راس،لكن شايفينكم،الله عليكم،رايحين للمدرسة وجايين من المدرسة،وأبد مويبالنا تشترون وتبيعون طليان!

بعد أسبوع،وبعد أن اكتسى الخروف بقليل من اللحم،ذُبح.

وقبل أن تنتهي العطلة الصيفية تم تسجيل الصغار في الكلية العلمية الاسلامية.

قالت الجدة. بعد أن التحق الصغار،الذين كبروا خلال هذه العطلة،بالمدرسة الجديدة:

ـ خلصنا من السوق وطلايب السوق ...

وأضافت كأنها تخاطب نفسها:

ـ الله،سبحانه وتعالى،ماخلق للبني آدم قلبين،خلق له قلب واحد،إمّا يقرا ويتعلم،وهذا اللي له حظ،أو يقول له: أنا ماعليّ،دوّر خبزتك،وروح اشقى واتعب حتى تعيش ...

وبعد قليل وهي تنظر إلى الصغار:

ـ احنا نريد يصير براسكم خير،نريدكم تتعلمون،ولاحقين على شلعان القلب،وعلى البيع والشرا!

١٤

حين بنى الصائغ محمد علي الأردكاني قصراً على كتف الدوار الأول،قال الكثيرون: "الجنون فنون". وحين تذكروا ثراء الرجل أضافوا: " ومع ذلك يمكن للذين يلعبون بالذهب أن يفعلوا أي شيء !"

أما حين اشترى عبد العزيز الكحيمي ذلك القصر،وحوّله إلى سكن الوزير المفوض،ثم سدّ واجهات الدكاكين التي كانت في المقدمة،وجعلها مكاتب للمفوضية،فقد قال أهل نجد في سوق الحلال: "هذي ماهي قنصلية ابن سعود،هذي قنصلية الشياطين الزرق لأنْ حتى الخبل مايبات خلاوي"،حين استعادوا في الذاكرة مكانها البعيد،وصعوبة الوصول إلى هناك،قالوا ساخرين: "الرِجّال اللي يريد الناس يقربهم،يسكن بينهم،أما إذا حط روحه بالحماد،فكأنه يقول: خلكم بعيدين،والله مابيني وبينكم .. ياجماعة " .

كان لايصل إلى الدوار الأول إلا المتنزهون في أيام الربيع،والصيادون،والذين يسافرون إلى وادي السير. أما إذا دخل الصيف فتزداد حركة بعض الناس حول الدوار لاسبوعين أو لثلاثة،وغالباً ماتكون لهؤلاء علاقة بالزرع والديون. فإذا انتهى الحصاد خمدت الحركة مرة أخرى إلى نهاية الخريف،إلى وقت الحرث والبذار. أما حين تبدأ البرودة ويدخل فصل الشتاء،فعندئذ يغيب هذا المكان من الذاكرة،لأن لاأحد يفكر بالوصول إليه أو الاقتراب منه،باعتباره مخزناً للرياح والزمهرير.

تنتهي حدود عمان،اذن،عند الدوار الأول،أما بيت الفرج،مقابل ملعب كوبان،فكان يشبه المخفر المتقدم،وكان الكثيرون يتساءلون: كيف يستطيع آل الفرج أن يتدبروا أمورهم خلال فصل الشتاء؟

لما اقيمت الكلية الاسلامية بين الدوار الأول وملعب كوبان،نظر الناس إلى البناء بتساؤل ودهشة. أكثر من ذلك لم يخف الكثيرون استغرابهم،بل وتراهن بعضهم حول الأسباب التي دعت لاقامته في هذا المكان! قال حسنو النية

والمتفائلون: تم اختيار هذا المكان لرخص الأرض،وبمرور الأيام،بعد سنين،لابد أن يعمر. الذين لم يكونوا متفائلين بهذا المقدار قالوا: تجار،تبايعوا فيما بينهم ليتخالصوا!

لم يكن أحد يتوقع لهذه المدرسة أن تنمو وتتقدم بهذه السرعة،لكن عمان،خلال تلك الفترة،كانت تمر في حالة خاصة،أقرب إلى الانفجار،وهكذا ما إن انتهى البناء الرئيسي،وقبل أن يشاد السور أو تسوى الأرض،فتحت الكلية أبوابها وتدفق إليها الطلاب.

يمكن أن يفسر الاقبال الذي لاقته الكلية،ومنذ البداية،بأسباب عديدة ومختلفة،فالذين لهم موقف من مدرسة المطران،ومن الانكليز عموماً،وجدوا في هذه المدرسة حلاً مناسباً. والذين لم يكونوا يثقون ثقة كافية بالمدارس الحكومية،نظراً للعدد الكبير من التلاميذ في كل صف،وجدوا أنهم إذا دفعوا في مدرسة خاصة يمكن أن يحصلوا على نتائج أفضل. أما الذين اعتبروا "السوق" شراً يمكن أن يشغل التلاميذ،وقد يسرقهم قبل الأوان،ولأن المدرسة الحكومية في ذلك الموقع،فقد وجدوا في الكلية الجديدة مكاناً أكثر ملاءمة. وربما تكون لدى بعض الذين أرسلوا أولادهم أو أقرباءهم لهذه المدرسة أسباب دينية أو مسلكية،حيث يعتبر هؤلاء أن ما لحق الناس من مصائب،ومايعانونه من ويلات،بسبب ضعف التربية الدينية،أو قلة الدين،كما تعودوا أن يقولوا،وإن المدرسة الجديدة،والتي أخذت أسماً دالاً،لابد أن تولي الدين اعتبارها،وتعمل على اعادة تقويم وتربية الطلبة.

إذا كان للمدرسة،أية مدرسة،تقاليدها،بما في ذلك أن يكون للقدامى حقوق مكتسبة،فإن الكلية،وهي تستقبل الطلبة،بدت كالأرض البكر أو مثل المكان المحايد،إذ جاء إليها الطلاب دون عصبيات سابقة،ودون امتيازات لأحد. حتى الذين ساهموا ببنائها،وبعثوا أولادهم وأقرباءهم إليها،بدوا غائبين،عدا عبدالله أبو قورة،الذي كان كثير التردد على المدرسة،لأمور تتعلق بالبناء،ومع ذلك لم يستطع أن يتدخل،رغم وقوع المخالفات بعض الأحيان،إلا مع اقربائه المباشرين: عبد الغني ورزق،ولديه،وعبد المجيد،أحد أقربائه المباشرين،ومرة أخرى مع المستر ساتن مدير المطران!

كان عبدالله أبو قورة شخصية مميزة،فهو أول من سيّر الباصات بين عمان والمحطة،ثم في وقت لاحق سير باصات إلى جبل عمان. كان يضع في مكتبه،عند تلاقي شارعي الرضا والسعادة،لوحتين،كتب على الأولى: "ممنوع التكلم بالسياسة"،وعلى الثانية،وكانت فوق رأسه تماماً: "من راقب الناس مات هماً".

هذا الرجل بشواربه الكثة،المعتنى بها،وبطريقة تركه بنطاله منخفضاً على خصره،وكأنه صاحب كرش تراجع في اللحظة الأخيرة،أشبه مايكون بالمختار،فهو موجود في أكثر الأماكن وفي أكثر الأمور. وكان مميزاً بشكله وبتصرفاته،وأيضاً بصمته،حتى الحطة البيضاء التي يعتمرها،كانت تبدو حائرة،أو زائدة،ولكنه يصرّ على ارتدائها ليبدو مختلفاً عن التجار الآخرين ذوي الطرابيش!

خلال فترة قياسية استقرت صورة الكلية،وبدأت ملامح تميزها عن غيرها من المدارس،إذ بالاضافة إلى استقطاب مجموعة من الأساتذة الأكفاء،تضاعف عدد طلابها في فترة قصيرة،وكان بينهم خلال إحدى السنوات الأمير ـ الملك حسين،الذي قضى عدة شهور ثم سافر إلى الخارج،ولقد كان خلال تلك الفترة كبقية الطلبة من حيث البساطة والانضباط،وكان الأساتذة يعاملونه كما يعاملون الطلبة الآخرين.

أما المهرجان الرياضي الذي كان يقام في نهاية كل سنة،فقد أصبح أحد المواسم الاحتفالية في عمان خلال تلك الفترة،وكان قدري شاهين يحصد عدة ميداليات في كل مهرجان،خاصة بالقفز على الزانة.

من الأساتذة الأوائل الذين علّموا في الكلية اثنان مصريان: الأستاذ يوسف،وكان يدرس الفيزياء،نموذج للبراعة وخفة الدم وسعة الأفق،الأمر الذي جعل هذه المادة حية وعملية في أذهان الطلبة،أما الآخر،الأستاذ هلال،أو أبو شنب،كما أطلق عليه الطلاب،فكان رياضياً محترفاً،وله الفضل الأول في المهرجان الرياضي الذي كان يقام سنوياً.

الأستاذ يوسف البرقاوي،مدرس الدين،رجل بسيط،تقي،على باب الله،كما يقول الناس،يصحح أوراق الامتحانات ويمنح العلامات على قدر عدد الصفحات التي يكتبها الطالب،وعلى عدد الآيات التي يستشهد بها،وكان يردد: "هذه زوادة الدنيا والآخرة" !

أحد أبرز الأساتذة الذين مروا في الكلية: عبد الجبار الفقيه،أستاذ اللغة العربية. كان مثله الأعلى طه حسين،وهو مثل طه حسين درس وتخرج من الأزهر،وكان مثله أيضاً في العقل المتنور والعصري،وهو بالاضافة إلى براعته في التعليم،قرّر مجموعة من الكتب الالزامية للمطالعة،كان منها: على هامش السيرة،والأيام،لطه حسين،ويوميات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم.

كان هذا الأستاذ متمكناً وعاشقاً للغة،ولقد ترك تأثيراً بارزاً على معظم الذين درسهم.

أما الأستاذ الأرمني،زخريان،أستاذ اللغة الانكليزية،وكانت عربيته ثقيلة،فإنه يشبه أحد أبطال سارويان،بشواربه السوداء الكثة وقد لاحتها صفرة السجائر،وبالبيريه التي يرتديها أيام الشتاء،ثم الشال الطويل الطويل الذي يلفه حول رقبته عدة مرات ليقاوم البرودة والرياح. كان زخريان ضليعاً باللغة وبالتعليم،وكان ودوداً،ولقد استطاع أن يقيم علاقات جيدة مع الكثيرين.

لطفي ملحس،الأستاذ الآخر للغة العربية،رقيق بجسده وصوته. في أيام الشتاء،خاصة حين تهب الريح،يستبدل الطربوش بحطة،كما يتعمد أن يسير وسط مجموعة من الطلبة،لكي يكونوا له درعاً فلا تنتزعه الرياح أو تطوّح به!

إذا بدأ الأستاذ لطفي بتصحيح أوراق "الانشاء"،يضع يده على خده،مثل أمير الشعراء أحمد شوقي،لكي يكون في وضع مثالي،فيقدر الكلمات والتعابير،ليمنح العلامة المناسبة!

لقد دأب،خلال فترة معينة،على كتابة قصص وخواطر،وكان قبل أن ينشرها في الصحافة يقرأها على الطلبة،ليرى مدى تأثيرها،وبالتالي امكانية وصولها إلى القارئ.

الأستاذ محمود العابدي كثيف باهتماماته وتدفقه،يحول التاريخ إلى رواية،ويتحدث عن العصر الحجري كما لو أنه عاش في ذلك العصر،وشهد الانسان الأول وهو يصنع أدواته! أما إذا تحدث عن الأمين والمأمون فكان يبدو وكأنه قضى كل وقته معهما،وكان كاتم أسرار الاثنين معاً!

ولقد برزت براعة العابدي أكثر من قبل حين جاء ذلك الشاب الخجول،خريج جامعة بيروت الأمريكية،معتوق الاسمر،لكي يدرس التاريخ أيضاً.

إذ بمقدار ماحاول الأستاذ معتوق أن يثبت قواعد ومفاهيم في التعامل مع الواقعة التاريخية،وكان يجتهد في ذلك،إلا أن الطلبة الذي تشبعوا بطريقة الأستاذ العابدي،كانوا يؤثرون التاريخ كرواية،حتى لو كانت خيالية!

بعد أن غادر أستاذ الفيزياء المصري،جاء الأستاذ محمد أبو غربيه.

في الدرس الأول طلب أن يذكر كل طالب اسمه،وفي الدرس الثاني أصبح ينادي على الطلبة بأسمائهم،وكأنه يعرفها منذ وقت طويل! أما حين أصبح مديراً،في وقت لاحق،فكان يعرف أسماء جميع الطلبة.

بالاضافة إلى كفاءته كأستاذ للفيزياء والكيمياء،كان يتميز بروح ساخرة. إذا سأل عارف حدادين حول أمر ولم يعرفه،يهز رأسه ويقول:

ـ ليش مو عارف ياعارف؟

أما إذا تبرع محمود النجار للإجابة،وكانت إجابته صحيحة،فكان يهز رأسه باستغراب وهو يقول:

ـ عجيب .. رمية من غير رامي!

يغفر للطلبة المجتهدين بعض أخطائهم،ويعاملهم بود،أما إذا ظفر بطالب كسول متأخراً أو مشاغباً فإنه لايتردد في أن يلجأ إلى البوكسات والشلاليت،بعض الأحيان،في معاقبته!

أحمد بشناق أستاذ قدير،ورغم تهذيبه لايخفي قناعاته ولايموهها. عندما أعطاه بعض طلبته كراساً لميشيل عفلق ليبدي فيه رأياً،كان جوابه،بعد أن قرأه:

ـ لغة جيدة وأسلوب جميل،لكن الأفكار خاطئة!

أساتذة الرياضيات الذين تعاقبوا على الكلية لهم مزاج خاص: الأستاذ فريد يفترض أن الأرقام والمعادلات واضحة،والقانون الرياضي لايحتمل الخطأ،فإذا طبق لابد أن تكون النتائج صحيحة. ولذلك يستغرب كيف يخطئ الطلبة،أو لماذا لايفهمون مسألة من المسائل مادامت بهذا الوضوح! كان يقول حين يخطئ الطالب،وبطريقة فخمة:

ـ حمار .. أي نعم .. حمار!

اما الأستاذ الصياغ،وكمدخل لدرس الجبر،فقد جاء بمثل اصبح اسيراً له:

ـ اجمع اربعة حمير مع خمسة بغال.

وحين يجمع بعض التلاميذ،او يترددون في الجمع،يتابع الأستاذ:

ـ لايمكن الجمع مطلقاً،ولذلك نعتبر الحمير الف،والبغال باء،وهكذا تصبح الألف غير الباء وهذا أساس الجبر!

فإذا اضيف إلى هذا المدخل الذي بدأه الأستاذ صياغ ساعة الجيب الكبيرة التي يحملها،ويبدو ان الزمن كان يشغله كثيراً،بحيث يخرجها مرات عديدة،وفي فترات متقاربة،وينظر إليها بامعان،وكأنه نسي كم كان الوقت قبل قليل،أو ليتأكد ..

كانت هذه الساعة تثير ابتسام الطلبة،وبعض الأحيان قهقهاتهم،خاصة حين يسأل أحد الطلبة لماذا يبتسم،ويخرج الساعة في نفس الوقت!

ظلت "الرياضيات" قلقة،حائرة،إلى أن جاء الأستاذ موافي،فأخذت نسقاً مختلفاً.

إذا كان الأساتذة يتغيرون بين فترة وأخرى،فإن من المعالم الثابتة،البارزة والمميزة،التي بدأت مع الكلية الاسلامية واستمرت معها،شخصيتين أساسيتين: الأستاذ بشير الصباغ،المدير،وزهير كحالة،المسجل.

فالأستاذ بشير الذي بدأ مديراً،ثم أصبح رئيساً للكلية،قوي الحضور بالغ الحيوية،في الاشراف على البناء،في الادارة،في الرياضة،في متابعة "المنهل"،وأيضاً في الصراع السياسي خلال فترة لاحقة.

لم يكن من النمط الذي يجلس وراء الطاولة. كان يتابع البناءين،والذين يسوون أرض الملعب،وكان ينوب عن بعض الأساتذة الغائبين،ويحرص على ضرورة أن يرتدي الطلبة الملابس الرياضية أكثر من حرص استاذ الرياضة ذاته. أما إذا تأخر الطالب في تسديد القسط،لأسباب لايعتبرها مقنعة،فلا يتردد أن يكون معه حازماً إلى درجة القسوة.

الشخصية الثانية زهير كحالة: طويل،شديد النحافة،منظم إلى درجة الافراط،لايتكلم إلا بمقدار.

كان يدرس الرياضيات،في بعض الأحيان. وأثناء الامتحانات،ولكي يحكم المراقبة،يعتلي كرسياً،وعندئذ يكاد رأسه أن يلامس السقف!

وحده المسؤول عن البرنامج والحسابات والدفاتر،وكانت ذاكرته تسعفه في معظم الأحيان.

لكي تكتمل الصورة الأولية للكلية،خلال تلك الفترة،لابد أن تحضر شخصية سعيد،الآذن. كان رجلاً مسناً،يحرص على النظافة والتهذيب. له مهمات عديدة،من ضمنها رفع العلم. كان حين يفعل ذلك،ونظراً لاصابته بمرض عمى الألوان،لايميز بين الأسود والأخضر،ولذلك كثيراً ما رفع العلم مقلوباً!

هكذا بدت الكلية بموقعها ومكانتها في الفترة التي أعقبت الحرب. ورغم أنها ظلت بعيدة،نائية،بنظر الكثيرين،إلا أن البيوت أخذت تظهر هنا وهناك خلال الفترة اللاحقة. فجودت شعشاعة بنى بيتاً في مواجهة الكلية،وفوزي الملقي في الجهة

الأخرى،وبعده الشريقي. وشهراً بعد آخر ازدادت البيوت. أما الطرق غير المعبدة التي كان يسلكها الطلبة في الذهاب والعودة،وكان الأستاذ زخريان يشارك الذين يتوجهون إلى شارع المصاروة،حيث كان يسكن،المشوار،هذه الطرق لم تلبث أن أخذت تتغير،نتيجة الأبنية التي بدأت تجور على هذه الطرق القصيرة،ثم جاء سور الكلية ليمنع حتى فوزي الملقي من "المقاطعة" وصولاً إلى الشارع الرئيسي،إذ أصبح مضطراً لأن يلتف حول السور! وأصبح للكلية باب رئيسي واحد يجب سلوكه،وباب فرعي،جهة الجنوب،يفتح في بعض الأوقات!

كان الوصول إلى المدرسة في فصل الربيع ممتعاً؛ وفي فترات الصحو خلال الفصول الأخرى سهلاً؛ أما إذا هبت العواصف،وهطلت الأمطار،فعندئذ يصل الطلبة والأساتذة وقد غرقوا بالبلل والوحول.

في تلك الفترة بدأت المواصلات العامة،لكن على نطاق ضيق،إذ كان باص جبل عمان يصل،أول الأمر،إلى الدوار الأول،ويتجه بعد ذلك جنوباً ليمر بالقرب من الحاووز،ثم يلتف شرقاً لكي يقفل عائداً إلى وسط المدينة. وفي فترة لاحقة،ونظراً لبناء مدرسةٍ للبنات بالقرب من البرلمان،أصبح الباص يتابع سيره غرباً ليمر بمحاذاة سورِ الكلية الشرقي. وبين زاوية السور والبوابة مسافة تكفي لأن يبتل الانسان وقت المطر!

عدد الطلبة الذين تقلهم سيارات خاصة قليل جداً،وربما لايتجاوز أصابع اليد الواحدة. فعصام بدير توصله سيارة أغلب الأحيان،وكذلك حسان وزياد منكو،وعبدالله أبو قورة ينقل ولديه،عبد الغني وزرق،بسيارته البلايموث السوداء ذات الستة مقاعد،في بعض المرات،ويتركهم يمشون في مرات أخرى!

كان الذين يركبون السيارات يشعرون بالحرج،إن لم يكن من زملائهم،فمن الأساتذة،ولذلك كانوا يخرجون بسرعة،أو يتأخرون،لكي يتفادوا النظرات وبالتالي الارتباك. أما محاولاتهم في نقل الأساتذة فكانت تبوء بالفشل،إذ يفضل هؤلاء أن يكونوا مع الكتلة الكبيرة الراجلة،وكان الأمر،في أحيان كثيرة،لايخلو من متعة،رغم المطر والرياح.

كانت السيارات في عمان ذلك الوقت قليلة إلى درجة أن الصغار يميزونها من صوت البوق دون أن يروها! وكانوا يعرفون أصحابها،ومن يركب فيها،متى تمر،وإلى أين ذاهبة! كانت بعض السيارات تسبب لأصحابها الكثير من المشاكل،خاصة في فصل الشتاء،نظراً لقدمها.

فيوسف جقمان الذي سكن في شارع منكو،وكانت لديه سيارة يمكن كشف غطائها القماشي في الأيام الجميلة أو الحارة،أثارت الكثير من الفضول والاهتمام في البداية،لكن مالبثت ان اصبحت مثاراً للمتاعب حين اقبل الشتاء،إذ تحتاج إلى من يدفعها حتى تصل إلى بداية المنحدر،مقابل دار سعيد المفتي. والتلاميذ الذين حافظوا على مسافة بينهم وبين هذه العائلة الجديدة،مالبثوا ان أصبحوا جزءاً من الطاقم الذي يستعين به جقمان لدفع سيارته،خاصة وأن فرحة،المراة،الأخت او الخادمة،لايدرى (!) لم تكن تقوى على هذه المهمة،مما جعل التلاميذ يشفقون عليها،ثم يحلون مكانها،والمقابل: أن ينقل جقمان الذين ساعدوه إلى اقرب نقطة تمكنهم من مواصلة طريقهم إلى مدرستهم!

في وقت ما،بعد نهاية الحرب بسنة،تقريباً،وصلت إلى عمان مجموعة من السيارات الجديدة،كانت من نوع "نش" و"ستديوبيكر" ،ولقد خصص أديب الصباغ،الذي استوردها،بعضاً منها كسيارات اجرة،مما اثار الكثير من الاهتمام والتغيير في المدينة،نظراً لقلة عدد سيارات الأجرة،ولأن أغلبها لايعمل إلا "بالمناويل".

ولأن الشوارع لم تكن معبدة،فإن السيارات،خاصة ايام الشتاء،تصل إلى أمكنة معينة لاتتجاوزها،خوفاً من "التغريز". حتى في حالات الضرورة،كالمرض مثلاً،وحين يتم استئجار سيارة "سكارسا"،كان الدكتور شقير يضطر لقطع مسافة اضافية على قدميه،رغم الصعوبة،لأن السيارة لاتصل! اما سيارة الدكتور ملحس،الانكليزية الصغيرة،وربما من نوع موريس، فكانت،مثل صاحبها،مناضلة،لاتبالي بالمياه والوحول،إذ تحاول اجتياز أطول مسافة ممكنة نحو البيت الذي تقصده،مامكنتها الطريق من ذلك.

قبل متابعة،الكلية في مرحلتها اللاحقة،لابد من وقفة عند بعض الأحداث التي وقعت في عمان خلال تلك المرحلة.

١٥

رغم أن دويّ مدافع الحرب الثانية لم يصل إلى عمان،إلا أن آثار تلك الحرب،ثم نتائجها ـ وقد وصلت في وقت مبكر ـ أخذت بالتزايد والاتساع يوماً إثر يوم. فبعد أن باع الكثيرون الذهب الذي كان لديهم،باعوا أيضاً النحاس ثم الصوف،في محاولة لمواجهة المصاعب والأسعار التي استمرت بالارتفاع. أما ذلك التراحم الذي ساد في بداية الحرب،وكان من سمات الناس،فقد بدأ يتقلص ويتراجع مادامت الحرب تتطاول وتمتد،وتبدو لكثيرين وكأن لانهاية لها.

بطاقات التموين التي وفرت لأسر كثيرة حداً ضرورياً،وإن لم يكن كافياً،من المواد،وكانت تسمى الاعاشة،اضطربت وساءت خلال السنين الأخيرة للحرب. كما أنه لم يبق لدى الناس مايبيعونه أو ما يبادلون به،الأمر الذي دفع الكثيرين،ممن جاءوا من القرى والبلدات،لأن يعودوا إلى قراهم وبلداتهم،أو لأن يعتمدوا عليها في تأمين مايحتاجون إليه،إذ طبيعة الحياة والعلاقات في القرى أسهل وأكثر رحمة. كما أن عدداً متزايداً من الرجال التحق بالجيش أو بقوات البادية،إضافة إلى سفر آخرين،بحثاً عن عمل،خاصة وأن قوات الحلفاء في فلسطين ومصر وطرابلس الغرب،أصبحت بحاجة إلى عمال أو مستخدمين في المعسكرات.

الحياة في الأقطار المجاورة للأردن،خاصة سورية،اضطربت وزادت فيها المصاعب والتحديات،مما دفع عدداً كبيراً للمغادرة المؤقتة،بحثاً عن أماكن أكثر أمناً،ولقد جاء قسم من هؤلاء إلى عمان.

كما أن الجزيرة العربية التي تعودت،عندما تضيق بساكنيها،أن تدفع بالفائض منهم إلى الهجرة،فقد استمرت تفعل الأمر ذاته،وهكذا تواصل تدفق الآتين من هناك إلى عمان.

كان رأس العين،في بعض الأحيان،يمتلىء بالبشر ليل نهار،وكان معظم هؤلاء ينام تحت السماء،مامكنّهم الطقس من ذلك،وماداموا قادرين على احتماله. فإذا

زادت البرودة عن حد معين،يبدأ البدو بالنزول إلى الغور،وقد يتابع بعضهم إلى مصر عبر فلسطين.

كان أغلب الذين يأتون فقراء أو أقرب إلى الفقر. وإذا تعودت عمان،في سنين سابقة،على استقبال القوافل والرعايا بفرح،لأن عمليات البيع والشراء سوف تتسع،ولابد أن يصل الخير إلى الكثيرين،فإن قوافل الحرب كانت صغيرة،متباعدة،وشديدة البؤس أيضاً،ولذلك أضافت إلى الفقر الموجود فقراً جديداً،وإلى المعاناة معاناة أوسع وأعمق،ومع ذلك فإن الحياة علّمت الكثيرين أن يكتفوا بأقل الأشياء،وأن يحتملوا ويصبروا،لعل الأيام الآتية تصبح أكثر خيراً ورخاء من الأيام التي يعيشونها الآن.

ولكن الأيام،فترة بعد أخرى،تزداد صعوبة وضيقاً بالنسبة لأغلب الناس. ومع الصعوبة والضيق،خوف،بدا أول الأمر مبهماً،لكن مالبث أن أصبح واضحاً وأقرب إلى الهّم،ولقد تمثل ذلك بتزايد اعداد المهاجرين اليهود إلى فلسطين،مع اشارات أخذت تتضح شيئاً فشيئاً أن خطراً من نوع آخر يترصد الناس،ولن يتأخر حتى ينفجر في وجوههم.

وإذا كانت الحرب شراً للناس،معظم الناس،فإنها لبعضهم فرص للثراء والاحتكار،ولتغيير السلوك والعلاقات. ولعل أبرز ماظهر في تلك الحرب حمّى "الكوتا"،وهي اجازة الاستيراد لبعض المواد الضرورية،وقد اختص بها عدد من التجار،مما أدى إلى ثراء هؤلاء بشكل يفوق التوقع أو التصور،لكن ظل ثراء أكثرهم خفياً متوارياً خلال فترة الحرب،لكي يظهر بعدها.

لقد عبّر هذا الثراء عن نفسه بمظاهر لاتخفى،وبعض الأحيان شديدة التحدي،إذ شيّد البعض أسواقاً،وأقام غيرهم العمارات الكبيرة،كما بدأ آخرون بشراء الأراضي الواسعة والمضاربة بها،هذا عدا عن السيارات الجديدة الفخمة التي أخذ يقتنيها هؤلاء وأبناؤهم.

فالأبنية التي شيدت على طريق السلط كانت نمطاً جديداً لم تألفه عمان من قبل،إذ كانت على شكل مجمعات وأسواق كبيرة،كما أقيمت دارات أقرب إلى القصور ببنائها والمساحات المحيطة بها. اكثر من ذلك سميّت مناطق وشوارع بأسماء الذين ملكوها!

أما السيارات التي ظهرت بعد الحرب،وكانت من الأنواع الفخمة،المرتفعة السعر،فلا يمكن مقارنتها أبداً بتلك التي كانت أثناء الحرب أو قبلها. حتى سيارة

منكو،الكرازيلر،السماوية اللون،ورغم نظافة السائق وعنايته،بدت قديمة جداً،وصغيرة أيضاً،قياساً لبعض السيارات التي تم استيرادها بعد الحرب!

ليس ذلك فقط،فبعد أن كانت عمان تخاف الابتعاد عن النهر والسوق،وبنت بيوتها قريباً منهما،أخذت في المرحلة الجديدة تمتد وتتسع،إذ شيدت مجموعة من البيوت في سفوح الجبال،خاصة جبل عمان وجبل اللويبدة،وكان بعضها واسعاً رافهاً،أقرب إلى الفخامة غير المألوفة،من حيث هندستها أو ألوان حجارتها.

الجدة التي كانت متقشفة بأكلها ومطالبها،أصبحت في هذه المرحلة أكثر تقشفاً. أما عندما جاء الربيع،ونزل الفول،فقد أخذت تلّح على ضرورة أن تكون "الباجلا" الوجبة الأساسية،والتي يجب أن تطبخ كل يوم!

قالت ذات مرة،حين جيء بخضرة أخرى:

ـ شنو،ماكو باجلا اليوم .. ؟ شنو خلصت؟

وحين قابلتها الابتسامات ولم تتلق جواباً،تابعت:

ـ يخلف عليها أم عبدالله،هي مو مثل بعض الناس الفسقانين اللي يركبون أشكال وارناق صبح وعشية،ويمردون الفلوس مرد!

لم يقتصر الأمر على ذلك،فقد أصرت الجدة على السفر من جديد ـ مثلما أصرت عام ١٩٤١ وغادرت إلى بغداد.

لم تطل غيبتها هذه المرة،إذ قبل أن ينقضي شهر عادت. وإذا كانت قد تعودت في سفراتها السابقة على جلب أباريق الشاي التي تحمل "رسوماً" جديدة ومميزة. وجلبت معها سدارات في مرة أخرى،فقد حملت في هذه السفرة مجموعة من الصرر: حملت رزاً وشاياً وسكراً. كان السكر على شكل قوالب كبيرة مخروطية،مغلفة بورق أزرق داكن أقرب إلى لون الحبر. كما حملت مجموعة من الدفاتر والأقلام،إضافة إلى ساعة جيب قديمة،لونها يميل إلى الصفرة،وخاتماً له "فص" من عقيق ورثته عن أمها،وكانت تخبئه في بغداد لنوائب الأيام!

كانت وهي تستخرج الصرر،وتفردها،حزينة وفرحة في آن واحد. حزينة لأنها لم تستطع أن تحمل معها كميات أكبر،وأنها لم تجلب أشياء أخرى،وفرحة "لأن الهدايا" كما قالت "ليست شقّد تسوي،كم مثقال ذهب أو فضة،الهدية بحاجة البني آدم لها،وشقّد تفيده".

وبين الشرح والتوضيح والاعتذار،كانت دموع الجدة تتساقط بهدوء ووداعة

على خديها،وكانت غير مضطرة لأن تخفيها أو لأن تمسحها،كما كانت تفعل في العادة!

الذين راهنوا على انتصار هتلر،"أبو علي"،وكانوا،خلال فترة سابقة،مطمئنين،بدأ الشك يساورهم،إذ أصبحوا أقل اطمئناناً،خاصة مع توالي هزائم المحور،وتضييق الخناق على ألمانيا. وفي محاولة للتغلب على الضيق أو الاحباط الذي يحسون به،أخذوا ينشرون أخباراً أن شيئاً ماسيقع في اللحظة قبل الأخيرة،ولابد أن يغيّر موازين القوى،ويقلب الأمور على الانكليز بشكل خاص،الذين يعتبرون سبب كل الشرور والمصائب! كانوا يقولون ذلك علناً،وهمساً يقولون: إن لدى هتلر سلاحاً سرياً سيستعمله في الوقت المناسب!

لكن هزائم ألمانيا تواصلت،ولم يستعمل هتلر السلاح الذي بشّر به "أصدقاؤه"! وعندما أُعلن عن انتهاء الحرب وانتصار الحلفاء،روّج هؤلاء شائعات قوية عن خروج هتلر سالماً،ولجوئه إلى مكان مجهول لكي يواصل الحرب! قالوا إنه ذهب إلى الأرجنتين،لكي يبدأ من هناك مرة أخرى؛ وقالوا إنه في بارجة حربية سوداء يجوب البحار،ويحوزته السلاح السري الذي سوف يستعمله ولابد أن تظهر آثاره!

أما حين تأكد سقوط الرايخ نهائياً،وتأكد موت هتلر،فقد قال راضي أبو الشوارب،وكان يحب هتلر نكاية بالانكليز،قال في مجلس عبيدان،وأمام كثيرين:

ـ أبو علي .. وراح . افرحوا. حنّوا أيديكم ورجليكم ...

ابتسم بسخرية،هز راسه،وتابع بطريقة فخمة:

ـ وهسّا خلي كل واحد يحَضر صرمه لشلاليت الانكليز واليهود!

وقام من المجلس غاضباً وهو يردد:

ـ اللهم اشهد: إنني بلغت،وما على الرسول إلا البلاغ!

في أحد أيام الصيف الحارة،امتلأت عمان بمئات،بآلاف الجنود. كانوا بألوان وأشكال عديدة وشديدة الغرابة. كان قسم منهم راجلاً،وقسم يركب الخيول،وكان القليلون يركبون سيارات عسكرية. فيهم الشقر من استراليا،وفيهم السود من أفريقيا،خاصة من السنغال،وفيهم أعداد كبيرة من الهند.

وصل هؤلاء إلى عمان فجأة،وأخذوا يجوبون الشوارع طوال النهار على شكل مجموعات. كانوا يملؤون جيوبهم بعناقيد العنب وأزرار البندورة

والخيار،كانوا يأكلون ويتمازحون ويغنون. ملابسهم بسيطة أقرب إلى القذارة،وجوههم فرحة لكنها لاتخلو من تعب ومعاناة.

كان أهل عمان،الذين وقفوا على الأرصفة وفي بوابات الدكاكين وأطلوا من الشبابيك،ينظرون إلى هؤلاء الجنود بحياد. كانوا يراقبون ويدققون ليعرفوا أي بشر يكونون. والجنود الذين لايبالون بنظرات الناس يواصلون أكلهم ومرحهم وسط السوق. كانوا يسيرون في الشوارع ذهاباً وإياباً،فإذا وصلوا في مسيرتهم التائهة إلى المدرج الروماني قفلوا عائدين،ليملأوا من جديد شارعي السعادة والرضا. فإذا التقوا من جديد في شارع فيصل تصافحوا وصخبوا وكأنهم يلتقون بعد فراق طويل!

ظل الأمر كذلك طوال النهار. وفجأة،بعد العصر وقبل الغروب،هدأت الحركة،وغاب الجنود. ظن الناس أن كل شيء انتهى،لكن ماإن تسربت الظلمة قليلاً حتى تدفق الجنود من جهة طريق السلط،تدفقوا بكثافة وبانتظام،وكانوا يحملون المشاعل،وتتقدمهم فرقة موسيقية،وعلى الجانبين فرسان،خاصة عند تقاطع الطرق.

كانت مسيرة كبيرة وفرحة،وقد استمرت حتى وقت متأخر من الليل.

في اليوم التالي انتهى كل شيء،إذ واصل الجنود سفرهم ورحلوا إلى مكان آخر،وربما كان هذا أبرز مظاهر النصر في عمان!

قبل أن تنتهي الحرب بشهور كانت الأخبار تتوارد من سورية وفلسطين،ومن أماكن عربية أخرى،وكلها تتحدث عن خديعة الحلفاء ومكرهم،وعن قسوتهم أيضاً، ،وكيف أنهم تخلوا عن الوعود التي أعطوها في بداية الحرب،ثم كيف لجأوا إلى القسوة والقتل لإخماد صوت المطالبين بالاستقلال والحرية. أما عندما وصل نبأ مجزرة أيار في دمشق،فقد خيم الحزن والغضب على عمان،وأصابها الذهول. اقيمت صلاة الغائب على أرواح الشهداء،وفتح الكثيرون من أهل الشام وغيرهم بيوتهم لتقبل العزاء،وقيل أن وفوداً شعبية زارت المقر وقابلت الأمير.

ماكادت أيام تمر على هذه المجزرة،حتى انتشرت أخبار أن الانكليز تدخلوا واوقفوا حماقات الفرنسيين،وذهبت الأوهام ببعض الناس إلى درجة توقعوا حرباً بين الانكليز والفرنسيين!

حين "نوقش" الموقف في مجلس عبيدان،قال راضي أبو الشوارب:

ـ ياجماعة الخير كبّروا عقولكم،ولازم تعرفوا: الكلب أخو السلوقي،ومالكم سند إلا أبو علي.

وحين وجد من اعترض على كلام راضي،وأكد أن الخلاف بين الانكليز والفرنسيين جدي،ويمكن أن يؤدي إلى حرب،قال راضي وهو يضحك:

– طعموا حالكم جوز فاضي،واحلموا!

ولما ظل الخلاف قائماً،والنقاش محتدماً،وفي لحظة تخيرها راضي واعتبرها مناسبة،قال بعصبية في محاولة لأن يؤثر على الموجودين:

– ابليس مابيخرب بيته،ياجماعة،فما دام أبو علي موجود،الانكليز والفرنسيين طيزين بلباس واحد،ماممكن يختلفوا أو يتحاربوا،وهذي خذوها من هذا الشارب!

ووضع يده على شاربه،ولأن الآخرين يعرفون اعتزاز راضي بشواربه،وماتعني له،فإنهم في مثل هذه الحالات لايجرأون على الابتسام،إذ يتذكرون ماحصل أكثر من مرة بين راضي وآخرين حين وصلت الأمور إلى الشوارب!

الجدة التي سمعت الكثير مما قيل حول احتمال تدخل الانكليز،وبعد أن استفسرت عدة مرات لتتأكد،سألت بسخرية:

– مجنون يحكي وعاقل يفهم! أحد يصدق أن أبو حنيك يريد يساعد المسلمين؟

وحين أكدوا للجدة أن الانكليز تدخلوا بالفعل،وأوقفوا الفرنسيين،ردت بسخرية:

– وهسّه شلون يخلص أهل الشام؟ شلون راح يطلعوا الزمال من هالوحلة؟

وبعد قليل وكأنها تتحدث لنفسها:

– اويلاخ على اللي راح يصير بأهل الشام ...

زفرت بحرقة ثم أضافت:

– هذا اللي يريده الانكليز،ومثل ماقالوا: أمِن البزون شحمة!

الدعوة للاستقلال،والتضحية من أجله،لم تتوقف،قبل مجزرة أيار وبعدها. وإذا كانت هذه الدعوة أوضح في سورية،وأكثر دموية،فإنها مطلب أساسي في جميع الأقطار. ولذلك ماكادت الحرب تنتهي،بعد الذي حصل في سورية،حتى أصبحت المطالبة بالاستقلال حديث كل يوم في عمان.

أعلنت بريطانيا رسمياً في اجتماع لهيئة الأمم المتحدة مطلع عام ١٩٤٦: "بتطور شرقي الأردن تطوراً جعلها أهلاً للاستقلال التام ورفع الانتداب عنها،وان الحكومة البريطانية تتخذ الخطوات السريعة للاعتراف بشرقي الأردن دولة مستقلة ذات سيادة".

ولم تمض شهور قليلة حتى استقل الأردن.

كان يوم الاستقلال حافلاً في عمان،فقد خرج الناس جميعاً إلى الشوارع مبكرين،وكان سعيد الحظ من يجد له مكاناً في شارع فيصل،قريباً من المنصة التي أقيمت عند تلاقي هذا الشارع مع الرضا والسعادة. أما عندما وصلت وفود المناطق والأقطار العربية الأخرى،فقد بلغ الزحام،الممزوج بالفرح والتسامح،إضافة إلى الأهازيج،درجة تفوق التصور وتتجاوز الخيال.

جاء فرسان البادية،وفرسان الشركس. جاءت وفود المدن والقرى،وجاءت عراضات من مدنٍ سورية عديدة،لعلّ أهمها عراضة الحموية.

كانت هذه الوفود تأتي من جهة الشرق،أغلب الأحيان،من جهة المدرج الروماني،مارة تحت أقواس الزينة التي نُصبت في أمكنة عديدة،وماتكاد تصل،وقد سبقتها الأهازيج،إلى شارع فيصل،حتى تقابل بالتصفيق والهتافات،الأمر الذي يخلق حالة من الانفعال الشديد. كانت وجوه الناس وتصرفاتهم أقرب الى وجوه الأطفال وتصرفاتهم،إذ يضحكون،وبعض الأحيان يبكون،في آن واحد. يصمتون مذهولين أو ينفجرون بالصياح دون أسباب واضحة. كانوا يفعلون ذلك بطريقة أقرب إلى الهياج،وقد اختلطت في أذهان الجميع ذكريات وعواطف وآمال لايعرف كيف تشكلت أو لماذ تعبر عن نفسها بهذه الطريقة.

إنه يوم استثنائي في حياة عمان،وربما لايتكرر إلا نادراً،وقد قال هذا اليوم الكثير عن أحلام الناس وطموحاتهم،وعن معاناتهم أيضاً.

قال الذين ذهبوا إلى الرصيفة،وكان عددهم بالآلاف،إنهم لم يروا في حياتهم وليمة مثل تلك التي أقيمت هناك،سواء بعدد الخراف التي ذبحت،أو الأهازيج التي ظلت تتردد في جنبات الوادي. وقالوا إن رصاصاً غزيراً أطلق في ذلك اليوم.

الجدة التي كانت شديدة الانفعال والفرح،سألت في المساء المتأخر،بعد العودة إلى البيت:

ـ يابا .. خلصنا من أبو حنيك؟

وحين جاءتها الاجابات متداخلة ملتبسة،فهمت منها أنه لايزال موجوداً،قالت:

- الحيال يلطم ويّا صاحب البيت ويقسم ويّا الحرامي!

وظلت عمان تحاول وتنتظر استقلالاً أكمل وأوضح،وكان يتمثل ويتجدد بالخلاص من "أبوحنيك"!

في السنة التالية للحرب جاء التيفوس. بدا اول الأمر مرضاً غامضاً،لكن بعد عدة وفيات أمكن تشخيصه،ففتحت أبواب الكرنتينا لتستقبل المصابين. كان معظم الذين يصلون إلى هناك لايخرجون أحياء،لأن عادة الأهل أن يتكتموا على الاصابات لأطول فترة،فإذا انكشفت يكون المرض قد استفحل،وبالتالي احتمال النجاة محدوداً.

يؤكد راضي أبو الشوارب أن عبيدان قتله أبو حنيك،وحين يردون عليه أن الرجلين كانا صديقين،ولايعقل أن يقتل الصديق صديقه،يرد وهو يبتسم بسخرية:

- الانكليز،ياجماعة الخير،ما لهم صاحب،وأبو مسفر،الله يرحمه،راح معهم بعيد بعيد،صار يعرف أسرارهم ورجالهم،وهذا ما يهون عليهم ..

وحين يبدو كلامه غير مقنع،يتابع،وقد تغيرت نبرة صوته:

- الدكتور ملحس قال: "خلوه بالبيت،وأنا أشرف على علاجه،وعلى يدي،وبمشيئة الله،يشفى"،لكن عندما عرف كلوب،قال: "الكرنتينا أحسن". قال هذا الكلام وبعث رجاله وأخذوا عبيدان مثل ماياخذوا السخل،وكانت روحة بلا ردة!

ويقولون لراضي أن الكرنتينا هي المكان الذي أخذ إليه كل الذين أصيبوا،فيرد بنزق:

- ياجماعة خذوا مني: كرنتينا عن كرنتينا بتفرق،واحد ياخذوه حتى يدفروه،حتى يخلصوا عليه،والثاني يتركوه لرب العالمين.

ويذكرونه ببنت أبي حاتم الطيان،وكيف أُخذت إلى الكرنتينا وشفيت هناك،وعادت،فيقول ساخراً:

- حتى رب العالمين يزيد لأبو حاتم همّ جديد وكأن مرته لاتكفي!

قد يكون عبيدان مات موتاً طبيعياً،وربما من الرعب(!)،لكن الشيء المؤكد أن

التيفوس الذي مرّ تلك السنة خلق حالة من الخوف أقرب إلى الفزع. حتى عبيدان تجنب المرور بالقرب من بيت أبي حاتم،وجاءت الصحية،بعد أن أُخذت البنت المصابة إلى الكرنتينا،وبخرّت البيت،ومنعت الدخول إليه أو الخروج منه لبضعة أيام،وقد فعلت الأمر ذاته في بيوت المصابين الآخرين.

أم أحمد التي بدأت تسمع أخبار المرض والوفيات،وتحار في أسبابه،كانت توصي كل من يمر بها:

ـ ياوليداتي .. عليكم بالزيت والشمس ..

تنظر إلى الوجوه وتتابع:

ـ فتّوا خبز بالزيت وكلوا،لأن الزيت يقوي ويبارك .. والشمس معروفة مابدها أخذ وعطا!

وحين تواجه بالصمت،تسأل من جديد:

ـ قولوا لي شو دينه هذا المرض .. مثل ذاك؟

وحين يشرحون لها أن التيفوس غير السل،وأنه مرض جديد ووافد،وسببه الأساسي القذارة،تقول،ويخرج صوتها حاداً:

ـ الله يخزي نسوان هالأيام،دايرات على حل شعرهن،وتاركات بيوتهن وولادهن بدون نظافة وبدون ...

ويأتيها صوت أم خليل من أعلى قبل أن تكمل عبارتها:

ـ خلي الناس بهمومها يااختيارة.

ترفع أم أحمد رأسها،وتجيب بسخرية،لكي تنهي الحديث:

ـ القول قولك !

لم يمض على التيفوس أكثر من سنة حتى جاءت الكوليرا!

صحيح أن الكوليرا لم تصل،كوباء،إلى هنا من قبل،لكن الكثيرين سمعوا بها أو عرفوا عنها من الذين سافروا إلى مصر عن طريق غزة هاشم،أو عن طريق البحر. فرعايا الغنم التي كان يؤتى بها من هناك،والخيول العربية الأصيلة التي كانت تُشترى من محافظة الشرقية وبلبيس والصعيد،وكانت تمر بسهولة في السنين العادية،أصبحت عرضة للتأخير أو المنع في سنوات الوباء. حتى الخيول

التي ترسل للمشاركة في سباق الاسكندرية،كانت تحجز في الحجر الصحّي لبضعة أيام،ريثما يتم التأكد أن مرافقيها خالون من الكوليرا.

كانت أخبار الكوليرا تصل،أول ماتصل،إلى سوق الحلال برأس العين،فتخلق حالة من الارتباك والخوف لدى الكثيرين،الرعاة وأصحاب الرعايا،إضافة إلى كل من له علاقة بالسوق،لأن الحجر الصحي في العريش،أو في نقاط العبور الأخرى إلى مصر،لايعني مجرد أيام يقضيها المسافر وراء الأسلاك للتأكد من خلوه من المرض،وإنما الخوف من النتائج،وبالتالي فشل الرحلة،إضافة إلى خوف الموت في ديار بعيدة.

هكذا كانت الحال في بعض السنين السابقة،أما حين وصلت الكوليرا إلى عمان،وذلك الموت السريع الذي يعصف بالانسان،والخوف من العدوى،والاشتباه بالأكل والشراب في أن يكون أحدهما أو كلاهما سبباً لانتشار المرض،وماترتب على ذلك من منع أنواع معينة من الخضروات،اضافة لافتقاد عبده (المدني؟) الذي كان يدور بعربته لبيع البوظة،وغياب الأولاد مع علبهم المعدنية وهم يملأون الشوارع بصراخهم: "ألاسكا"،فقد جعل الكثيرين يعيشون في رعب دائم،لايعرفون مايأكلون وما يدعون.

قالت الجدة،وهي تسمع أخبار الموت كل يوم:

ـ يابا آني مسلّمة عليكم،واريد اقولكم: في أمان الله ...

وحين نظرت إليها العيون متسائلة،تابعت:

ـ يابا آني أريد أموت بديرتي،وموصيّة اندفن بصف أمي وأبوي،بالشيخ معروف.

وصدرت الأصوات تطلب للجدة العمر الطويل،وتطلب منها أن تبعد فكرة الموت،وأن لاتتحدث عنه أبداً،فتقول:

ـ كلنا راح نموت،وآني أريد أموت ببغداد.

بصعوبة بالغة أمكن اقناع الجدة بتأجيل السفر،خاصة بعد أن أخفوا عنها أخبار الوفيات،وبعد أن تراجع المرض فعلاً،لكن نتائج الوباء ثم آثاره،كانت كبيرة،وربما تذكر الناس ذلك بعد وقت،حين دخل الخريف،ثم بعد الشتاء.

قالت الجدة،وهي تتذكر تلك الأيام:

ـ كل شيء ولا مرض أبو زوعة،يوم والثاني ينمرد البني آدم،ينشف،وبعدها الله ياخذ وديعته.

كان يمكن للناس في عمان أن يستمروا في تذكر الأوبئة والمصاعب التي مرت،لو لم تأت ايام أصعب. جاءت الأيام الأخيرة المضنية من عام ١٩٤٧،ثم جاءت سنة ١٩٤٨الثقيلة القاسية،ولهذه حديث آخر!

أما حين جاءت سنة ١٩٤٩ القاحلة،فقد جاء معها الجراد!

كان الصغار يعرفون الجنادب ويلاحقونها،وكانت الجنادب تعرف كيف تختفي ومتى تطير. فإذا ظفر الصغار ببعضها ينظرون إليها،إلى أرجلها وعيونها العجيبة،إلى لونها الذي يشبه التراب،وبعد أن يتملوا منها يقطعون الأرجل أو الأجنحة،ويراقبون تصرفاتها،طريقتها في الدفاع،حتى إذا سكنت تركوها،لتأتي بعد ذلك القطط أو النمل وتتصرف بالباقي.

هذا مايتذكره الصغار عن الجنادب،والتي تسمّى جراداً أيضاً.

الذين لهم أقارب أو معارف في سوق الحلال يعرفون أن البدو يأكلون الجراد،يعرفون ذلك ويستغربون،بل ويتساءلون كيف يؤكل،وماذا يؤكل منه! خاصة وأن الشوام يسخرون ويعيّرون البدو بأنهم الذين يأكلون الجراد!

ربما رأى المسنون الجراد في سنة من السنين القديمة،وربما أكل بعضهم منه،لكن لفرط بعده وغيابه،فإنه لايُذكر إلا في سنوات المحل،أو عندما يُدهش أحد الآكلين الآخرين بشراهته فيقولون عنه إنه كالجراد!

هذه هي الصورة عن الجراد في أذهان الناس خلال فترة الأربعينات،أما عندما وصل فلم يكن أحد يصدق ما يرى!

ارتال ليس مثلها النمل. اعداد ليس مثلها أكوام القمح.

الشمس،في رابعة النهار،تختفي،تحتجب،حين تمر هذه الأسراب. كانت تطير على ارتفاعات ليست عالية،كانت مثل الغيوم الترابية بألوانها،بكثافتها،بذلك الحفيف الأقرب إلى الونين حين تعبر طائرة من مكان إلى آخر.

إذا نُظر اليها،وهي تمر،في مواجهة الشمس،يغلب اللون القاتم،الأقرب إلى السواد،ألوانها الحقيقية،لأن الكثافة المتراصة السميكة تجعل نفاذ النور من خلالها مستحيلاً،كما أن هذا الطيران الثقيل الأعمى يولد فجوات هنا وهناك فيَحول الضوء إلى مساقط تجعل الأسود وحده الذي يرى،ووحده السائد.

كانت الأسراب تطير ثم تتهاوى. كانت تتساقط مثل البرد الثقيل. وفي طيرانها وفي سقوطها تبدو مخيفة،سمجة،ثقيلة،حتى ليحار الانسان: هل يتجنبها؟ هل يسرع إلى قتلها؟ هل يتأمل هذه المخلوقات التي هبطت فجأة ودفعة واحدة؟

تطير وتتهاوى. تسقط في كل مكان: على الأسطحة،على الأشجار،على الأرض. كانت تملأ الأمكنة كلها. ماتكاد تسقط،وخلال ثوان قليلة،حتى تبدأ الزحف. تنسى أجنحتها تماماً،وتبدأ بتلك الأرجل التي يشبه جزء منها المناشير،تتحرك. وفي طريقها لاتترك شيئاً.

لايمكن للانسان أن يستعيد شكل أو تصرفات تلك المخلوقات وهي تأكل وتتبرز في نفس الوقت،لأنها أقرب إلى عدم التصديق،أقرب إلى الحلم.

فجأة كل شيء يتحول إلى اللون الأصفر الترابي الكامد. أما الأشجار التي هبطت عليها تلك المخلوقات،وكانت إلى ماقبل دقائق خضراء،فلا تلبث أن تتحول إلى اللون البني المحروق،بعد أن تعرت من أوراقها،وأصبحت مجرد عيدان.

كل شيء يتحول خلال فترة قصيرة.

كيف يمكن الوقوف،أو التصرف،في مواجهة هذا الطوفان المفاجئ؟ إلى متى سيستمر؟ والأسراب التي ستأتي .. أكثر أم أقل؟ وإذا كانت هذه الأسراب أتت على الخضرة والأشجار،فماذا ستفعل الأسراب التي ستليها؟

حتى الأسئلة تبرق في الذهن ثم تغيب،لأن الانسان أعجز عن التفكير.

وإذا بدا الانسان عاجزاً في بعض اللحظات،فإن الطبيعة،بعناصرها المتعددة،تتولى،بعض الأحيان،الإجابة. فالرياح التي تهب تحدد لهذه المخلوقات اتجاه سيرها،المدى الذي يمكن أن تصل إليه،الحالة التي تكون فيها.

كابوس ثقيل مر على عمان تلك السنة. ورغم كونه واقعياً،ملموساً،كثيفاً،إلا أنه أقرب إلى الحلم،حتى ليميل الانسان إلى عدم تصديقه،او لاجبار نفسه على نسيانه،إذ لايتصور أن مثل هذا ممكن،أو أنه وقع بالفعل.

ومثل التيفوس والكوليرا ... مر هذا الكابوس أيضاً بعد أن خلف جروحاً حتى في الروح!

١٦

الفترة الثانية في مسار الكلية الاسلامية ـ إذا جاز التقسيم ـ هي الفترة السياسية. والأمر،هنا،لايتعلق بالكلية ذاتها،أو وحدها،فالأردن بعد الحرب،وأثر بداية تغيّر علاقته ببريطانيا،دخل مرحلة جديدة،مرحلة كان العمل السياسي أحد أهم عناوينها،إن لم يكن العنوان الوحيد. وإذا جرى الحديث،معظم الحديث،حول الكلية الاسلامية،فليس أكثر من محاولةٍ لقراءة الأحداث والمحاولات من خلال بؤرة محددة،يمكن أن تعكس،ويُرى من خلالها،وضع البلد بشكل عام.

فالاسم الذي اتخذته الكلية،حاولت في المرحلة الجديدة،أن تعطيه صيغة عملية،من خلال الالتزام بطقوس معينة،خاصة أداء الواجبات الدينية،الصلاة بالدرجة الأولى،ثم الصيام،بعد ذلك،خلال شهر رمضان.

لذلك أقيم مصلى في الكلية،وكان الأستاذ يوسف البرقاوي يؤم التلاميذ في الصلاة مرتين،ظهراً وعصراً.

في السنة التالية جاء الأستاذ حمدي الطاهر ليؤم التلاميذ،ولكي يخطب فيهم أيضاً! كان الأستاذ نموذجاً "للشطارة" الشعبية،حيث يتبع الاسلوب الذي يلائم الطرف الأقوى،إذ يلجأ إلى الابتسام والتحلي بالتواضع والتقوى،ومحاولة الاقناع،ولايتردد في اللجوء إلى التخويف من اليوم الآخر،كما يوافق على أعذار بعض الطلاب الأغنياء،حين يهربون من الصلاة،بحجة أنهم على جنابة! وكانت إحدى هواياته المفضلة الخطابة،كان يخطب في الدرس،في الملعب،وفي صلاة الجمعة!

وإذا كان الأستاذ الطاهر مهتماً بالطقوس والمظاهر،فإن اهتمام الأستاذ الذي جاء في السنة التالية،الشيخ تقي الدين النبهاني علامة بارزة،وأحد التواريخ المهمة في العمل السياسي للأردن،ولكن وصوله جاء متأخراً سنتين او ثلاث سنوات عن الموعد المناسب! فالأرض التي كان يفترض أنها غير مكتشفة،أو أنها لاتزال

بكراً سبقه إليها الآخرون ووضعوا عليها،أو على القسم الأكبر والأهم منها - أيديهم. لذلك ماكاد يبدأ دروسه حتى وجد أن المناخ،في حالات كثيرة،غير موات،أو ليس كما رغب فيه أو افترضه. ففي الوقت الذي كان يحرض على الأسئلة،بعد أن يلقي محاضرته،كان يقابل بالصمت،أو بالحوار من موقع المختلف.

والأردن الذي أرسل عدداً من أبنائه ليواصلوا دراساتهم الجامعية في الاقطار العربية الأخرى خلال فترة الحرب،بدأ بعد الحرب،يستقبل هؤلاء العائدين،والذين كانوا يحملون،بالاضافة إلى الشهادات الجامعية،الأفكار السياسية،وعلاقات صداقة أو ارتباط مع منظمات فكرية أو حزبية. ولأن تلك الفترة بالغة الحساسية،شديدة الاضطراب،مليئة بالاحتمالات،والطموح،فقد اندفع الذين وصلوا حديثاً للعمل ضمن اختصاصاتهم وفي المجال العام. فالعيادات الطبية للأطباء عبد الرحمن شقير ومنيف الرزاز،ثم لنبيه ارشيدات وبعدهم جورج حبش ووديع حداد،وعيادات آخرين،كانت تستقبل،في آن واحد،المرضى والفقراء والناشطين سياسياً،وكانت بالاضافة إلى الخدمات الكثيرة التي تقدمها،خاصة للفقراء،تتحول إلى خلايا للعمل السياسي لاتهدأ.

وصيدليات أمين شقير وراضي الشخشير،ومختبر فريد القسوس،بمقدار ماتوزع الأدوية وتجري التحليلات،كانت توزع المناشير والكتيبات الحزبية "والتحليلات" السياسية. أما المحامون،في تلك الفترة،فكان يروق لهم أن يروا في أية قضية تعرض أمام المحاكم جانبها السياسي بالدرجة الأولى. لذلك كان شفيق ارشيدات وعبد الحليم النمر وسليمان الحديدي وصبحي القطب،ومحامون آخرون،يعتبرون المرافعة في قضية،بالاضافة إلى محاولة كسبها،فرصة لتكريس قواعد تكون أساساً لتقاليد في العمل العام. كانت مرافعاتهم عبارة عن بيانات سياسية مليئة بالاستشهادات المستندة إلى القضاء المصري،وإلى اجتهادات فقهاء القانون الفرنسي! وكان القضاة الجالسون تحت أقواس المحاكم يتفهمون دوافع هؤلاء المحامين،ويتجاوبون معها،دون ضجة،في محاولة منهم لتثبيت قواعد وسوابق تؤكد استقلال القضاء،وفي أن يكون مرجعاً وملجأ للمظلومين.

هذا المناخ لم يقتصر على الخريجين،إذ امتد إلى أوساط واسعة،كانت المدارس ضمنها،وربما أكثرها حيوية.

فمدرسة السلط التي لم تعد الثانوية الكاملة الوحيدة،إذ قامت في عمان ثانوية كاملة أيضاً،اضافة إلى المطران والكلية الاسلامية،حاولت أن تعوّض المزية التي

كانت لها،بأن تصبح ساحة للعمل السياسي ومدى حيوياً للأحزاب،وكذلك كان حال المدارس الأخرى.

لذلك عندما جاء الشيخ النبهاني إلى الكلية الاسلامية،كان قد سبقه إليها البعثيون والشيوعيون،وهذا السبق لم يكن على شكل تعاطف وتأييد،وإنما على شكل علاقات تنظيمية متعددة المستويات.

ولأنه لم يكن للتنظيمات السياسية مقرات ومراكز علنية،عدا الاخوان المسلمين،فإن العيادات والصيدليات ومكاتب المحامين ،وايضاً مكاتب بعض الموظفين،كانت مراكز للاتصال والارتباط،فهي التي تستلم المنشورات والتعليمات،وبتوجيهها تتم اغلب المهمات.

كان أمين شقير،بالنسبة للبعثيين،دينمو للنشاط والحركة،وكان ذا قدرة تنظيمية عالية،كما كانت صيدليته مركزاً أساسياً للاتصال.

كما أن غالب خير،ومن موقعه في البنك،كان يوزع التعليمات ويقوم بالاتصالات. وكذلك محمد الدباس،من وزارة المالية،حيث كان موظفاً في النهار،ومتفرغاً نشيطاً للعمل السياسي بعد الساعة الثانية.

أما عبد الكريم الدباس،موظف الجمارك،الشديد الدقة والسرية،فكان موظفاً مثالياً في عمله،وأحد أنشط المسؤولين في قطاع الطلاب.

حين يكون الطقس مواتياً،فإن الاجتماعات واللقاءات تتم في الهواء الطلق،في البرية،حول عمان. وحين لايساعد الجو،فإن بيت احد الأعضاء أو المؤيدين يمكن أن يكون مقراً للاجتماع،مع أن بيت عبد الكريم،المتواضع والبالغ النظافة،جاهز لاجتماع الحلقة الحزبية.

في وقت لاحق سيكون المنتدى العربي،بالقرب من المدرسة العبدلية،أول طريق وادي السير،أحد أبرز الأماكن التي يلتقي فيها جمهور واسع من المثقفين،خاصة من البعثيين والقوميين ،وسيمارس المنتدى،وأماكن مشابهة لقوى سياسية أخرى،أدواراً مهمة في النشاط الثقافي والسياسي من خلال المحاضرات والندوات،ومن خلال دورات محو الأمية والتطبيب المجاني،كما ستكون أماكن للقاء الذين يزورون عمان من الألوية الأخرى،أو الذين يأتون من خارج الأردن.

الاخوان المسلمون،وحدهم،لهم مركز علني وسط المدينة،أول طريق السلط،ولايبعد أكثر من عدة أمتار عن المطعم الجديد الذي افتتحه صبحي جبري،وأعطاه اسمه.

كان يتردد على هذا المركز عدد كبير من الرجال،وربما وصله الكثيرون،في محاولة لمعرفة واختبار مدى قدرتهم على التكيف مع هذا التنظيم وافكاره،وبالتالي امكانية ان يكونوا جزءاً منه،لكن هذه الصلة تقف عند حد،ثم تتراجع،بالنسبة للأغلبية،عدا الفترة التي يأتي فيها إلى الأردن،بزيارةسعيد رمضان،ويلقي خطاباً أو اثنين في سينما البتراء.

كان سعيد رمضان مصرياً،ولكنه كثير التجوال في العالم ،قليل الاقامة في مصر. كان اسمر الوجه،مربوع القامة،أو أميل إلى القصر. يعتمر باستمرار قبعة باكستانية،وكان واحداً من أبرز الخطباء الذين مروا بعمان.

حين يعلن عن موعد خطاب سيلقيه،تمتلئ سينما البتراء بالكبار والصغار،حتى الذين لايترددون في العادة على السينما،ويعتبرونها مفسدة،كانوا يزاحمون الآخرين في الوصول،لكي يستمعوا إلى هذا الخطيب الذي يعرف كيف يلهب حماس الناس،وكيف يحرك عواطفهم. كان يبدأ بصوت هادئ،اقرب إلى المسكنة،ثم لايلبث صوته أن يعلو ويزداد سرعة،مع حركات من الجسد واليدين،فإذا وصل إلى مواقع معينة،يريدها،أخذ يركز عليها،بحيث يمتلك القاعة ويسيطر على المستمعين. يظل كذلك ساعة أو تزيد بطلاقة أخاذة وتدفق ساحر،حتى ليبدو كأنه ممثل على خشبة مسرح اندمج بدوره إلى الحد الأقصى،دون تكلف،دون شعور بالزمن،إلى أن تقدم إليه ورقة صغيرة تشعره باقتراب موعد الحفلة المسائية للسينما،فلا بد عندئذ أن يبدأ الهبوط بعد هذا التحليق،إذ يخفض صوته تدريجياً،ويتباطأ،إيذاناً باقتراب النهاية،إلى أن يصل إلى الكلمات التي يختم بها هذا اللقاء: "على أمل أن يكون لنا موعد مع المؤمنين في وقت آخر،والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

بعد أن ينتهي سعيد رمضان،ولأيام عديدة لاحقة،يتغير مزاج عمان. يصبح الدرج الطويل الضيق المؤدي إلى مقر الاخوان المسلمين مليئاً بالبشر،ويتحرك الناشطون من الجماعة أكثر من الأيام الأخرى: لكسب أعضاء جدد،لتوزيع قسائم العضوية على الزوار. أما طلاب الكلية الذين لم تتح لهم فرصة زيارة المقر،أو لم يحصلوا على القسائم،فكان عصام خورشيد،في الكلية الاسلامية،يوصلها!

لكن ما ان تمر أسابيع على هذه الزيارة حتى تعود الأمور،تقريباً إلى ماكانت عليه!

الشيخ تقي الدين النبهاني لايمتلك مواهب سعيد رمضان وقوة سحره،ومع

ذلك جاء،من موقع آخر،لكي يضع حداً لجميع الحركات السياسية،بما فيها حركة الاخوان المسلمين،وليكون الحزب الأساسي،إن لم يستطع أن يكون الحزب الوحيد.

"الثقافة الاسلامية" مادة تم "اختراعها" في الكلية الاسلامية،ولم يكن لها ما يماثلها في المدارس الأخرى،عدا درس الدين،وهي عبارة عن محاضرات يلقيها النبهاني على الطلاب،لتجمع في أمالي،ولتصبح،في نهاية السنة،مادة من مواد الامتحانات.

كان معظم أساتذة الكلية محايدين تجاه هذه المادة وتجاه مدرسها. أما الطلاب،خاصة الذين ليست لهم انتماءات أو علاقات سياسية،فكانوا أقرب إلى الحيرة،إذ رغم أن أكثرهم يلّم بالمادة التي يقدمها الشيخ،إلا أنهم لايعرفون،أو ليسوا مستعدين،أكثر من ذلك أو غير ذلك. والشيخ يريد دعاة أكثر مما يريد مجرد تلاميذ يحفظون الدروس!

الطلبة الذين لهم انتماءات أو علاقات سياسية،وتجنبوا الاحتكاك أو الصدام في المرحلة الأولى،لم يعودوا قادرين على الصمت أو الحياد،ولذلك أخذ درس الثقافة الاسلامية يتحول إلى سجال سياسي،وأصبح سبباً للخلاف ثم للصراع.

وإذا كانت العادة أن الطلاب غير المسلمين مخيرون بين حضور درس الدين أو عدمه،وكان بعضهم،أغلبهم،يحضر برغبة،دون الزام بالامتحان،فإن الثقافة الاسلامية أصبحت مسألة خلافية،لأن هذه المادة ليس لها علاقة بالواجبات الدينية،كما أكدت الادارة،قدر تعلقها بالثقافة بشكل عام،أو تحديداً بالفلسفة والتاريخ،الأمر الذي ولّد مزيداً من الاختلاف ثم الاحتكاك.

فسليم الصويص الميال إلى مناقشة الشيخ في كل درس،لديه دائماً مايشغل قسماً من الوقت،لكي يحاول أن يخرج الموضوع عن مساره! وكامل أيوب،حين يُسأل،ولكي يعفي نفسه من احتمال الخطأ أو الجهد،يرد بأنه مسيحي،الأمر الذي ينرفز الشيخ ويخرجه عن طوره. أما فريح شحاتيت فكان يميل إلى المماحكة،كما وصفه ذات مرة الأستاذ لطفي ملحس،ولذلك كان يروق له أن يسأل الشيخ: لماذا خلق الله ابليس؟ ولماذا أوجد الشر والفقر في هذه الدنيا؟

ومن جملة الاشكالات التي واجهت الشيخ النبهاني أن الطلبة المتفوقين في الدراسة: عبد الرحمن منكو،مهدي أبو الذهب،باسل جردانة،هشام عز الدين،فريدون حربي،كان لبعضهم انتماءات أو ميول سياسية غير متوافقة مع حزب

التحرير،أو أنهم غير مهتمين بالسياسة ومنصرفون بالدرجة الأساسية لدراستهم،لذلك لم يبق أمام الشيخ إلا أن يفتش عن دعاة خارج الكلية،أو أن يخفّض سقف اشتراطاته!

ولأنه تعوّد،خلال الفترة الأولى،على اختيار الموضوع الذي يريده مادة للدرس،ويلقيه اعتماداً على ورقة صغيرة يكون قد دوّن فيها رؤوس الأقلام،إلا أن المحاكات والأسئلة الخطرة والخلافات التي لم تعد تخفى،جعلته يحضر ،بين فترة وأخرى،مراجعه معه. حمل ذات مرة كتاب اشبنجلر: انهيار الغرب،ومرة أخرى غيره،وكان قد تخيّر فقرات أخذ يقرأها للتدليل على صحة وجهة نظره بخصوص افلاس الغرب! ثم عرج على الشيوعية واستحالة أن تكون حلاً،لكي ينتهي إلى تلخيص رأيه وموقفه بمقولة محددة ومباشرة: ليس في العالم سوى ثلاث نظريات وثلاثة مذاهب: الراسمالية والشيوعية والاسلام،ولامجال إلا اختيار واحد من هذه الثلاثة!

لم تكن هذه الطريقة في تلخيص الأمور تزعج سليم الصويص،إذ كان ينظر بطرف عينه إلى البعثيين،ويسأل،دون كلمات: ماراْيكم؟

والشيخ الذي ادرك،منذ الدروس الأولى،أن خصومه،مهما تعددت انتماءاتهم،يتفقون عليه،رغم الاختلاف فيما بينهم،أراد أن يخلص من الخصم الأقوى،ولذلك ركز هجومه بالدرجة الأساسية على الفكر القومي ودعاته.

كان في بعض الأحيان،خاصة بعد أن تقدم فصل الربيع،يخلع جبته وعمامته،فيبدو غريباً ومختلفاً،فالطلبة لم يتعودوا أن يروه هكذا،اضافة إلى أن لون الجبهة العليا يختلف عن لون الوجه. حين يفعل ذلك يعني أن الموضوع الذي سيخوض فيه هاماً أو غير عادي.

ويبدأ: القومية رابطة زائفة. الديمقراطية بضاعة غربية،ومادام الأصل زائفاً فالفرع كذلك. الشيوعية الحاد واغتصاب لحقوق الغير،الحقوق الطبيعية التي وزعها الخالق،وخلق الناس طبقات. ولذلك ليس هناك حل سوى الاسلام.

كان يقدم كماً من الأسانيد لدعم وجهة نظره،وكان يتعمد اختيارها بشكل انتقائي من هنا وهناك،في محاولة لاقناع الطلبة،وحين ينتهي،ويكون الصمت مخيماً يسأل:

ـ هل هناك سؤال؟

بعض الأحيان تكون هناك أسئلة حول طبيعة النظام السياسي والاجتماعي الذي ينادي به،وماهو الموقف ازاء الملكية،والأحزاب والديمقراطية وتداول السلطة؟ من الذي سيقوم بالتصنيع؟ هل الزكاة تكفي لحل المشكلة الاجتماعية؟ ماسقف ملكية الأرض والثروة؟

وبعض الأحيان تكون الأسئلة من نمط آخر: ماهو موقفنا من الديانات غير السماوية كالبوذية؟ ماهي اللغة التي يجب اعتمادها في الدولة العالمية التي ينادي بها الشيخ النبهاني؟ هل ستقوم هذه الدولة بالتراضي أم من خلال القوة؟

يسوق الشيخ حوادث من التاريخ،وكيف أن الفتوحات الاسلامية وصلت إلى الهند والصين،وإن قسماً من شعوب هذه البلدان قد أسلم. وحين يُسأل من جديد،إن ذلك إذا جاز في عصور ماضية،فإن العصر الذي نعيش فيه لايعطي للفتوحات،أو السيطرة على الآخرين،إلا اسماً واحداً: الاستعمار،فهل يوافق الشيخ على هذا التوصيف،خاصة إذا رفض ذوو العلاقة وقاوموا؟

إذا بدت الأسئلة حسنة النية،بريئة،لايتردد الشيخ في الإجابة،أما إذا لمس شيئاً آخر،فعندئذ لابد ان يكون قاسياً او ساخراً.

فترة الكلية الاسلامية إذن بالنسبة لحزب التحرير،وللشيخ النبهاني،كانت فترة حضانة،إذ استطاع خلالها ان يعرف كيف يفكر الآخرون،وماهي نقاط قوتهم وضعفهم،وماهي الأساليب التي يمكن ان تؤثر اكثر من غيرها.

حتى الأمالي التي كان يلقيها على الطلبة،وكان يفترض ان تطبع على الحرير،اكتشف انه عاجز،او قليل الحيلة،إذا كان الذي يطلب منه طباعتها مختلفاً معه سياسياً،الأمر الذي زاد في النقمة على الشيخ،ومن ثم على الادارة،لأن الطلبة،في النهاية،يريدون أن تكون المادة التي سيمتحنون فيها بين أيديهم. حتى الأساتذة الذين كانوا محايدين،وربما اقرب إلى عدم الاهتمام،اكتشفوا أن طلبتهم في وضع متوتر نتيجة الصراع السياسي،وإن المادة الجديدة بدأت تخلخل البرنامج والمستوى العام. لذلك فإن الادارة التي بدأت متعاطفة مع النبهاني،من خلال مفهوم عام للاسلام،اكتشفت أن الرجل يريد تكوين حزب أكثر مما يهدف إلى اشاعة ثقافة!

ولأن عمان في تلك الفترة بالذات شديدة الحساسية والتوتر،بحكم تأثير القضية الفلسطينية وتطوراتها،خاصة بعد ان تكّشف موقف بريطانيا اكثر من

قبل،فقد تزايدت المطالبة بالغاء المعاهدة التي أعقبت الانتداب،والمطالبة أيضاً بتحرير الجيش،تحديداً من كلوب. ولقد عبرت الصحافة والقوى السياسية وشخصيات كثيرة عن هذا التوجه،إلا أن توفيق أبو الهدى،المعروف بتطرفه،وكان رئيساً للوزراء،لجأ إلى العسف والرفض،ولم يكتف بذلك وأرسل عدداً من المعارضين إلى باير،ذلك المنفى الصحراوي القاسي،والذي يمثل رمزاً لنوع العلاقة التي انتهجتها الحكومة.

ورغم ما بين مدرسة المطران والكلية الاسلامية من مسافة نفسية،لكن نتيجة تطورات تلك المرحلة،فقد قامت علاقات سياسية تتجاوز رغبة ادارتي المدرستين،إذ أصبح الناشطون سياسياً يلتقون بصورة منظمة،كما أن المدرسة الثانوية الحكومية في عمان،والتي انتقلت في هذه الفترة إلى جبل الحسين،وأخذت اسم الحسين أيضاً،أصبحت أكثر فعالية،وأكثر تأثيراً. المدرسة الوحيدة الغائبة،رغم وجودها،كانت تراسنطة،ربما نتيجة برامجها الدراسية الكثيفة،وأيضاً لنوعية الأساتذة والطلبة فيها.

أكثر من ذلك كانت علاقات وثيقة وأكثر تنظيماً بين المدن: عمان واربد والسلط،سواء من خلال الزيارات،أو من حيث المساهمة في النشاطات،خاصة الرياضية والثقافية.

"صوت الجبل" مثلاً،المجلة التي كانت تصدرها مدرسة اربد الثانوية،أصبحت منبراً لطلبة الأردن جميعاً،حيث يساهم فيها عدد من خارج تلك المدرسة،كما توزع في أماكن عديدة،ومن ينشر في تلك المجلة،إذ كان مستواها متقدماً،يكون قد اجتاز مرحلة هامة،ووصل إلى الآخرين.

وعلى غرار "صوت الجبل" كانت "المنهل"،وتصدر مرة واحدة في السنة من الكلية الاسلامية،وإن غلب عليها الطابع المحلي وكثافة مساهمة الأساتذة؛ الأمر الذي دعا الطلبة لاصدار مجلة موازية سميت "المنهل الصغير"وكانت تصدر اكثر من مرة سنوياً،ويحررها الطلبة وحدهم،تحت اشراف الأستاذ عبد الجبار الفقيه،الذي بدأ سمحاً،ميالاً لتشجيع التجارب الجديدة،بما فيها محاولة الشعر الحديث (!) هذه المحاولة التي زامنت تجربة نازك الملائكة في قصيدتها "الكوليرا"،أو ربما سبقتها! الأمر الذي سيخلق خلافاً جديداً حول أول من كتب القصيدة الحديثة!! هل هو علي احمد باكثير ام بديع حقي ام نازك الملائكة،ام المنهل الصغير؟!

إذا انتقلنا إلى نطاق أعلى وأوسع نجد أن عمان،الأردن،وخلال مرحلة جديدة،مرحلة الانفعال والتساؤل،بدأت الأسئلة المحرمة،الخطرة،المسكوت عنها،تصبح أسئلة كل يوم،لماذا؟ كيف؟ وماذا الآن؟

ولذلك،وبعد "روايات الجيب" التي كانت خبزاً يومياً للكثيرين،وكانت من جملة أسباب رواجها،إنها يمكن أن تستبدل،لقاء فارق بسيط؛ وبعد "نظرات" المنفلوطي،ثم "عبراته"؛ وبعد "رمل وزبد" جبران ثم "نبيه"،خاصة لمّا رُفعت من الكتاب الأخير الصور التي لاتليق بالشباب الذين يعملون في السياسة أن يتوقفوا عندها،أو تشغلهم عن القضايا التي يجب أن ينصرفوا لها (!)؛ بعد هذا كله جاء طه حسين بعقلانيته وانفتاحه،وكان إلى جانبه الزيات وأحمد أمين،وقد اعتبر ذلك بمثابة نقلة نوعية كبيرة وهامة في ثقافة تلك الأيام،خاصة وأن الكثيرين الذين "اكتشفوا" طه حسين لم يستطيعوا أن يفلتوا من تأثيره بعد ذلك! وهذا ماأدى لأن "تُكتشف" انجازاته يوماً بعد آخر. "فالكاتب المصري" لم تتأخر في الوصول إلى عمان،وكذلك اصدارات "الكاتب". الأمر الذي دفع خالد الساكت،خريج مدرسة السلط في تلك الفترة،لأن يقول في إحدى زياراته لعمان،وفي المنتدى العربي،"إن الذي لم يقرأ [الباب الضيق] لاندريه جيد،والذي قدم له العميد طه حسن،وترجمه نزيه الحكيم،لايمكن أن يصل إلى الثقافة الحقيقية،لأن هذا الكتاب الصغير يعادل بأهميته وقيمته عشرات الكتب ."

ورغم أن عمان،ذلك الوقت،تفتقر إلى المكتبات،فإن الكثير من الشباب الذين كانوا "يوصون" المسافرين على "بوط فطبول"،أخذوا يوصونهم على "الأدب الجاهلي" ليعرفوا لماذا حوكم طه حسين على هذا الكتاب،ماهي جريمته،وماهي العقوبة،وكيف يجب أن ينظروا ويتعاملوا مع الكاتب والكتاب؟

ولأن المسافرين،ذلك الوقت،إلى مصر،كثيرون،فقد كانت تأتي كتب كثيرة. حتى الذين كانوا يعودون برعايا الغنم والخيل،حملوا معهم،في مرات كثيرة كتباً لم يعرفوا مافيها،ولكن حملوها لأنه تمت توصيتهم عليها!

مايكاد الكتاب يصل لأحد ويقرأه،حتى يعطيه لآخر،لثالث،وهكذا يظل الكتاب يلف ويدور كالبلبل. ليس مهماً ماإذا قرئ بوعي وبشكل جيد،الأكثر اهمية أنه أدخل مزاجاً جديداً في القراءة،ونوع الكتب التي يجب أن تُقرأ.

اما كيف انعكس ذلك في عمان،وكيف عبرت عنه،فلعل أبرز التعبيرات،ربما نتيجة الظروف التي كانت سائدة: الشعر والصحافة ... وبعض التحدي السياسي.

كان الشعر مجلياً. فإذا غاب عرار،مصطفى وهبي التل،أو لم يصل صوته،فلا بد أن يرتفع صوت صبحي زيد الكيلاني،وقبله أو إلى جانبه،بمقدار ماتسمح الوظيفة،حسني فريز. إلى شعر الاخوانيات الذي ينظمه عدد من الشعراء بشكل مشترك،أو يتبادلون ويساوقون الأبيات حتى تكتمل القصيدة. هذا عدا عن الشعر السري الذي يتم تداوله وراء الأبواب المغلقة،والذي يراد له أن يبقى هكذا،على الأقل خلال الفترة الأولى،لأن ليس قائله وحده مذنباً،بل وناقله وسامعه،ولو بمقدار،أيضاً!

عمان،في تلك الفترة،مليئة بالشعر. قد تكون هذه الكلمة مجازية،لأن قسماً مما ينظم ليس له علاقة بالشعر،من حيث جودته أو اهميته،وربما كان أكثره عادياً أو رديئاً،ومع ذلك كان يلبي رغبة،ويعبر عن حاجة أو حالة. هذا اضافة إلى أن الشعر سهل الحفظ والانتقال،وبالتالي امكانيته في التأثير.

وسائل التعبير الأخرى موجودة،لكنها أقل تأثيراً من الشعر. فالمقالة والدراسة والقصة،وبنسبة أقل،المسرحية والرواية،لها وجود،لكن بحدود ضيقة وبفترات زمنية متباعدة،واهتمام الناس بها،وبالتالي امكانيات تأثيرها،لاتقارن بالشعر،خاصة السياسي. فكتابات عبد الحليم عباس وعيسى الناعوري ومحمد سعيد الجنيدي والايراني وآخرين،رغم وجودها،إلا أن الدور الذي تلعبه في تكوين ثقافة الناس محدود،ربما نتيجة المستوى العام السائد،وأيضاً نتيجة سذاجة بعض هذه الكتابات،بالمقارنة مع مايكتبه الأدباء في الأقطار العربية الأخرى،والذي كان يصل بعضه أو كله إلى الأردن،ولو متأخراً.

المجلة التي أصدرها الناعوري،رغم حسن النية،كانت محدودة الانتشار،وبالتالي التأثير،بسبب المستوى والاختيارات،حتى إن بعض المجلات المدرسية،كصوت الجيل،مثلاً،كانت أكثر تأثيراً.

يضاف إلى ذلك أن المقالة أو القصة التي تنتشر في "الرسالة" أو "الثقافة" وكانتا تصدران في القاهرة،أو "الأديب" التي تصدر في بيروت،والتي يكتبها كاتب في الأردن،تصل وتؤثر أكثر من تلك التي تنتشر في عمان.

أما بالنسبة للصحافة فقد لعبت دوراً بارزاً في هذه الفترة،رغم القيود المفروضة،إذ كانت الجرائد اليومية والاسبوعية تستقطب اهتمام الناس،نظراً للمناخ السياسي الذي أصبح متفجراً،شديد التوتر،نتيجة القضية الفلسطينية وتطوراتها.

وتجدر الاشارة إلى أن الصحف الناقدة أو الساخرة لم تنقطع عن الظهور،وكانت اكثر رواجاً،وبالتالي أكثر تأثيراً من الصحف الأخرى،لأنها تحاول،

عادة،أن تعبر،في الكثير من الحالات،عن عواطف الناس ومواقفها،رغم أنها لاتعمر طويلاً،كما لايصدر بعضها بانتظام،نظراً لما يطالها من الملاحقة والاغلاق،او لافتقارها إلى التمويل الكافي الذي يمكنّها من الاستمرار.

وقد يكون من المفيد،والطريف أيضاً،العودة لصحافة تلك الأيام،لأنها مرآة جلية لطريقة التفكير والتعبير،إذ تعكس،بنسبة ما،الهموم والمستوى والأولويات،كما يمكن من خلال الأشياء الصغيرة،كالأخبار الاجتماعية والأسعار،أن نقرأ واقع مجتمع،ونكتشف اشياء غابت أو تكاد من الحياة الراهنة،كما نتبين البدايات أو البذور التي خلّفت أشياء كثيرة لاحقة.

ولابد من لفت النظر إلى أن القوى السياسية التي اخذت تتكون في هذه المرحلة،كانت تحاول أن تكون لها صحافتها،وأن تُسمِع صوتها،فإذا تعذر عليها ذلك بشكل مباشر،تلجأ إلى مساندة أو دعم واحدة من الجرائد القائمة،في محاولة لأن تعبر عن أفكارها كلها أو بعضها،بشكل صريح أو خفي،من خلال هذه الجريدة. مع العلم أن لهذه القوى صحافتها السرية،والتي كثيراً ما لعبت دوراً بالغ الأهمية،خاصة في الفترات الصعبة أو الحرجة.

إن أحد مصادر تاريخ أي بلد صحافته،العلنية والسرية،إذ يمكن من خلالها معرفة الكثير،بما في ذلك المسكوت عنه،إضافة إلى أنها تعكس مدى التطور الذي حصل في اللغة والأساليب ونمط التفكير. وقد لايكون من الخطأ اعادة "تصوير" نماذج واسعة من صحافة فترة الأربعينات،والتي قد تكشف لنا،من جديد،أشياء هامة وطريفة.

وإذا كنا قد أشرنا سابقاً إلى الدور الذي لعبته مصر في مجال التعليم،من خلال الأساتذة،وأيضاً من خلال المناهج والكتب المدرسية التي كانت متداولة في الأردن أثناء تلك الفترة،فلا بد من التأكيد أن صحافة مصر أيضاً لعبت دوراً شديد الأهمية،لأنها كانت الصحافة الأكثر تطوراً من ناحية،والتي أصبحت أكثر تداولاً وانتشاراً في الفترة التي تلت الحرب،من ناحية أخرى. إذ بعد أن كانت تصل الصحف والمجلات مرتين في الاسبوع وبكميات محدودة،انتظمت في الوصول،كما اصبحت توزّع بأعداد كبيرة،وكل يوم تقريباً.

هذا الدور لصحافة مصر،وأيضاً لأفلامها وأغانيها،رغم أهميته في تطور المنطقة عموماً،إلا انه لم يخل من السلبيات. إذ أصبحت المقاييس المصرية وحدها

هي التي تؤخذ بعين الاعتبار،وهي وحدها السائدة،علماً بأن مصر،تلك الفترة،خاصة في الجانب الرسمي،كانت متخلفة سياسياً،كما ان موقفها تجاه القضايا الأساسية كالعروبة والقضية الفلسطينية كان ملتبساً.

مع الشعر،الذي كان ابرز وسائل التعبير،والصحافة،كان التحدي السياسي.

فالمعاهدة التي أعقبت الانتداب،وكان يفترض أن تمثّل علاقة متكافئة ومختلفة عن السابق،بين دولتين صديقتين،لم تغيّر في نظرة وموقف الانكليز تجاه الأردن،فقد استمرت الهيمنة،والنظرة المتعالية،خاصة من كلوب والضباط الانكليز الذين كانوا معه،مستغلين انتصار الحلفاء في الحرب من ناحية،وحاجة الأردن المالية من ناحية ثانية. وهكذا تحوّل بيت كلوب إلى ثكنة عسكرية،وكثر الذين يراجعونه،ليس فقط من أجل الدخول إلى الجيش أو قوات البادية،بل ومن أجل قضايا أخرى كثيرة ليس لها علاقة مباشرة بهذه الشؤون!

فإذا أضيف إلى ذلك الوضع العربي الشديد التحرك بعد الحرب،خاصة في سورية،القطر الأقرب والمتشابك مع الأردن،وإلى حد أقل العراق ومصر،واستمرار الصراع مع العربية السعودية،ثم التطورات المتلاحقة والسريعة في فلسطين،وقد انعكس كل ذلك على الأردن،فعندئذ لابد أن تتبدى الخلافات والصراعات بأشكال حادة،وأن تعبر عن نفسها بالشعر مرة،وبالمواقف العنيفة مرة أخرى،خاصة وإن عمليات الرصد،في هذه الفترة،أصبحت أكثر اتساعاً وانتباهاً من فترات سابقة،كما أصبح الصدر ضيقاً إذ لايحتمل الاختلاف أو الاجتهاد.

هذا في نفس الوقت التي بدأت فيه الأحزاب والأفكار تجد صدى لها في الأردن،خاصة من خلال الذين عادوا من الدراسة،أو الذين احتكوا بأجواء وعلاقات اكثر تطوراً.

وجاءت المشكلة الفلسطينية،بكل ثقلها وتعقيداتها،لكي تلقي بهذا الثقل،بشكل أساسي،في الأردن،وأيضاً لكي تتفاعل معه.

إن المشكلة الفلسطينية والأردن وجهان لعملة واحدة،وهذه المشكلة موجودة قبل ١٩٤٨،لكن برزت بشكل أوضح وواسع منذ هذا التاريخ. فعدد من رؤساء الوزارات في الأردن،منذ البداية،من فلسطين. وعدد كبير من سكان الأردن،ومنذ البداية أيضاً،من فلسطين،اضافة لاستمرار العلاقات بين البلدين والشعبين منذ البداية،وعلى كافة المستويات.

لذلك فقد برزت المشكلة الفلسطينية وتفاعلت وأثرت في تكوين هذا البلد أكثر من أي بلد آخر،وتأثر الناس في الأردن بهذه المشكلة أكثر.

كان كل حدث له علاقة بالمشكلة الفلسطينية لايجد انعكاسه المعنوي فقط في الأردن،بل تبرز آثاره المباشرة والقوية،فالعملة الموحدة للبلدين،والادارة الانكليزية الواحدة التي كانت تسيطر على البلدين،اضافة إلى التشابك الكثيف في العلاقات الانسانية والاقتصادية والادارية،علاوة على المخاوف والهموم المشتركة،خاصة بعد تزايد الهجرة اليهودية أثناء ثم بعد الحرب،هذه الأمور،وأخرى غيرها ،خلقت وضعاً دقيقاً صعباً،وقد وجد له اصداء وحساسيات بالغة لدى الناس ولدى السلطة في آن واحد ،فإذا أضيف إليه العجز والقيود والارتباك،فعندئذٍ يمكن تقدير ردود الفعل المتوقعة لأي موقف أو اجراء.

لم تكن السلطة تنظر بارتياح لأي تحرك أو موقف شعبي،حتى لو كان على مستوى ابداء الرأي،خشية أن يخل ذلك بحساباتها ،أو ان يحرجها في مواجهة الانكليز. ولم تكن تكتفي بالمنع والقيود،إذ كانت تلجأ إلى الزجر والنفي والملاحقة،وكان كلوب،من خلال قواته،إذا لم يبادر شخصياً ومباشرة لاتخاذ مثل هذه الاجراءات،فإنه مستعد وجاهز لتلبية أي طلب من هذا النوع حين تطلب منه الحكومة ذلك!

والجماهير التي تعتبر من حقها،ومن واجبها أيضاً،أن تتصدى لمقاومة المشاريع والخطط التي يمكن أن تؤدي إلى هدر الحقوق والمقدسات،وأن تشارك في إبداء الرأي والتعبير عما يجيش في العقول والقلوب،كما يحصل في أقطار أخرى،تصطدم بقوات البادية التي أنزلها كلوب إلى الشوارع لمنع المظاهرات أو لتعممها ،الأمر الذي خلق فجوة،وفجوة كبيرة،بين الطرفين.

ونظراً لعدم وجود صيغ أو اطارات محددة للعمل السياسي،وللتضييق على حرية الرأي والتعبير،يكون العمل السري،ويكون العنف،ويكون الرفض المطلق والادانة الكاملة الوسائل الوحيدة للمواجهة والعلاقة،ومن ثم للتعبير.

فالمظاهرات التي قامت في عمان خلال سنتي ١٩٤٧ و١٩٤٨ قمعت بقسوة وعنف،وأدت إلى النفي الداخلي والخارجي لعدد من القادة الوطنيين،كما أدت إلى طرد من اعتبروا محرضين أو قادة للمظاهرات من الطلبة،وتولد في عمان،ومدن أخرى،كالسلط واربد،جو من التوتر والهياج تضامناً وتأييداً،الأمر الذي دعا

السلطات والادارات المدرسية لأن تتساهل بعض الشيء،في محاولة تنفيس الاحتقان واشاعة جو من الانفراج والتسامح.

وإذا كانت هذه الصفحات لاتعتبر تاريخاً قدر ماهي تذكر وانطباعات عن فترة بالغة الدقة،فلابد أن يتصدى لتسجيلها،وبأكثر من صيغة،الذين عاشوها،ثم الذين تخصصوا في التاريخ المعاصر،لعله يستطاع رسم لوحة للمنطقة والمرحلة في واحد من منعطفاتها الأساسية،خاصة وأن تداعيات تلك الأحداث استمرت وتفاعلت،ولاتزال كذلك إلى الآن،وبالتالي لايمكن استشراف المستقبل إلا من خلال استيعاب دروس الماضي،ليس بهدف الادانة بقدر ماالمقصود والمطلوب قراءة الماضي،وإعادة قراءته لكي نتجنب،قدر الامكان،إعادة تكرار الأخطاء.

١٧

من المشاهد المألوفة في عمان خلال فترة الأربعينات: تلال البرتقال اليافاوي التي كانت تتكوم في سوق الخضار،وفي أمكنة عديدة أخرى،اثناء فصل الشتاء.

فحين تصل الشاحنات من فلسطين،وتفرغ حمولتها من البرتقال،كان يفوح السوق بشذى رائحة لذيذة تولد النشوة،كما كان اللون الأصفر الذهبي يغمر كل شيء. ورغم الكميات الهائلة التي تصل،فمن يرى مشهد المشترين - وكان البرتقال يباع بالعدد - يخيّل إليه أن الناس لايأكلون سوى البرتقال،خاصة وهم يحملون كميات كبيرة منه إلى بيوتهم.

ومن ذكريات تلك الفترة أن الهدايا التي تحمل إلى المرضى بشكل خاص: حبات من البرتقال في غير موسمه. وفي مباريات الكرة،كان البرتقال يوزع على لاعبي الدرجة الأولى بعد الشوط الأول،وكان يعتبر أهم من المشروبات الغازية. أما النسوة،حين يذهبن إلى حمام السوق،فكن يحملن معهن البرتقال كفاكهة أساسية،وربما وحيدة.

حين ترى الجدة الكميات الكبيرة من البرتقال تصل البيت تنظر إليها بفرح. تتناول حبة،تفركها بقوة حنونة،تتشممها،تماماً كما تتشمم الأم وليدها،وقبل أن تأكلها،تهز رأسها مرات وهي تتذكر،وفي هذه الرحلة تسافر،تضحك،يغيم وجهها. كانت في كل مرة ترى البرتقال تسأل،تحدث نفسها:

- ريحة القداح ترد القلب،وماكو بالدنيا،إذا الله ماكذبني،مثلها ريحة،فليش أهل عمان،مومثل أهل بغداد،مايزرعون البرتقال؟

ولم تنتظر،مرة واحدة،لتسمع الاجابة!

من الكلمات المبكرة التي دخلت إلى لغة الأطفال،لكن لم تكتسب معنى واحداً

او واضحا: كلمه بيارة . حين تذكر الكلمه تقترن بالبرتقال،ولاشيء غيره. أما ذ
تكون "البيارة"،ولماذا سميت هكذا،فكل انسان يعرف ولايعرف في نفس الوقت!

أما الميرامية والزعتر،أما الصابون والكنافة،أما البحر وجبل النار،فإ
مرادفات للضفة الأخرى من النهر. كانت بمجرد أن تذكر تولد سلسلة
التداعيات ليس لها نهاية. أما حين ترد كلمة "مجاهدين" فتشمخ في الذاكرة ص
رجال ملثمين،يعيشون أغلب الوقت في البرية،ينامون في المغاور،وعند أواخر ال
ينتقلون من مكان إلى آخر،لكي يحاربوا الانكليز واليهود،الذين كانوا يطوقونهم
كل ناحية. كان هؤلاء الرجال من الشدة والبطولة وانكار الذات بحيث يتمنى
طفل،حين يكبر،أن يصبح مثلهم،واحداً منهم.

أسماء المدن،عبر النهر،كانت دائماً حاضرة وكثيرة،كما كانت مثيرة للخي
وإذا غابت أسماء مدن في بعض الأقطار العربية،أو تداخلت،فإن أيدي جـ
التلاميذ ترتفع حين يطلب المعلم تعداد أسماء خمسَ مدن في فلسطين. كانت تتبا
الأصوات وتتزاحم: القدس، يافا، حيفا، غزة، اللد، الرملة، عكا،صفد،
الله،الخليل .. ويوقف المعلم التلميذ الذي اندفع دون توقف،ليسأل غيره،وكان ا
كل تلميذ أسماء اضافية جديدة!

كانت فلسطين أكثر من مجرد أرض وبشر،إذ هي في ذاكرة كل فرد عر
مجموعة من المعاني والرموز والدلالات،تراكمت وترسبت عبر أجيال عد
متلاحقة،وهي تعني لكل واحد،بالاضافة إلى الشيء المشترك،شيئاً خاصاً،قد يـ
غامضاً أو مختلفاً،لكنه شديد القوة والتأثير.

كما كان موضوع فلسطين مقياساً في الحكم على الأشخا
والمواقف،وأيضاً امتحاناً للقوة والخوف والضعف والتقدم وسلامة الاتجاه.

اللغة التي تستعمل في الحديث عن هذه القضية مزيج من الصوفية والخـ
والواقعية المباشرة،وفي بعض الأحيان لاتخلو من خفة أو رثاثة،ربما لأنها شد
الوضوح،بحيث لاتتطلب اقناعاً من أي نوع،تماماً كمن يتحدث عن الماء والهواء.

قبل المدرسة،وربما رضعه الأطفال مع حليب الأمهات،كان اسم فلسطين يتر
أكثر من أي اسم آخر،وكان له وقع خاص وظلال كثيفة. أما الألعاب الأولى ال
يبتدعها الصغار فلعبة العسكر والحرامية،ولعبة العرب واليهود،ونتائج الل
محددة سلفاً،وقبل أن تبدأ: العسكر يغلبون الحرامية،والعرب يتغلبون على اليه
أما عن الربا والبخل وقسوة القلب والوشاية،وصفات أخرى مشابهة،فإ

تتلخص،بعض الأحيان،بكلمة واحدة: يهودي. قد تكون هذه الصورة نتيجة الاحتكاك بنماذج معينة،أو معرفة هذا الجانب فقط،ورغم أنها لاتعني الجميع،إلا أنها الصورة السائدة.

في المدرسة،من خلال الدروس والأناشيد الأولى،كانت الوطنية،ذروة الوطنية،تتحدد وتتجسد في الموقف من فلسطين. وإذا اختلف الناس حول أي شيء فإنهم لايختلفون حول هذه القضية.

أما الموقف السلبي من الانكليز فإن أحد عناصره الأساسية هو سلوكهم وطريقة تعاملهم تجاه القضية الفلسطينية منذ الحرب العالمية الأولى،باعلان وعد بلفور أولاً،ثم التمييز في المعاملة بين العرب واليهود خلال فترة الانتداب.

و"أصدقاء" بريطانيا من السياسيين العرب،رغم ادعائهم أنهم يختلفون معها،أو هكذا يتظاهرون،حول القضية الفلسطينية،فقد كانوا يواجهون حرجاً وتناقضاً في دفاعهم واقتناعهم بالسياسة البريطانية،أو محاولة تبرير مواقفها تجاه القضايا الأخرى،الأمر الذي انعكس على الطرفين بأشكال كثيرة في الفترات اللاحقة.

ليس ذلك فقط،فإن موقف الاتحاد السوفياتي،وموقف الشيوعيين العرب أيضاً،لم يكونا متوافقين مع قناعات وتطلعات الجماهير،أولاً بتبني التقسيم،ثم باعتراف الاتحاد السوفياتي بدولة اسرائيل،نتيجة قناعة أن الطبقة العاملة العربية ـ الاسرائيلية الموحدة طريق النهوض وتغيير الأوضاع،مما خلّف موقفاً سلبياً خلال فترة طويلة،تجاه الاتحاد السوفياتي والأحزاب الشيوعية العربية معاً،وبالتالي سهّل أمام الطرف الآخر خلق فجوة كبيرة بين قوى يُفترض أن تكون في صف واحد.

حتى الشيخ النبهاني،ولاحقاً حزب التحرير الاسلامي،الذي كان يقول،مداورة،بضرورة عدم الخوض في هذه القضية،قضية فلسطين،إلى أن تقوم الدولة الاسلامية،أثر هذا الموقف الملتبس على جماهير الحزب،وجعل الاخوان المسلمين،بنظر المتدينين،أكثر وطنية وجراة،خاصة حين التحقت مجموعات منهم بكتائب الحرب الشعبية خلال عامي ١٩٤٧ـ ١٩٤٨،في قطاع غزة بشكل خاص.

إن الوقائع الدقيقة لمواقف القوى،الدول والأحزاب،وحتى الأفراد،يجب أن تدّون وتدرس،وأن تقيّم ايضاً،في المراحل المتعددة،لكي تُستخلص منها الدروس،ولمعرفة الدوافع والمصالح وطريقة التفكير في قراءة الأحداث والوقائع،وأيضاً في فهم الواقع والقوى المحركة،لأن من شأن هذه القراءة أن تؤدي

إلى معرفةٍ أعمق وأشمل لجميع العوامل والأسباب والنتائج التي أوصلت هذه القضية إلى هذا الوضع،تمهيداً لمواقف من نوع جديد.

هذه المهمة بمقدار ماتعني المؤرخين والمحللين،فإن الكثيرين،أيضاً،معنيون،إذ يفترض بكل شخص له دور أو مشاركة أن يقدم شهادته،خاصة وأن ماحصل،حتى الآن،لايعدو أن يكون طوراً من أطوار هذه القضية،التي تبدو أن ليس لها نهاية محددة أو واضحة ضمن معطيات المنطق السائد،أياً كانت القوى أو المبررات الراهنة.

وإلى أن يقوم المؤرخون،وتقوم مراكز الأبحاث،بدراسة وتقييم ماحصل،فمن المفيد تقديم وصف لبعض الأحداث والأجواء،مع التأكيد أن هذا الوصف فردي،ومن زاوية محددة،وبالتالي فهو جزئي.

رغم التيفوس،ثم بعده الكوليرا،وقد خلّفا تحسباً أقرب إلى الخوف،فإن الهاجس الذي كان ينام ويقوم مع الناس هو فلسطين،خاصة وأن الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية شديدة الحركة والتغير،مليئة بالترقب والمخاوف والتوقعات.

الصغار الذين انتقلوا من المدرسة الثانوية الحكومية إلى الكلية الاسلامية،افتقدوا في رحلتهم الجديدة عزيز الكباريتي،أحد أبرز المحرضين وقادة التحركات الطلابية،وهذا مادعا إلى الاعتماد على النفس،وضرورة اقامة مركز جديد لتحرك الطلاب،خاصة وأن عام ١٩٤٧ كان شديد الأهمية ومختلفاً عن الأعوام السابقة، لأن ماكان مؤجلاً أو مموهاً ظهر جلياً،وعلى السطح. وماكان يقال همساً ووراء أبواب مغلقة،أصبح حديث الجرائد والاذاعات،وحديث الناس أيضاً،وكان كله يدور ويتركز حول القضية الفلسطينية.

الكلية الاسلامية التي كانت بعيدة،جغرافياً،عن مركز المدينة،وقد أُفترض بالتالي أنها بعيدة عن الهموم والقضايا السياسية،لم تكن كذلك،فقد كانت جزءاً من نسيج المدينة،ولهذا فهي مليئة بالاضطراب والقلق والتساؤل والبحث،وماكان يجري في الأماكن الأخرى يجد أصداءه فيها بسرعة،رغم مايبدو على التلاميذ من تهذيب!

فعندما ارتفعت عصا الدكتور شقير،اعلاناً عن الرفض والغضب،فقد بدت كعصا المايسترو،إذ حركت عمان كلها،وكانت بمثابة الباروميتر الذي يؤشر ويعلن الخطورة والاشياء الحقيقية،حتى لو لم يرها الجميع بنفس المقدار.

كانت ساحة الجامع الحسيني في الفترة المتأخرة من عام ١٩٤٧ ساحة

مواجهة،وتبلغ هذه المواجهة ذروتها يوم الجمعة،بعد صلاة الظهر. إذ رغم الكلمات الصادقة التي يقولها خطيب الجامع،إلا أن طريقة القول "الرصينة"،وهي عبارة عن مجموعة من الكلمات المحفوظة،لم تكن تكفي أو ترضي الناس،لذلك لابد أن يتقدم قادة الجماهير ويقولوا الأشياء بكلمات صريحة وواضحة.

كان طلبة عمان،خلال تلك الفترة،في المقدمة،أو قوة الصدام الأولى،نظراً لتجمعهم وسرعة تحركهم،بسبب الروابط السياسية والعاطفية،وأيضاً نتيجة التحديات،وكانوا بهذا يعبرون عما يجيش في صدور الجميع،خاصة وأنهم كالاسفنجة أو كالمرآة تمتص وتعكس ماحولها،اضافة إلى مايتسم به الشباب من جرأة واندفاع

تركت الحكومة،وترك كلوب،هامشاً للناس لكي يقولوا ويعبروا،لأن الاحتقان وصل إلى درجة خطرة،وأي صدام واسع أو عنيف يمكن أن يولد ردود فعل يصعب التحكم بها،لذلك كانت المظاهرات والاضرابات،وقد تكررت خلال هذه الفترة،اللغة السائدة أو طريقة التعبير.

وإذا كان التنافس طابع العلاقة بين المدارس في السنوات الماضية،نتيجة اعتبارات كثيرة،لعل الرياضة،أحد أهم أسبابها،خاصة المباريات،فإن علاقة من نوع جديد تولدت بين هذه المدارس،وأبرز تعبير عن هذه العلاقة: التنسيق والتضامن،رغم بعض الخلافات السياسية. لقد أثبت الطلبة جدارة مميزة في معركة التحدي،إذ كانوا على رأس المظاهرات،وأبرز المشاركين فيها،الأمر الذي أدى إلى طرد عدد منهم،لفترات محددة،وتحت عناوين غير سياسية،لكن المناخ العام السائد أرغم الادارات على التراجع.

أصبحت المدارس الثلاث: ثانوية الحسين،الكلية الاسلامية،المطران،مدرسة واحدة! أكثر من ذلك تولدت لغة سرية شديدة الاختصار والوضوح بين قادة الطلبة: من يهيّىء اللافتات،ماذا يكتب عليها،متى تبدأ المظاهرة،أين تبدأ،وإلى أي مكان يجب أن تتوجه،وتفاصيل أخرى،لإحكام السيطرة والتنظيم. كانت نسبة النجاح،في أغلب الأحيان،عالية،ولعل قصة المستر ساتن،مدير مدرسة المطران،أعطت الطلبة درساً.

ففي بداية هذه المظاهرات،حاول طلبة مدرسة المطران أن يسجلوا سبقاً،إذ بدل أن ينتظروا طلبة الكلية الاسلامية لكي يمروا عليهم،ويتوجه الجميع إلى السوق،نحو الجامع الحسيني،فقد توجهوا نحو الكلية الاسلامية مع لافتاتهم وهتافاتهم،لاستعجال طلبة هذه الكلية.

ركض وراء المتظاهرين المستر ساتن،مدير المطران،في محاولة "انكليزية" أخيرة لكي يقنعهم بعدم الاستمرار في المظاهرة. ولقد صادف وصوله، اللاهث، المتأخر،خروج طلبة الكلية الاسلامية،وأيضاً وجود عبدالله ابو قورة،أحد الذين ساهموا بانشاء الكلية،ولأن أباقورة غير قادر،وليس من صلاحيته،منع المظاهرة،بعد أن رأى طوفان الطلبة الآتين والذين يخرجون،لم يجد امامه خصماً يمكن أن يفرغ فيه حقده وغيظه سوى المستر ساتن!

الذين شهدوا المعركة رأوا أباقورة ينقض على الخصم المناسب والمقنع،ويكيل له كماً كبيراً من اللكمات،وكماً أكبر من الشتائم،واصفاً إياه بالمحرض والمنظم والموجه للمظاهرة،ولم يخرج ساتن من بين يديه إلا بعد أن دمّاه!

كانت المظاهرات خلال عام ١٩٤٧ تتكرر كثيراً،رغم التطمينات التي تعطيها الحكومة،خاصة وأن أصداء الحوادث التي تقع في فلسطين،في تلك الفترة،تتردد في كل مكان وبسرعة،كما أن التحركات السياسية من اجتماعات ومؤتمرات رسمية،كانت تملأ الصحافة والاذاعة،وكلها تؤكد الحرص وعدم التفريط،وأيضاً تظهر الاعتماد المتزايد على الضمير الانساني والمنظمات الدولية،لكي ينصفا العرب،ويضمنا لهم حقوقهم! لكن بمقدار ماتزيد الاجتماعات والمؤتمرات كانت ثقة الناس تتراجع ومخاوفهم تكبر،الأمر الذي جعل شعار الحرب غير النظامية يطغى على غيره من الشعارات،خاصة وقد أخذ عدد متزايد من السياسيين الشباب والمثقفين والأفراد في الأقطار العربية،وتحديداً في سورية ومصر والعراق،يلتحقون بجيش الانقاذ،أو يكوّنون منظمات مسلحة لمواجهة المنظمات الصهيونية المسلحة.

عبد القادر الحسيني كان أبرز القادة وأكثرهم توهجاً وأجدرهم بالثقة. كان هذا الاسم يثير في ذاكرة الكثيرين صورة جديدة للقسام. ورغم اهمية هذه الصورة ومهابتها إلا أنها أقرب إلى الحزن في ظل المناخ المسيطر،نظراً للظروف الصعبة التي يناضل خلالها! أما الأسماء الأخرى،كالقاوقجي والحاج أمين،فإنها تثير الالتباس والحيرة،إذ لايعرف هل يمكن تصنيفها ضمن الحكام أم تعتبر قيادة للنضال الشعبي.

وأسماء أخرى كثيرة تبرز هنا وهناك: عزيز المصري وعمر عبد العزيز في جنوب فلسطين،أكرم الحوراني والعجيلي والشيشكلي والركبي ومأمون البيطار في الشمال. صبحي وبهجت أبو غريبة في القدس ونابلس. عبد الرحيم محمود،الشاعر المقاتل،حين يرد اسمه يذكر بالشعراء الفرسان وبأبطال الملاحم والأساطير.

وعشرات،مئات الأسماء الأخرى،أكثرها كالشهب يظهر ويغيب بسرعة،خاصة في ظل الاضطراب والحيرة الذي كان سائداً.

كثير من الشباب الذين تجاوزوا الثامنة عشرة سجلوا أسماءهم لكي يذهبوا "للجهاد". كانت تقف عند الجامع الحسيني سيارات شاحنة كبيرة لتحمل عدداً من هؤلاء المتطوعين. كانوا يغيبون أياماً ثم يعودون خائبين،إذ بعد أن أُخذوا إلى معسكرات،وظلوا هناك أياماً متوالية،"يتدربون" على: استرح .. استعد،إلى اليمين در،إلى اليسار در،وحين تعبوا وزهقوا من هذا التدريب جاءوهم بعدد قليل من البنادق القديمة لكي يفكوها ويعيدوا تركيبها. كان ذلك يجري في ظل ظروف شديدة الصعوبة،من حيث الاقامة والأكل وطريقة المعاملة،وحين يسأل هؤلاء المتطوعون عن "الجهاد"،ومتى سيذهبون إلى هناك،لايتلقون أية إجابة!

حالة من الفوضى والاحباط وكسر المعنويات،لااحد يعرف لماذا أو إلى متى،في الوقت الذي كان من الممكن أن تأخذ الأمور مساراً مختلفاً.

ظلت الحال هكذا،والناس لايعرفون ماذا يجب أن يُعمل،ومن يجب أن يبادر. لذلك كانت المظاهرات المتنفس الوحيد،والطريقة التي يُعبر من خلالها الناس عن الأفكار والمواقف،وعما يجيش في الصدور من عواطف. ولأن المظاهرات كانت تحمل هذا المقدار من العنف والتحدي،فقد أصبحت بذاتها هدفاً،وأصبحت صيغة للاحتجاج والادانة،دون أن تتحول إلى شيء آخر.

ومثلما يبرع بعض الأفراد في الصيد أو السباحة،ويعترف لهم الآخرون بهذا التفوق،فإن للمظاهرات "قوانينها"،من حيث القدرة على التحريض والقيادة والتوجيه،وبالتالي لها رجالها الذين هم أقدر من غيرهم على تحريك الجماهير والتعامل معها.

إذا غاب عزيز الكباريتي أو مظهر خير عن مظاهرة الثانوية،نتيجة الحصار أو المنع،وبعض الأحيان نتيجة التوقيف،تبدو المظاهرة ناقصة مضطربة،سواء في سيرها،أو بالجو الذي يحكمها،إذ قد تندفع أكثر مما يجب،أو تتراجع دون مبرر! صحيح أن الجماهير تفرز قياداتها،كما يقال،لكن القادة،في الكثير من الحالات،يجعلون الجماهير تبدع وتعطي أحسن وأفضل ماتختزنه في داخلها.

والأمر ذاته في المدارس الأخرى،وفي المجالات الأوسع أيضاً.

من الطلبة الذين كانوا يعطون للمظاهرة نكهة مميزة: مسلم العايد،ذلك

المرح،الأقرب إلى السخرية في الأيام العادية،يتحول في المظاهرة إلى شخص آخر: أشبه بربان سفينة هائجة يصعب على غيره ترويضها وقيادتها.

وشاهر الطالب،الصغير الجرم،يصبح في المظاهرة تياراً "يكنتك" كل من حوله،إذ يغوي ويعدي أشد الطلبة تحفظاً،ويدفعهم إلى المشاركة.

أما عبد موسى النهار،المتواضع،المتواري،والمتفوق في دراسته،فيعرف كيف يتغلب على تردد أي طالب،يفعل ذلك بهدوء أقرب إلى الدهاء،ويقدم نفسه مثلاً.

محمود النجار الذي يتضايق من ضخامة جسده،قياساً لزملائه،تصبح هذه الضخامة ميزته الكبرى،خاصة حين يرفع على كتفيه أحد قادة المظاهرة.

عبد الرحمن منكو الشديد التهذيب،يعرف كيف يغضب وينفعل أثناء المظاهرة،حتى ليبدو انساناً آخر.

غالب هلسا اللابد في القسم الداخلي للمطران،والذي يعتبر أن مهمته تغيير الكون،"يتنازل" للمشاركة في لعبة عملية،"لأن المظاهرة أداة تثقيف وأداة تحريك للجماهير" هكذا يقول ويشارك.

وكذلك الحال بالنسبة لآمال نفاع،الذي ينسى صفته كجزء من اتجاه سياسي،"لأن المظاهرة للجميع"،كما يقول والابتسامة الكبيرة تملأ وجهه.

ليس ذلك فقط،كل فرد في المظاهرة له أهمية وله دور،ويتبدى ذلك من خلال المشاركة والصمود،صحيح أن القادة هم نتيجة الفرز الطبيعي،وليس نتيجة الفرض،إلا أن الأدوار الأساسية تتحدد وفقاً للامكانيات والأحجام. فالهتافون غير الذين يحملون اللافتات. والذين يصادمون غير الذين يبرعون في الأهازيج. أما المسؤولون عن التنظيم فيُميّزون ليس من خلال الشارات التي توضع على الأيدي،وإنما من القدرة على عدم نسيان المهمات المكلفين بها.

تبقى مظاهرات الطلبة كالروافد الصغيرة إلى أن تلتقي بالنهرالكبير،بمظاهرة الشعب،عند الجامع الحسيني. هناك يتحدد المزاج،ويبرز القادة الكبار،كما تصبح الكلمات التي تقال لها مدلولات وتعني موقفاً،وغالباً مايُدفع ثمنها إما فوراً أو بعد حين.

أصبحت المظاهرات خلال هذه الفترة طقساً يتكرر كثيراً،الأمر الذي جعل الكثيرين يتساءلون: وماذا بعد ذلك؟

ولأن عمان لاتحتمل هذا المقدار من المظاهرات،خاصة التي لاتؤدي إلى نتيجة

عملية،ولأن القيادة السياسية الشعبية عاجزة عن تطوير أو بلورة المواقف والمشاعر التي تملأ الشارع،وبالتالي دفع الناس إلى صيغة أعلى،فقد أخذت هذه المظاهرات تتراجع،أو أصبحت أقل جدوى.

كما أصبح رهان الكثيرين بافتراض تطوير الحالة الشعبية والاستفادة من زخمها غير مجدٍ،ولم يتبلور،خاصة بعد أن تعب الطلبة،أو لم يعودوا مشوقين بالمقدار الكافي،لكي يستمروا في هذه الحالة،اضافة إلى أن الدراسة التي تخلخلت أقلقت الأهل،ومن بعدهم التلاميذ،وبالتالي فان الدعوة للاهتمام بالدراسة،والعودة المنتظمة إلى المدارس،لم تلق رفضاً أو احتجاجاً،وتأكد ذلك أكثر بعد أن تزايد التوقع أن الجيوش النظامية،وقد أكد الحكام العرب ذلك بصوت عالٍ،ستتولى المهمة،وستقوم بتأديب العصابات الصهيونية بعد انتهاء الانتداب وانسحاب الانكليز!

الناس في هذه الفترة ضائعون،لاأحد يعرف ماذا يجب أن يعمل أو كيف. الصوت العالي،بغض النظر عن مدى صدقه،هو الصوت المسيطر. الرغبة تمتزج بالخيال،والادارة تحدها عشرات القيود. المؤتمرات والاجتماعات والتوقعات تتوالى وتملأ ليالي الناس،وتغرقهم في حالة من الأمل والانتظار.

لقد كانت الفترة التي سبقت ١٥ أيار ١٩٤٨ شديدة الاضطراب،ثقيلة،لأن كل يوم يحمل جديداً،وهذا الجديد ليس ساراً في معظم الحالات. فالرهان على الحرب غير النظامية،وكان احد رموزها المضيئة عبد القادر الحسيني،ينكسر فجأة ويتراجع،حين سقط الحسيني نفسه صريعاً في معركة القسطل. القاوقجي يتحول يوماً بعد آخر إلى شكل جنرال في جيش نظامي،بالدربيل المتدلي من رقبته والنياشين التي تملأ صدره! طه الهاشمي لايُعرف إن كان لايزال وزير دفاعٍ للجيش العراقي أم مسؤولاً عن قيادة شعبية مهمتها اعداد الناس للمقاومة.

والانكليز،رغم ادعاء الحياد الذي رفعوه كشعار لسياستهم في فلسطين،والاعلان عن نيتهم بالانسحاب في ١٥ ايار،إلا أن مساندتهم لليهود تزداد وتصبح علنية ومفضوحة،إذ أخذوا يسهلون لهم الاستيلاء على القرى العربية،وإجبار سكانها على الهجرة،كما سمحوا لهم بحصار عدد من المدن،وغضوا النظر عن الأسلحة الكثيرة والمتطورة التي تصل إليهم،الأمر الذي جعل الحياد الذي يدعونه استفزازاً اضافياً ورياء لايمكن السكوت عليه أو تبريره. ليس ذلك فقط،إن العقوبات التي توّقع على العربي الذي يحمل سلاحاً للدفاع عن النفس،كانت من الشدة والردع إلى درجة جرّدت الناس من أي سلاح،وجعلتهم

عزلاً. وبلغ الأمر في المرحلة الأخيرة،قبل الانسحاب،أن فتح الانكليز مخازن أسلحتهم أمام المنظمات اليهودية المسلحة لتأخذ منها ماتشاء،بما في ذلك الطائرات والأسلحة الثقيلة،وقد استعملت هذه الطائرات والأسلحة فعلاً أثناء فترة الانتداب،ثم بعد ذلك.

لذلك،حين تقرر أن تكون الجيوش النظامية صيغة المواجهة الأساسية،أو الوحيدة،لم تجد أحداً يعترض،أو يطالب بموقف مختلف.

ومن أجل الجيوش،وفي سبيل الحرب والتحرير،لابد أن تصمت كل الأصوات،وأن يمتثل الجميع،وهذا ماحصل فعلاً. أما ما تبقى من طاقة أو رغبة في النضال عند الجماهير فتحول إلى العمل الانساني،خاصة في مجال مساعدة اللاجئين الذين أخذوا بالتدفق،وفي مجال الطبابة والتمريض.

وضع غير متكافئ،ومليء بالثغرات،اضافة إلى العجز والارتباك. ففي الوقت الذي حُشد كل القادرين على حمل السلاح في الطرف الآخر،وسلحوا ودربوا،وهيئت لهم صيغة منظمة للحركة والاتصال والقتال،فإن الطرف العربي كان يتخبط ويمنع ويحرم من أبسط وسائل الدفاع عن النفس.

حين بدأت طلائع القوات العراقية تصل إلى عمان،في طريقها إلى فلسطين،كانت تستقبل بحرارة وبطريقة احتفالية بالغة الود والدلالة،إذ بالاضافة إلى الفرح الذي غمر الناس جميعاً،فقد حاول الكثيرون ترجمة هذا الفرح إلى دعوات واستقبالات في البيوت والمقاهي والشوارع،وإلى رفض تلقي مقابل للسلع التي يشتريها الجنود،أو الموافقة على تلقي مقابل رمزي،هذا عدا عن نثر الرز والقمح والزهور على الوحدات أينما كانت تمر. كما كانت الابتسامات تمتزج بالدموع في كثير من الحالات،تعبيراً عن الأمل والتفاؤل،وابتهاجاً بهذه اللحظات التي انتظرها الناس طويلاً.

أكثر من ذلك بدت الجدة في تلك الأيام فخورة أقرب إلى الزهو،خاصة حين جاء أحد الأقارب ضمن هذه القوات،وقام بزيارتها.

كان يوم الزيارة حافلاً،بحيث لم يبق أحد في الحيّ إلا وعرف،ونظر إلى الجدة نظرة اهتمام وحافلة بالود والتقدير. والجدة التي غرقت بالفخر والارتباك بذلت جهداً كبيراً لاقناع هذا القريب أن يترك فوراً "المسافر خانة" ويحمل اغراضه للاقامة معها،وحين اعتذر،لأن الاجازة قصيرة،لاتتعدى الساعات،الحت عليه أن يأتي في اليوم التالي للغداء،قالت باصرار:

ـ زين .. إذا ماتقدر تبات عندنا،يابا اسماعيل،باچر تجي وتجيب ربعك وياك.

ويبتسم،واضعاً يده حول فمه،فتتابع الجدة قبل أن تسمع اعتذاره:

ـ وآني أروح للآمر واترخص منه!

فيرد اسماعيل،وهو يداري حيرته وخجله:

ـ بيبي مايصير،لآنا ماندري شوكت نمشي ...

يضحك بقهقهة،لكن لايرفع يده عن فمه،ويتابع:

ـ مااقدر اواعدكم،بيبي،لكن إذا هدّونا،إذا انطونا اجازة،ماتشوفوني إلا وأنا طآب عليكم!

ـ لا يابا .. شلون حچي هذا،أريد أركّب،أريد أسوي لك دولّمه،تبسي ...

يتغير صوتها وهي تسأل:

ـ علم الله صار لكم أيام ماحطتوا الزاد بحلقكم،موهالشكل؟

ـ شلون يصير،بيبي،ثلاث نوبات ناكل باليوم،وأكلنا هواية زين.

ـ لعد ليش تبيّن ضعفان ووجهك مخطوف؟

ـ من السفر والشموس ـ بيبي!

ـ زين .. زين،باچر تجي وتتغدى ويانا.

وبعد قليل:

ـ مثل ماقلت لك،عيني اسماعيل،تجي وتجيب ربعك وياك،سمعت؟

ـ بالقرعان مااقدر،بيبي،وعليك الله لاتلحي،خليها على الله!

بعد مناقشة طويلة،تخللتها الأسئلة عن بغداد والأهل،وعن راحته وأكله،مرة أخرى،طلبت منه أن يأتي بملابسه لكي تقوم بغسلها.

وهو يشرب الشاي الذي صنعته الجدة باهتمام،وأثناء تقديم الكأس الثانية،قال وهو يبتسم:

ـ كل شيء زين بهذي الديرة إلا الشاي ..

تطلعت إليه الجدة باستغراب،فأضاف موضحاً:

- بالقهاوي أبداً مايعرفون شلون يخدرون الشاي،موبس هالشكل،فوقها يقدمونه بالكَلاسات!

وضع يده على فمه من جديد،وقهقه،ثم أضاف:

- البارحة واحد من جماعتنا .. لما جابوا لنا الشاي بالكَلاسات،سأل الشايچي: يابا ما عندك ليفة وصابونة!

ضحك أكثر من قبل،وضحكت الجدة،أما الذين حوله فقد فهموا ولم يفهموا،لكنهم ضحكوا .. أيضاً!

لم تنتزع الجدة منه موافقة على وعد الغداء،كل ماقاله إنه سيحاول المرور إذا لم تتحرك قطعته،وإذ حصل على إجازة.

جاء في اليوم التالي بين العصر والغروب،مع اثنين من زملائه،جاء مودعاً،واعتذر حتى عن تناول الشاي،لضيق الوقت. ويبدو أن الجدة قدرت احتمالاً مثل هذا،لذلك هيأت له كمية من "خبز عروق والكليجا"،وماكاد يمد يده مسلماً ومودعاً،حتى جاءته بالزوادة.

قالت وهي تمرر يدها على رأسه وتتمتم:

- محصنين بالرحمان،والله وملائكته تحميكم وتنصركم . .

وتغيرت لهجتها:

- صيروا سباع ولدي،ارفعوا روسنا،حتى نفاخر بكم كل الناس ...

وبعد قليل وبلهجة مختلفة.

- وتقيدوا زين،ولدي،احموا أرواحكم واحموا بعضكم.

ومع أن زيارات الجدة قليلة في الأحوال العادية،فقد حرصت في هذه الفترة أن تقوم بعدد منها،خاصة وأن الفضول الذي تولد لدى أهل الحيّ،حين رأوا الجنود العراقيين يزورنها،وسألوها عنهم،دفعها لأن تتحدث باسهاب عن أشياء كثيرة. قالت أن هذه القوات مجرد الطلائع،الدفعات الأولى،وستلحقها قوات أخرى كثيرة،هكذا أسر لها القريب. وأكدت أن أقرباء آخرين لها سيصلون،إضافة إلى عدد من أبناء المحلة،ومن المحلات الأخرى،كما أكدت أن هؤلاء الجنود أشداء وشجعان،وأنهم "يخوفون الموت"،كما قالت.

لم تكتف بذلك،فقد زارت عدداً من معارفها،وأفاضت في الحديث عما تعرف وعما تتوقع! كانت وهي تتحدث تفعل ذلك بنوع من المباهاة،مع اشارات لاتخفى،إن بعض هذه الأمور سرية أو لايعرف بها الكثيرون،وماكانت لتبوح بها لولا الثقة!

وزيادة في تأكيد الدور الجديد أخذت تنزل إلى السوق أكثر مما تفعل عادة،ولاتتردد في سؤال بعض الجنود ما إذا كانوا يعرفون قريبها اسماعيل،الذي هو واحد من هذه القوات،ولأن أغلب الذين تسألهم لايعرفونه،فقد كانت الفرصة مواتية لأن تؤكد لهم أنها من بغداد،وأن لها قريباً معهم،وتتبسط في الحديث،وقبل أن تتركهم ترفع يديها إلى السماء طالبة من الله أن ينصرهم.

لو قدّر لرغبات الجدة أن تصبح واقعاً،وأن تتحول أمنياتها إلى أوامر لأخذت الأمور مساراً مختلفاً.

إذ بعد أن حلّ الخامس عشر من أيار،وبدل أن تندفع الجيوش العربية بقوة إلى جبهات الحرب،ضمن خطة محددة وهدف واضح،فقد غرقت في وحول السياسة،وفي متاهات السياسيين.

فالجيش العراقي الذي غادر إلى فلسطين،توقف القسم الأكبر منه فترة طويلة عند الحدود العراقية،لكي يستريح ويستعد! أما الطلائع التي وصلت،وكان يفترض أن تتبعها قوات كبيرة،كما أسرت الجدة للجارات،للكثيرين،فقد نُشرت في مساحة واسعة،الأمر الذي جعلها عاجزة عن الهجوم أو الدفاع،مما اضطرها للعودة مجدداً إلى الأراضي الأردنية،وحين جاء اسماعيل،مرة أخرى،لزيارة الجدة،فقد كان بالغ التأثر:

ـ بيبي .. هدونا بالچول وراحوا،ومانعرف شنو نسوي ..

يهز رأسه بحزن ويضيف:

ـ هسّا يجي الأمر،هسا يجي الأمر،لكن أبد ...

وتغيرت لهجته،أصبحت غاضبة:

ـ قواويد .. أدب سيزّيه وين خرايطكم،وين خططكم،وشراح تسووا؟ شمرونا،وقالوا: ستصلكم الأوامر،ونحن ماندري: يلزم نكون في حالة هجوم؟ في حالة دفاع؟ نتخندق ونتحصن،أو راح نشيل ونمشي!

هدأ قليلاً،ثم تابع:

ـ بعد ماتهجولنا هنا .. هنا،جاءت الأوامر بالانسحاب. قالوا: راح نخَش على اليهود من درب ثاني،وهسّا مايندرى شراح نسوي،وشراح يصير!

قالت الجدة في محاولة للتخفيف عنه:

ـ عيني اسماعيل .. لاتنحمق،وهاي الخرابيط منها هواية،وكل الأمور ماترهم وتصير إلا يواش يواش!

ـ يعني بعد مانموت موتة كلاب؟

ـ بعيد عنك،عيني،لاتفاول!

ـ لعاد وينهم هذول الترسية التارسين صدورهم نياشين وقالوا: فلسطين نحررها بيومين؟

ـ الصبر زين،عيني،طوّل بالك

ـ بيبي .. آني ما احچي هذا الحچي لغيرك،أريد أبرد فوادي.

حصل الشيء ذاته لألف اسماعيل،وفي كل الجبهات،مع اختلاف بسيط في التفاصيل. وخلال الفترة التي امتدت من الخامس عشر من أيار،إلى الحادي عشر من حزيران،تاريخ اعلان الهدنة الأولى،سقطت مدن،وقتل الآلاف،وتشرد مئات الآلاف. وكان كل ذلك يرى بوضوح في عمان.

فهذه المدينة التي استقبلت آلاف اللاجئين خلال الشهور الماضية،لم تكن مضطربة أو خائفة،بل كان حقدها يزداد،وكانت تنتظر حلول منتصف أيار بلهفة،موعد انسحاب القوات البريطانية من جهة،وموعد دخول الجيوش العربية من جهة ثانية. كانت تعضّ على آلامها وجروحها وتنتظر. وكان اللاجئون أنفسهم،رغم التعب والمعاناة،مملوءين ثقة وتفاؤلاً،انتظاراً لذلك التاريخ. أما الآن،وبعد أن حلّ،وحمل معه المزيد من الخسائر والفواجع،إذ سقطت مدن،واحتلت أراض واسعة،وتدفقت أعداد كبيرة من اللاجئين الجدد،فقد خيّمت حالة من التعاسة وسوء الظن والشكوك.

بدت عمان في نهاية الربيع مليئة بالجروح والمرارة. كما أن الأسئلة التي كانت محرّمة في السابق أصبحت وحدها على جميع الألسنة،ووحدها التي يتداولها الناس.

إن هول الصدمة وقسوتها لم يتركا شيئاً كما كان من قبل. لاأحد يصدق

ماحصل؛ الحياة أقرب إلى الكابوس؛ كل انسان في حالة من الغضب؛ والاستياء أقرب إلى السيولة والرخاوة والجنون.

حتى قبول الهدنة كان بذاته صدمة كبيرة،خاصة وأن الطرف الآخر،الذي طلبها وفرضها،لم يتقيد بها من ناحية،إذ استمر بخرقها واحتلال المزيد من الأراضي،كما أنه أخذ يستعد إلى اقصى درجة للجولة الجديدة،من ناحية ثانية. كانت تتوالى الأخبار عن الطائرات التي تصل،والكميات الهائلة من الأسلحة التي تُحمل إلى المستعمرات،هذا عدا عن عمليات القتل والتهجير. في الوقت الذي تبدو القوات العربية حائرة،تنتقل من مكان إلى آخر بعيون زائغة،وبإرادة رخوة،وقد اتضحت،خلال هذه الفترة،اكثر من قبل،الفروق بين العسكريين والسياسيين،وبدأت تروى قصص كثيرة حول ذلك.

حسن سلامة الذي كان يماثل الحسيني،وكان لايزال محارباً شعبياً عنيداً،ومختلفاً عن "القادة" الذين يصرخون كثيراً ولايفعلون شيئاً،وقد راهن عليه الكثيرون،يهوي كالنجم،كما هوى قبله عبد القادر،وينكسر شيء في داخل قلوب الناس. أما عبد الرحيم محمود،فقد أصبح رمزاً لمقاومة باسلة ويائسة في نفس الوقت. وحين جاء نعيه،فقد قال الكثيرون: "صدق أبو الطيب ووفى بالوعد،مثل سميه أبو الطيب المتنبي. والشجرة التي ارتوت بدمه لايمكن أن تموت أو تنتهي ... والأيام بيننا."!

والطلبة الذين غرقوا في الاستعداد لامتحانات مبكرة،اكتشفوا الزيف أكثر من أية فترة سابقة،وأحسوا بوجع داخلي،لأن الموت المبكر يترصدهم،والذي يحوم فوق رؤوسهم،ولذلك أصبحوا أكثر عصبية،وبدرت منهم حركات تنم عن الرفض والتحدي.

بدأوا يطالبون،من جديد بالتجنيد،والالتحاق بالمحاربين،أسوة بالشباب اليهود الذين أصبحت قصص تجنيدهم ومشاركتهم على كل لسان.

يتذكر طلبة الكلية الاسلامية ذلك اليوم الربيعي المتأخر حين جاء الضابط معن أبو نوار لاختيار المناسبين للتجنيد،بعد أن تزايدت المطالبة بذلك.

كان ضابطاً شاباً،ورغم الحزم الذي ارتسم على وجهه وتصرفاته،لم يكن معادياً. حتى لما طلب من الراغبين بالتجنيد أن يتقدموا خطوة،بعد أن انتظم الطابور،فقد مر على هؤلاء لكي يتأكد من صلاحيتهم. كان بعصاه العسكرية القصيرة يطلب من الكبار،الأقوياء،أن يبقوا متقدمين خطوة،أما الذين تقدموا من

الصغار،أو أولئك الذين لايتمتعون باللياقة الجسدية،فكان ينقر على صدورهم بعصاه لكي يتراجعوا. فعل ذلك،وبعد أن سجلت أسماء المقبولين،غادر.

الذين لم يتم اختيارهم كانوا حساداً كباراً. كانوا يتمنون لو أنهم اختيروا أيضاً،لو كانوا ضمن هذه الكوكبة،لكن الأمر،على الأقل الآن،لايحتمل أي استئناف ولايقبل أية مناقشة.

أبلغت الادارة الذين تم اختيارهم،والآخرين أيضاً،أن يستعدوا الآن للامتحان،وحالما تنتهي السنة الدراسية ستبدأ مرحلة جديدة!

الذين اختيروا،والذين تجاوزهم الاختيار،كانوا في حالة من الانفعال والغضب جعلت الجميع يلجؤون إلى التظاهر.

المظاهرة التي قام بها الطلبة بين الهدنتين فريدة من نوعها: فقد حمل الطلبة نعشاً فارغاً،لفوه بالسواد،وظل النعش يدور وينتقل،تعبيراً عن الحزن والاحتجاج إلى أن تلقاه الناس في ساحة الجامع الحسيني،فأصبح هذا النعش رمزاً لحالة واحتجاجاً عليها في نفس الوقت،حالة التقاعس والشلل،والمطالبة بتجاوزها.

إن تدوين التفاصيل الكاملة لتلك الأيام الحزينة ضروري لأقصى حد،فمن خلالها نكتشف نقاط الخلل والضعف والخراب،ونعرف كيف هزمنا،ولماذا،وهذا التدوين ليس بقصد جلد النفس والتلذذ بالألم،وإنما محاولة للتجاوز،وفهم أعمق للنفس والظروف،وللآخر،في نفس الوقت.

فإذا كانت الهدنة،أية هدنة،التقاطاً للأنفاس،ومحاولة لتلافي النقص،وأيضاً لمعالجة الحالات الانسانية،فإن هدنة ١٩٤٨ كانت خديعة كبيرة تضاف الى مجموع الخدع التي انطلت على العرب،وأدت بهم،بالتالي،إلى المزيد من الضعف والارتباك،وأخيراً إلى الخسارة.

وتتالت بعد ذلك الهزائم: سقطت اللد والرملة،وتم احتلال مناطق تتجاوز بكثير ماكان "مقرراً" في قرار التقسيم،وأصبح الوضع العربي مكشوفاً،فبانت فيه الثغرات والندوب والعلل.

وزيادة في الاهانة والتحدي،ولاثبات التفوق،قامت طائرة بالاغارة على عمان.

جرت الغارة في أواخر الليل،ومثلما كان الناس يخرجون إلى الأسطحة والأماكن المكشوفة في ليالي الخسوف،خرجوا هذه المرة أيضاً،وخرجت معهم الأسلحة القديمة المخبئة .. أطلقت كمية كبيرة من الرصاص على الطائرة التي سمع

صوتها،لكن لم يرها أحد. واختلف الناس حول المكان الذي القت عليه قنابلها،وحول مدى الأضرار والخسائر التي خلّفتها.

خلال الأيام التالية نُصبت بعض المدافع المضادة للطائرات في عدة أماكن،عند الملعب الصغير قرب اللاسلكي،وغير بعيد عن الحاووز الكبير،وعلى بعض التلال المحيطة بعمان،لكن الغارات لم تتكرر!

وانتهت الهدنة الأولى وتجددت الحرب،لكن الموقف العربي لم يتغير،وبدأت الهدنة الثانية. واغتيل الكونت برنادوت،الوسيط الدولي. اغتاله اليهود جهاراً،لأنهم اعتبروا الاقتراحات التي قدمها للتسوية،بما فيها الحاق القدس والنقب بالدولة العربية الفلسطينية غير مقبولة،ولم تستطع الأمم المتحدة أن تفعل شيئاً أكثر من الاحتجاج!

وتوقفت الحرب العربية ـ الاسرائيلية الأولى،" واستقر" معظم النازحين في عمان. ومنذ ذلك الوقت أصبحت المدينة شيئاً مختلفاً،بمزاجها،بعدد سكانها،بامتدادها واتساعها وأيضاً بحجم القلق والخوف الذي سيطر عليها،لأن هناك أحداثاً،حين تقع،تجعل الناس يكبرون،بل يهرمون،خلال فترة قصيرة،وربما قياسية. حتى الفتيان الصغار،بعد أن وقعت تلك الأحداث،غدوا رجالاً تثقلهم الهموم وتملؤهم الأسئلة،والكبار الذين كانوا ملء العين والقلب،، تحولوا فجأة الى أناس حائرين.

لقد خلقت هذه المأساة جروحاً عميقة،وإذا كان بعض هذه الجروح قابلاً للشفاء بمرور الوقت،فإن جروح الروح لاتندمل أبداً. قد تختفي لبعض الوقت،قد تُنسى،لكنها هناك،في الأعماق،توالي نزفها،فتولد وجعاً كاوياً،وتولد لوعة في الجسد والروح،لايمكن لهما أن يزولا إلا إذا زال الظلم وصُححت الأخطاء وخضعت العلاقات إلى العدل والمنطق ومصلحة الأجيال القادمة.

ففلسطين أكثر من أرض،وأكبر من جيل،وأبعد من مجرد جيوش تتصادم فينتصر جيش ويهزم آخر.إنها لا تعني الذين يسكنون هذه الأرض وحدهم،ولاتتوقف عند حدود من يهزم من ،أو من أكثر مكرا من منْ،كما أن الآخرين، البعيدين ،الأقوياء،يمكن أن يتدخلوا ليعطوا للأحداث مساراً في وقت من الأوقات،لكن هذا الآخر،البعيد،القوي الآن،لايمكن أن يظل المقرر،أو أن يبقى قوياً الى الأبد،أو أن ينوب عن الآخرين،أو عن حركة الحياة،وقوة التاريخ وعتو

الجغرافيا. إن ذلك مستحيل تماماً كاستحالة من يحاول التحكم بالشمس أو بالمد والجزر،أو كمن يريد أن يغير اتجاه الرياح وحركة الأمواج ومواعيد الليل والنهار.

فإذا استطاع اليهود،اعتماداً على التوراة،أن "يخلقوا" وضعاً ويفرضوه،مستفيدين من التقدم الذي حصلوا عليه في الأماكن التي سكنوا فيها،ومن العلاقات التي لهم مع "الآخرين" ومستغلين ضعف الطرف الآخر في هذا الصراع،فإن هذا الطرف الضعيف الآن،المذهول،الذي يثقل عليه التخلف وقسوة الأنظمة،لن يبقى ضعيفاً إلى الأبد،ولن يظل مستسلماً إلى مالانهاية،ولن يقوى الحكام على أن يستمروا هكذا،أو أن يفرضوا مايشاؤون. إضافة إلى أن الطرف العربي يعتمد على حقائق تتجاوز الأوراق القديمة واللفائف،كما لن يخضع أو يستسلم للقوة المسيطرة الآن،أو عند الأمر الواقع المفروض نتيجة هذه القوة.

الجيل الذي ولد في قلب العاصفة قد تحمله رياحها في الاختيار لهذا الاتجاه أو ذاك،وقد تطرح به فيتيه،خاصة وأن جيل الآباء لم يفطن لما كان يُدبّر،ولم يستعد،لكن الجيل الذي يليه،والجيل الذي سيعقبه،لابد أن يتوقف ويراجع ويستفيد من أخطاء الذين سبقوه،ومن حقدهم أيضاً،لكي يغير المعادلات ويصحح المسارات،وقد يشعل حروباً كبيرة،كما حصل في أكثر من مكان،وفي أكثر من عصر،نتيجة القسوة والظلم والاهانة،وبالتالي تكون الأجيال القادمة مضطرة لأن تدفع ثمن أخطاء الأجيال التي سبقتها،وبذلك يصبح الدم القانون الذي يحكم المنطقة لأزمان كثيرة قادمة.

إن الأمر الواقع المستند إلى القوة الغاشمة وحدها لايشكل قانوناً رياضياً،أو أزلياً. كما لايمكن أن يقاس المستقبل واحتمالاته على ضوء الواقع الراهن وحده،أو نتيجة له،لأن قوانين الحياة: التبدل والتغير باستمرار ودون توقف،وهذا التبدل والتغير لايعني بالضرورة،وفوراً،نحو الأحسن،إذ قد يكون المخاض طويلاً وقاسياً،ولكن لابد من ولادة جديدة،ولابد من صيغة مختلفة.

لقد مرت أيام كثيرة على أحداث ١٩٤٨،لكن الآثار التي خلفتها لايمكن أن تنسى. أكثر من ذلك،ستبقى تتفاعل وتؤثر إلى أن يتم الوصول إلى حلول بعيدة عن الفرض والعسف،وبعيدة عن التزوير وصفقات الظلام والسمسرة،لأن الانسان،أي انسان،أعجز من أن يستطيع تغيير الجغرافيا والتاريخ،والقوة وحدها لايمكن أن تديم الأمر الواقع،كما أن القوة ذاتها لاتدوم لنفس الجهة وبنفس المقدار.

قد يكون هذا حكم قيمة أو استنتاجاً مستنداً إلى القيم المعنوية والشعور بالظلم،وبالتالي ترحيل القضايا من الجيل الحالي إلى الأجيال القادمة.

إن استنتاجاً من هذا النوع،أو الخضوع إلى منطق الآلية والتكرار لايؤدي إلى نتيجة دون فعل الانسان،شرط أن يكون هذا الفعل منسجماً مع الحركة الكلية للأشياء وقوانينها الفاعلة.

دللت الوقائع أن أحد أهم التحديات،والتي تؤدي إلى مقتل،اعتبار الحقيقة الجزئية حقيقة كلية،واعتبار لحظة بمفردها تلخيصاً للزمن،والاعتماد على عنصر واحد في قراءة التطور أو تحديد اتجاهه وحركته الكلية،الأمر الذي يؤدي إلى سيادة الجزئي والمؤقت والعارض،وتأجيل المشكلة،لا الوصول الى حلول حقيقية ودائمة لها.

ولأن الحياة لاتعرف التوقف أو الثبات،وهي شديدة الحركة والتغير والتنوع،فإن الهموم والمشاكل والتحديات والطموحات،وأيضاً الرغبات،إضافة الى الأحلام،تظل تفعل وتحرك وتغير،كما تظل تدفع إلى البحث للوصول إلى صيغة أكثر قوة وعدلاً وتلبية للوقائع والحقائق المادية،وصولاً إلى اختصار جزء من الآلام الكامنة في الصيغة الراهنة.

إن عمان،مثل المدن الأخرى في المنطقة،تنام على آخر نشرة أخبار،وتستيقظ على أول نشرة،لأنها تنتظر شيئاً لم يأت بعد،وهو بالتأكيد غير هذا السلام الهش المفروض بالقهر والقوة.

وتبقى عمان،مثل المدن الأخرى،تنتظر ذلك الذي سيأتي!

١٨

بعد أن طال الحديث هكذا عن عمان وتشعب،لابد أن يتساءل من لم يرها بتلك الصورة،وذاك الذي لم يعرفها أبداً،كيف كانت المدينة؟

سؤال مثل هذا،رغم أهميته،لاأحد يستطيع الاجابة عنه، لأن المدن ليست المعالم،مهما بلغت البراعة في استعادة تفاصيلها؛ وليست المياه والأرض والأشجار،وهذه كلها أو بعضها،لاتزال قائمة،أو يمكن تخيلها؛ والمدن لاتقتصر على البشر،رغم أن هؤلاء هم الذين يعطونها القوام والنكهة؛ كما لايمكن أن نستعيد الفترة الزمنية الماضية،باستعراض ماوقع خلالها من أحداث،اذ رغم فائدة ذلك،لأنه يضعنا في الطريق الصحيح،إلا انه لايوصلنا الى مانريد.

ان المدينة،أية مدينة،كل هذه الأشياء معاً وغيرها،وقد تداخلت وترابطت وتفاعلت،بحيث أصبحت مختلفة عن العناصر التي كوّنتها،مع استمرار صلتها بها،واختلافها عنها.

المدينة هي الحياة بتعددها وتنوعها،هي الأمكنة والبشر والشجر ورائحة المطر،وهي التراب أيضاً،وهي الزمن ذاته ولكن في حالة حركة. المدينة طريقة الناس في النظر الى الأشياء،وطريقة كلامهم،كيف تعاملوا مع الأحداث التي وقعت،كيف واجهوها وكيف تجاوزوها. المدينة هي الأحلام والخيبات التي ملأت عقول الناس وقلوبهم،التي تحققت وتلك التي طاشت ثم خابت،وكم تركت من العلامات والجروح. المدينة هي لحظات فرح الناس وأوقات حزنهم. المدينة هي الطريقة التي تستقبل بها من تحب وتواجه من تعادي. المدينة هي الدموع التي تودع بها من غادروها،مضطرين،مؤقتاً أو الى الأبد،وهي البسمات التي تستقبل بها العائدين.

هذه هي المدينة وأشياء أخرى كثيرة وصغيرة،فهل يمكن استعادتها؟

هل يمكن استعادة ضوء الشمس الغاربة،أو القبض على لحظة الفرح التي

كانت ثم مضت؟هل نستطيع أن نسترد العاصفة أو نثبت أمواج البحر ونقاط المطر التي تهبط من السماء؟

اذا استطعنا،اذا حاولنا،أن نوقف الزمن أو نعيده الى الوراء،نستطيع أن نستعيد المدينة في لحظاتها تلك،ولأن ذلك يبدو مستحيلاً نلجأ الى التوقف عند بعض المعالم،عند بعض التفاصيل،كيما نستعيد وجوه عدد من الرجال والنساء الذين كانوا ثم مضوا،تاركين في القلب والذاكرة بعض الملامح وبعض الأجزاء التي تأبى الغياب،ومن خلال ذلك يمكن اعادة رسم صورة تقريبية للمدينة،أطيافها وظلالها،التي كانت في يوم أو التي يخلقها الوهم.

انها مجرد محاولة.

لكن قبل الدخول في متاهة الذاكرة،وما يمكن أن تستحضره من الأشكال واللحظات والبقايا،من المفيد تسجيل المعلومات التالية:

جاء في معجم البلدان لياقوت عن عمان.« ... كورة من أعمال دمشق،بين الشام ووادي القرى،قصبتها عمان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة،ويجود حنطتها يضرب المثل» ووصف عمان بقوله « عمان بلد في طرف الشام،وكانت قصبة أرض البلقاء... وقيل إن عمان مدينة دقيانوس، وبالقرب منها الكهف والرقيم» (١).

وقال المقدسي في كتابه: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم: « اما الصف الرابع (من هذا الاقليم) فسيف البادية. وهو جبال عالية،باردة،ذات قرى وعيون وأشجار،يقع فيه من البلدان: مآب وعمان واذرعات ودمشق وحمص وحلب»(٢)

« وفي الحروب الصليبية كانت عمان أحد مراكز التجمع وارسال الحملات لاسترجاع مدينة الكرك ولقد وجد على القلعة ترميمات في الأبنية لايواء الجيوش الصلاحية،مع بعض العملة والقطع الفخارية وبعد هذا الزمن توالت عليها الزلازل فهدمتها،ثم أصبحت مياهها مستنقعات تقضي على السكان بحمى الملاريا بحيث لايشعرون،فابتعدوا عن سكناها،على انهم لم يستغنوا عن ورودها لسقاية مواشيهم. ومنذ القرن الرابع عشر أهمل ذكرها بالمرة وخيّم عليها النسيان » (٣).

---

(١) ياقوت الحموي ،معجم البلدان .

(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم .

(٣) محمود العابدي ،عمان في ماضيها وحاضرها .

أما في العصور الحديثة وبعد أن زارها بيركهارت سنة ١٨١٢ فيقول: « ... ان قبائل البدو كانت تترددعلى مياه عمان لكي تسقي مواشيها وجمالها منها » « ...والنهر المدعو [مية عمان] ينبع من بركة في طرف البلدة الجنوبي،ويجري في واد تتاخمه على الجانبين تلال صوانية قاحلة» « ... ضفاف النهر،وكذلك مجراه،جميعها مرصوفة،إلا أن سيول الشتاء جرفت الرصفة في أغلب الأماكن» وقال أخيراً « ... ان جدول الماء ملآن بالأسماك الصغيرة» (٤).

أما الرحالة تريسترام الذي زار عمان عام ١٨٦٤ فيقول « ... وصلنا الى نبع غزير،وشاهدنا بقايا جدران،ووراء ذلك رأينا جسراً يقوم على ثلاثة قناطر وهو من منشآت الرومان المتبقية » « ... أما جدول الماء المملوء بالأسماك فيتعرج بالوسط بينما ترفده الينابيع هنا وهناك،بحيث تصبح ربة عمون مدينة المياه حقاً » (٥).

ولورنس اوليفانت مر بعمان سنة ١٨٧٩ وشاهد الشراكس فيها،وقال « ان عددهم لايزيد عن ١٥٠ شخصاً. وذكر انه شاهد الى الشرق من عمان موضعاً حجز فيه ماء النهر لأغراض الري » (٦).

وذكر جراي هل هي عام ١٨٨٠« ... ان منازل البلدة تقوم في واد ضيق على جانبي جدول الماء،وان الناس الذين يأتون الى عمان ينظرون باعجاب الى عربات الشركس الصغيرة ذات العجلات ،لأنه لايوجد عربات في البلاد تشبهها » (٧) .

وقال ربنسون ليس الذي زار عمان مرتين الاولى ١٨٩٠. اذ يقول:« ... ظهر في البلدة شارعان أولهما للدكاكين والثاني أصبح سوقاً ... فيه فرن يخبز الأرغفة لكافة الناس » (٨).

أما عندما زارها للمرة الثانية عام ١٨٩٣« ... ازداد عدد السكان فأصبح حوالي الف نسمة من الشراكسة،بالاضافة الى عدد من أصحاب الدكاكين من أهل السلط» (٩).

أما الرحالة النمساوي الذي زار عمان سنه ١٩٢٣ فيقول في كتابه « الطريق

---

(٤) مس كهارت ،عن كتاب : عمان عاصمة الاردن تحرير : سليمان موسى .
(٥) المصدر السابق .
(٦) المصدر السابق .
(٧) المصدر السابق .
(٨) المصدر السابق .
(٩) مس كهارت ،عن كتاب : عمان عاصمة الاردن تحرير : سليمان موسى .

الى مكه» واصفاً البلدة: « كانت عمان،العاصمة المبنية على أطلال فيلادلفيا،مدينة مغمورة لايتجاوز عدد سكانها ستة الاف نسمة» (١٠)

بعد هذه المعلومات الأولية ربما تقوى الذاكرة على استعادة بعض ما رأته العين خلال فترة الأربعينات،انها مجرد محاولة.

تبدأ المدينة،مدينة عمان،بعد رأس العين بمسافة ليست قصيرة.

أول المعالم المادية: البناء الذي يضم مولدات شركة الكهرباء،مقابل سياج رأس العين،على يمين الطريق الترابي النازل. هذه اول اشارة للمدينة.

بعد المولدات،في بسطة ضيقة من الأرض،عند تلاقي أودية الجنوب والغرب،سوق الحلال الأساسي،وهو للرعايا الكبيرة التي تأتي من الأمكنة البعيدة،وقد يتابع بعضها الى مصر او الجزيرة بعد استراحة بضعة أيام.

على التل المقابل لسوق الحلال بيت نزال العرموطي،ولعله البيت الأول الذي يحدد المدينة من الناحية الجنوبية الغربية.

على ضفاف النهر،من الناحيتين،وحتى جسر المهاجرين،بساتين الشركس وبيوتهم. كانت البيوت متناثرة،متباعدة،على الضفة اليمنى، متقاربة متداخلة على الضفة الأخرى. أما عند الجسر تماماً فكانت الطواحين.

أثناء الحرب الثانية وبعدها،ونتيجة الهجرة المتزايدة نحو عمان،اتسع حيّ المهاجرين،وبدأ يستقبل الكثيرين،وبالتالي لم يعد مقصوراً على الشركس.

بدءاً من جسر المهاجرين مروراً بالجامع الحسيني،وصولاً الى الجسر العسبلي،السوق،مع فجوات تتخللها البيوت. وغالبية سكانه والعاملين فيه من العرب، في البداية الذين أتوا من قرى وبلدات الداخل،من مأدبا والكرك والعقبة،وأيضاً من الجزيرة،ثم بعد ذلك ،وكلما اقتربنا من الجامع الحسيني،تصبح الأغلبية من الشوام.

الى جانب الجسر،عبر الشارع ،دير اللاتين،وفيه مدرسة أطلق عليها في وقت لاحق اسم المدرسة الوردية. على بعد مائتي متر من الدير كنيسة الروم الأرثودكس،وغير بعيد عنها الحمّام العام الوحيد في عمان. كان الحمّام يستقبل النساء قبل الظهر في جميع الأيام،عدا يوم الجمعة،أما بعد الظهر وفي الليالي

(١٠) كتاب الطريق الى مكة.

فللرجال . مقابل الحمام تماماً سوق الحلال الصغير ،وكانت تجري فيه عمليات البيع والشراء في كل الايام ،ويبلغ ذروته يوم الخميس . الى جانب الحمّام يقع الجسر الذي يقود الى وادي سرور . فإذا تم الوصول الى الجامع الحسيني نكون في مركز المدينة ،واهم مكان فيها ،لان معظم الشوارع تصب فيه او تنطلق منه،وحواليه تلتف الاحياء،تماماً كما هو الحال في جميع المدن الاسلامية،حيث يكون المسجد الجامع مركز الدائرة .

الجامع الحسيني بالنسبة لعمان هكذا،اذ تقوم حوله الدوائر الحكومية وسوق الخضرة ومركز الشرطة الرئيسي،وغير بعيد عنه كان في يوم من الايام اول سجن في عمان،« وكان السجن مؤلفاً من ثلاث طوابق » (١١) !

على مسافة قريبة من الجامع : سوق الخضار . لقد لعب هذا السوق دوراً مميزاً في اربعينات هذا القرن،لان الاحياء التي كانت تفرّق وتباعد بين الناس،من حيث السكن،نتيجة الانتماء،فإن السوق يجمعهم،اكثر من ذلك كان يقارب بينهم،تمهيداً لان يوحدهم .

كان الناس في عمان يسكنون وفقاً للقرابات،ثم للانتماءات،واخيراً نتيجة العلاقات،كما هو الحال في اي مجتمع زراعي تقليدي . لذلك لم يكن من السهل تجاوز التقاليد الصارمة التي تفرض نفسها . "...فالشركس يسكنون متجاورين،واهل الجزيرة العربية لابد ان يسكنوا في مكان غير بعيد عن الطريق الذي يقود الى الجزيرة مرة اخرى . والذين جاءوا من سورية استقروا،في الغالب،شرق المدينة،غير بعيدين عن السوق التجاري،وغير بعيدين عن طريق الشام"(١٢)

مقابل المسجد،مع انحراف قليل نحو الشمال،السوقان التجاريان الرئيسيان: الرضا والسعادة،واغلب التجار فيهما من الشام . حين يلتقي الشارعان،ناحية الغرب عند دار البلدية،يشكلان شارع فيصل،الذي يقود بدوره الى غرب المدينة وشمالها ،ويؤدي بالنتيجة الى وادي السير والسلط .

ومثلما كان بيت العرموطي نقطة علاّم المدينة من ناحية الجنوب الغربي،فإن بيتي صالح بسيسو ومحمد حمزة،على طريق السلط،كانا من اواخر البيوت ناحية الشمال الغربي . كذلك الحال لبيت الجيوسي في غرب المدينة،إذ كان هذا البيت

---

(١١) عبد الرؤوف منكو، ذكريات حياتي ص ٤٧، ملامح الحياة الشعبية في مدينة عمان ١٩٤٨ - ١٩٧٨

(١٢) عبد الرحمن منيف : محاضرة في عمان مؤسسة شومان - ايار ١٩٩٢.

مقابل بستان ابو شام،على كتف الدوار الاول،الذي لم يكن قد تم انشاؤه بعد . هذا إذا استثنينا بيت الفرج مقابل ملعب كوبان،والذي كان وحيداً منعزلاً،وكأن ليست له صلة بالمدينة!

لو أخذنا نقاطاً أخرى لتحديد المدينة،من حيث السكن،فان بيت الدكتور يوسف عز الدين،المقابل لدرج فرعون،كما كان يطلق على الدرج الروماني،يعتبر،مجازاً،أخر البيوت ناحية الشرق،وكذلك الحال لفندق فيلادلفيا على الضفة الأخرى من النهر. صحيح أن بيوتاً أخرى تلي الإثنين شرقاً،لكنها في الغالب صغيرة متباعدة وبالتالي لاتشكل نقاط يمكن الاهتداء بها.

اذا تم الوصول شرقاً،الى جسر المحطة،يتفرع الطريق هناك اذ تقود طريق اليسار نحو المقر،الى قصر رغدان،وطريق اليمين نحو المحطة.

أما ما يحدد الشمال،جهة القلعة فبيتان: بيت محمد أمين الشنقيطي،مرافق الأمير ـ الملك: عبدالله،وأحد الذين شغلوا الوزارة عدة مرات،وبيت ابراهيم قطان،مفتش وزارة المعارف،واحد مؤسسي « المنتدى العربي» .

وكان بيت البشارات يحدد آخر الأمكنة المعمورة في جبل اللويبدة.

أما ناحية الجنوب قياساً للجامع الحسيني،فمستشفى الطلياني،والى جانبة مشفى الست العرجا،وكان آخر مايشاهد من الأبنية،حيث يشمخ فوقهما الجبل العالي،الأشرفية،الناتئي الصخور،والذي يجثم على المدينة كالشبح.

حين بدأ الدكتور ملحس ببناء مستشفاه في جبل عمان،اقصى غرب المدينة،نظر الناس الى بعضهم وتساءلوا باستغراب: هل يمكن لمريض أن يصل الى هناك،خاصة أيام الشتاء والبرد ويبقى حياً؟!

عمان،اذن،من حيث السكن،في الأربعينات،كانت،بالدرجة الأولى،حول النهر،واذا ابتعدت لاتبتعد عنه كثيراً.

الذين سكنوا في أمكنة أبعد كانوا مضطرين لذلك،بحكم الانتماء أو بحكم الضرورة،خاصة وان الشوارع،معظم الشوارع،لم تكن معبدة،وسلوكها خلال فصل الشتاء شديد الصعوبة والعناء،اضافة الى عدم توافر الخدمات،تمديدات المياه بشكل خاص،لأن الكثيرين لم يفكروا،ذلك الوقت،بالكهرباء،نظراً لما تكلفه من أعباء لم يكونوا قادرين على تحملها!

النهر أولاً،والسوق ثانياً،وحولهما وبالقرب منهما،يسكن الناس. هكذا كانت الحال في البداية. لكن في وقت لاحق،بدأ تسلق الروابي. لم يكن هناك بوصلة أو دليل،فحيث يفترض صاحب العلاقة أن المكان الذي اختاره يناسبه،ولأسبابه الخاصة،أغلب الأحيان،يدق وتده أول الأمر ثم يضع حجر الأساس،وبعد ذلك يواصل البناء بما يعتبره أكثر ملاءمة.... أو ربما أكثر جمالاً! وهكذا نشأت في عمان مجموعة هائلة من« المستعمرات» الصغيرة. فالأبنية تقوم وسط الأراضي الزراعية،وتكون،غالباً،متباعدة،متفرقة،بحيث أصبحت المدينة خاصة الجديدة،أشبه بالبقع،كانت تفتقر الى الطرق،الى الخدمات،لكن اصراراً عجيباً أقرب الى العناد،جعل أصحابها يفعلون ذلك،الأمر الذي أدى لأن تأخذ عمان هذا الشكل،وهذا النسق،وجعل الفضاءات الخاوية بين « مستعمرة» واخرى أحد أبرز السمات التي « ميزتها» خلال تلك الفترة،وربما لاتزال كذلك،الى حد ما،وأكثر من المدن الأخرى،والى الآن!

معظم بيوت عمان،تلك الفترة،من طابق واحد،وهي مبنية من الحجر غير المصقول،ومسقوفة بالخشب والقصب والطين،كما كان يجثم على كل سقف،تقريباً،مدحلة حجرية صغيرة،اسطوانية الشكل،تستعمل خلال فصل الخريف لدحل الأسطحة وترصيصها تجنباً للدلف.

كما كان لكل بيت،في معظم الأحيان،حاكورة،وهي عبارة عن حديقة غير معتنى بها،تتناثر فيها أشجار التين والرمان واللوز والمشمش،وكان في بعضها العناب أيضاً،اضافة الى دالية تظلل مساحة واسعة،وتكون هذه المساحة،عادة،خلال فصل الصيف،المكان الذي يستظل فيه أهل البيوت وضيوفهم. وفي جانب الحاكورة « خم » للدجاج في أكثر البيوت،اضافة الى الحاجات المتروكة أو القليلة الاستعمال. حول البيت والحاكورة سور صفّت حجارته بدون مهارة وبلا اتقان،فبدا في أحيان كثيرة متعرجاً،غير متساوي الارتفاع،الأمر الذي يجعل لمعظم البيوت أكثر من مدخل!

هكذا كانت أكثر البيوت أول الأمر،عدا بيوت الميسورين،لكن الاسمنت ما لبث أن غزا واقتحم. صحيح أن غزواته بدات بمَدة تُوضع على السطح،لكي ينزلق ماء المطر بسرعة،ويقي البيت من الدلف،ثم مدّة في صحن الدار،تحت الدالية،ليكون الجلوس اكثر راحة ونظافة،الى أن تجرأ كثيرون وبدأوا ببناء غرفة من الاسمنت،وغالباً ماتكون خارجية وللضيوف،ثم أصبح الاسمنت مادة البناء الرئيسية،وربما الوحيدة.

من التقاليد التي ترافق عقد سقوف البيوت،أي « الصبّه» أن يذبح صاحب البناء خروفاً ويولم للعمال،الذين يبذلون في مثل هذا اليوم جهداً مضاعفاً لانجاز العمل،ويكونون في حالة من النشاط والسرعة،خاصة وهم يغنون ويهزجون ليشجعوا أنفسهم وبعضهم .ان ذبح الأضاحي تقليد يعود الى أزمنة قديمة،وله دلالات لاتخفى.

حين غزا الاسمنت أخذت عمان تتغير،بدأت ترتفع فيها الأبنية العالية،ذات الطوابق المتعددة،ولعل من أوائل تلك الأبنية: البريد.

أما حين زادت الأموال في أيدي الناس فقد أخذوا يصقلون الحجارة التي يبنون بها،ويتخيرون ألواناً جديدة منها،كما أخذوا يجوّدون في الهندسة والبناء،خاصة بعد أن وصل من التل،المدينة القريبة من دمشق،عدد من الحجّارة والبنائين المهَرة،وكانت تجربة هؤلاء عريقة في مجال البناء،الأمر الذي جعل بعض البيوت التي أقاموها،في نهاية الأربعينات،قبلة للناس،ينظرون اليها ويطيلون النظر،اعجاباً وتقديراً للجمال والصنعة.

ويوماً بعد آخر،ولأسباب كثيرة،بدأت عمان تدخل في طور جديد،من أبرز مظاهره ان أخذت بيوت السكن تنأى شيئاً فشيئاً عن السوق وعن مجرى النهر،بدأت ترتقي أكثر التلال وتوغل في البعد عن الأماكن المزدحمة.

خلال فترة قصيرة بعد الحرب امتدت المدينة واتسعت في جميع الجهات،وأخذت سفوح الجبال،التي كانت عارية،تتطرز بالبيوت. صحيح أن هذه البيوت متفاوته،وبعض الأحيان تفاوتاً كبيراً،لكن ماكان يعتبر بعيداً أو صعباً،مالبث البشر ان احتملوا بعده،وتغلبوا على صعوباته،رغم اختلاف الدوافع والامكانيات. فجبل عمان،عدا السفح الجنوبي،أصبحت تكثر فيه البيوت ذات الحجارة البيضاء. فاذا تعذر بناء البيت كله بنفس الحجارة فلا أقل من الواجهة الأمامية!

أما السفح الجنوبي الذي بدأ فقيراً فقد استمر كذلك،رغم تزايد السكان فيه أكثر من السفوح الأخرى. فحي المصاورة،نهاية شارع خرفان،امتد جنوباً وغرباً أكثر من قبل،وأخذ يتدلى كنبات الصّبير،باتجاه الجزء الأعلى من المهاجرين!

وجبل اللويبدة أخذ مسيرة جبل عمان،لكن بوتيرة أبطأ. بدأت تظهر على سفحه الجنوبي بيوت واسعة وجميلة. أما السفح الشمالي،المطل على طريق السلط،فقد قامت مجموعة من المنشآت التجارية والمكاتب،وكتب على واجهات بعضها:« هذا من فضل ربي» أو « ماشاء الله» . فأديب الصباغ والبلبيسي وشنانة

أقام كل منهم مجمعاً،ومالبثت هذه المجمعات أن أصبحت مركزاً تجارياً وادارياً للمدينة،وأخذت التجارة وأخذ التجار يزحفون في هذا الاتجاه!

سفوح الجبال الأخرى: النظيف والأشرفية والجوفة،امتلأت أيضاً بالبيوت التي أخذت تتراكم بسرعة،ودون اتقان،من أجل ايواء القادمين الذين تزايدوا بشكل كبير خلال هذه الفترة.

بكلمات قليلة: أصبحت عمان تتسع وتكبر بوتيرة تفوق التصور،وتفوق أية فترة سابقة،أما عندما جاءت سنة ١٩٤٨،وتدفق عدد كبير من اللاجئين،فقد أصبحت المدينة وخلال فترة قصيرة،خزاناً بشرياً مكتظاً.

لقد ظل الرقم: ثلاثون،وخمسة وثلاثون ألفاً،يتردد في بداية سنوات الأربعين،كتقدير لعدد سكان المدينة،وكانت الكتب المدرسية تؤكد ذلك. أما بعد الحرب العالمية الثانية،ثم بعد نكبة فلسطين،فقد اضطربت الأرقام وتفاوتت كثيراً،ولم يعد من السهل إعطاء رقم دقيق لعدد الذين يقيمون في عمان.

وباعتبار أن المدن ليست الأبنية فقط،وليست الأرقام وحدها،فإن من أبرز ما بدأ خلال هذه الفترة تزايد حركةالسكان،اذ بالاضافة الى التوجه نحو التلال،فإن تداخلاً أهم أخذ يشق طريقه ويفرض نفسه. حيث تجاوز الكثيرون الصيغة السابقة،التقليدية،من حيث مكان السكن أولا، ثم أخذت النظرة والعلاقة تتغير بعد ذلك. وهكذا نشأ تمازج سكاني شديد التنوع والغنى،أصبح الحّي الواحد يضم سكاناً من منابت ومذاهب متعددة،وأصبحت رابطة المدينة أقوى من الروابط السابقة.

ان المدينة لاتكتسب هذه الصفة إلا اذا ارتفعت فوق الأجزاء التي تكّونها،وقامت فيها علاقات مدينية حقيقة. هذه العلاقات ليست نتيجة الرغبة قدر ماتكون نتيجة التطور في طبيعة الروابط وأسباب المعيشة والنظرة،اضافة الى الشعور بالأمن. وهذه كلها تفرض،بدورها،نمطاً جديداً من العلاقات والسلوك،تؤدي الى صفات تميز الحياة والناس في ذلك المكان.

كان يمكن لهذه الحالة أن تترسخ وتنمو لو أمكن التحكم ببناء المدينة وتوسعها،في ظروف طبيعية،خاصة وان عدداً من العناصر الايجابية كانت متوافرة وتساعد في الوصول الى ذلك. فالتنوع القوي والديني والمذهبي الذي ميّز عمان،والذي يكون في أحيان معينة عاملاً سلبياً معيقاً،خاصة في المدن القديمة المغلقة،كان في حالة عمان عاملاً ايجابياً.

فقد أدى تلاقي العنصر الشركسي بالعنصر العربي،وتحديداً البدوي،من حيث العادات والنظرة،وخاصة للمرأة،الى تجاوز مرحلة بكاملها،اذ انتقلت المرأة الى السفور دون مقاومة،ودون قيود. ثم جاء التعليم ليعزز وضع المرأة،ويجعلها عنصراً منتجاً وأكثر استقلالاً. كما أن التزاوج الذي تم بين العرب والشركس،واتقان الشركس للغة العربية،واعتبارهم للموطن الجديد وطناً نهائياً ووحيداً،هذه الأمور ساعدت على ترسيخ القناعة ثم العلاقة،خاصة وان الوضع المادي لهؤلاء تحسن كثيراً نتيجة ملكيتهم لمساحة واسعة من الأراضي،والتي ارتفعت اسعارها بشكل سريع ومتزايد،مما انعكس ايجابياً على علاقة الشركس بالمكان والآخرين.

يضاف الى ذلك ان العلاقات الاسلامية- المسيحية اتسمت بالكثير من التسامح والتفاعل الايجابي، وتأكدت أكثر من خلال التقارب السكني وعلاقات العمل،في الوقت الذي أخذت مثل هذه العلاقات في أمكنة أخرى،صفات سلبية،نظراً للعزلة والخوف المتبادل،اضافة الى التحريض الخارجي .

وماينطبق على العلاقات الاسلامية- المسيحية،ينسحب أيضاً على العلاقات داخل الدين الواحد،بين المذاهب،إذ سادت روح التآخي والتقارب،قلما تتوافر في امكنة اخرى .

قد يكون هذا التحليل استطراداً او زائداً في وصف حال المدينة،عمان،في الاربعينات،ولكن نتيجة المقارنة،والنظر الى الامور من مسافة،وبعد اختبار علاقات من انماط مختلفة،يكتشف الانسان هذه الصفات الايجابية الهامة،والتي يمكن ان تشكل جسراً قوياً للانتقال،والتي كانت ولاتزال،موجودة في عمان،إلا أنها لم تستثمر بطريقة فعالة ومستمرة .

فإذا تجاوزنا الرغبات (وربما الاماني) وعدنا الى المدينة التي كانت،وحاولنا ان نقرأها،فكيف كانت تبدو ؟

كانت عمان،اثناء الحرب،خائفة،منتظرة،تعيش عيشة الكفاف،وتبدو اقرب الى التقشف،لكن ماكادت الحرب تنتهي حتى اصبحت المدينة مدينتين،واحدة للاغنياء،والاخرى للفقراء،وتأكدت هذه الصفة وتزايدت بعد ١٩٤٨ . ومما ساعد على تأكيد هذه الصفة،الطبيعية الجغرافية للمدينة،وعدم وجود تخطيط واضح لتوسعها . وهكذا اتسعت عمان وكبرت بشكل عشوائي،الامر الذي فرض شكلاً وامتداداً لم يعد من السهل الحكم بهما .

وإذا كان الجامع الحسيني قد ظل،لفترة طويلة،مركزاً لعمان،فإن طريقة امتداد المدينة وتوسعها،جعلاه يفقد هذه المركزية،خاصة وان التوسع لم يقتصر على بيوت السكن،فقد ترافق ايضاً بالاسواق والخدمات وتطور وسائل النقل،مما جعل حاجة الناس لهذا المركز تتراجع،خلافاً لما هي حال مراكز تقليدية مماثلة في المدن القديمة،كالقاهرة ودمشق وبغداد .

المكان الآخر الذي شكّل مركزاً للمدينة،ولفترة طويلة ايضاً،مع اختلاف الوظيفة : المدرج الروماني .

ورغم التأكيد الذي سجله التاريخ ان الرومان هم الذين بنوا هذا المدرج،ويظهر ذلك ايضاً من طراز البناء،فقد اطلق الناس في عمان على هذا المدرج تسمية أخرى : درج فرعون .

لماذا اطلقوا هذه التسمية ومتى ؟ ان الاجابة الكاملة عن هذا السؤال مهمة المؤرخين،ومع ذلك من المفيد،هنا،الاشارة الى أن بعض التسميات،الخاطئة،يمكن ان تتوارث في المدن العريقة والمستمرة،لكن عمان التي اندثرت بالكامل خلال قرون معينة،الى ان جاءها الشركس،مهاجرين،في الربع الأخير من القرن الماضي،تختلف عن تلك المدن،وبالتالي تطرح تسمية المدرج باسم درج فرعون سؤالاً :

هل لحملة ابراهيم باشا،ابن محمد علي،أثناء استيلائه على المنطقة،وبالتالي التمازج السكاني،ولو بمقدار،وخلال فترة محدودة،علاقة بهذه التسمية ؟

هل للبطالسة الذين حكموا مصر،بعد الاسكندر المقدوني،والصراع الذي نشأ بينهم وبين السلوقيين،ثم مع الانباط،علاقة ترسبت عبر التاريخ في اذهان الناس،الامر الذي دعاهم لاطلاق هذه التسمية ؟

الا يحتمل ان يكون بعض الافراد،مجرد افراد،الذين قدّر لهم زيارة مصر ومشاهدة آثارها الفرعونية،هم الذين اطلقوا هذا الاسم،اعتقاداً منهم ان كل أثر ضخم لا بد ان يكون له علاقة بالفرعون والفراعنة ؟

ثم الا يعتبر الحاكم القوي المستبد،والذي وحده القادر على تسخير الناس من اجل اشادة مثل هذا البناء الضخم،هو (الفرعون)،خاصة وان التسمية الدارجة التي يطلقها العامة على الحاكم من هذا النوع بانه فرعون ؟

هذه الاشارة للموضوع تطرح سؤالاً اكثر مما تقدم اجابة .

ومع ذلك،يبقى المدرج الروماني،او درج فرعون،في الذاكرة الجمعية الموغلة في القدم،جزءاً من حالة ليس من السهل تفسيرها،سواء من حيث التسمية او المكان او من الوظيفة .

فالشركس الذين وصلوا عمان مهاجرين،حلّوا،اول ما حلّوا،في المدرج الروماني،اذ اتخذوا بيوتهم بين اعمدته،واستعانوا بحجارته من اجل بناء بيوت جديدة لهم .

ثم دار الحكومة التي اقيمت بعد نشوء شرق الاردن،اقيمت بالقرب من المدرج الروماني .

والاحتفالات الهامة التي جرت في بداية قيام الدولة الجديدة،والى وقت متأخر نسبياً،كانت تجري في رحاب المدرج الروماني .

والفندق الاول،الهام،والكبير،الذي شيّد في عمان،فندق فيلادلفيا،كان مقابل المدرج الروماني.

ثم ان (العيد)،وهو اهم الاحتفالات واكبرها،لا يقوم في عمان،خلال اربعينات هذا القرن،الا في هذا المدرج .

يضاف الى ذلك ان التسمية الشعبية التي كانت تطلق على المدرج ــــ اذا تنازلت عن تسميته بدرج فرعون،هي (الميدان)،ولا تخفى اهمية ودلالة مثل هذه التسمية في الذاكرة الشعبية .

ان اموراً كهذه تطرح سؤالاً من نوع جديد : الى اي حد يتخفى التاريخ في ذاكرة الناس،لكن لا ينتهي ؟ اكثر من ذلك،الا يضمر التاريخ،بمكر،ولكنه ينهض بعنفوان ويؤثر في سلوك الافراد والجماعات،كطريقة للدفاع عن النفس وتأكيد الذات ؟

من يرى عمان ايام العيد،او في ايام اخرى مشابهة،في (الميدان)،في رحاب درج فرعون،او المدرج الروماني،ويقارن ما يراه بالصور والمشاهد التي سجلها التاريخ،والتي كانت تجري في عين المكان قبل الفي عام،يدهش من المماثلة والوظيفة التي كان يؤديها المدرج،ويمارسها الناس في رحابه .

اكثر من ذلك،يقول التاريخ ان جزءاً من المسرحيات التي كانت تقدم في المدرج،كانت تقدم بطريقة صامتة،ومن خلال الاشارات فقط،لتعدد اللغات التي كانت

سائدة آنذاك،ولافتراض ان الاشارات اكثر دلالة،وربما ايضاً لانها كانت الطريقة الافضل في التوصيل .

هكذا كان الحال في « الميدان » ايام العيد،فالصخب لا يتيح الفرصة لان يسمع الانسان الآخر،او ان يفهم عليه،لكثرة البشر،ولتعدد وسائل التعبير . فالطبول والمزامير،الرقص والغناء،ثم نداء الباعة،اضافة الى صراخ الاطفال،هذا عدا عن اصوات القلابات والمراجيح والمصورين واصحاب العربات والمهرجين،والذين يصرخون : راس بلا جثة،تتداخل كلها فتخلق حالة من الدوّي لا يحس بها من كان داخلها . أما حين تنفد القروش القليلة التي يحملها الاطفال،ويبتعدون قليلاً،بارتقاء درجات اعلى في المدرج،او بالعودة « لمعايدة » من لم تتم معايدتهم بعد،اذ ربما يحصلون منهم على بعض القروش الاضافية التي تمكنّهم من العودة مجدداً الى « الميدان » ... اذا ابتعد الاطفال قليلاً،ورأوا المشهد من مسافة،او سمعوا الاصوات وراءهم تطاردهم،يحسون اكثر بمدى الفرح الذي ولّده العيد في قلوبهم،خاصة في هذا المكان بالذات،والذي لا يغني عنه اي مكان آخر،رغم وجود المراجيح وبائعي الفول في اماكن عديدة !

في اليوم الأخير من ايام العيد،عند العصر،تحتشد عمان كلها،تقريباً،في المدرج . ومثلما كانت تجري الاحتفالات القديمة،قبل الفي عام،كان رجال عمان المعاصرون،هم فرسان اليوم الأخير للعيد . فالغناء والعزف والدبكة،وكل المخزون من البراعة والقوة،يتجلى بين العصر والغروب،وكأن الناس يودعون اياماً لن يروا مثلها الا بعد وقت طويل،او كأنهم يقولون خلال هذه الساعات ما لم يقولوه في ايام كثيرة سابقة .

اكثر من ذلك ... حين تميل الشمس،وتبدأ الظلمة الخفيفة،يتداخل الزمن والاشياء،إذ تخرج الاصوات القديمة،التي طواها الماضي البعيد،تخرج مرة اخرى،تختلط بالاصوات التي تتردد في هذه اللحظات،وكأن شيئاً ما شبكها،احياها،او كأن الاصوات الآن تجد صداها بتلك الاصوات من خلال نغم شجي وحاسم: انها منذ هذه اللحظة ستصبح،أيضاً،اصواتاً قديمة،وتنضم الى هذا الموكب .

بالاضافة الى ذلك،تتبدى اشباح الناس الذين كانوا في فترات سابقة،إذ تغدو الوجوه والملامح ذاتها،فيصبح المكان جليلاً،وموحياً ومولداً للخوف . حتى حركة الناس،في لحظات معينة،عصبية مرتاعة،تريد ان تغادر المكان قبل ان تصبح جزءاً من حجارته او اصدائها البعيدة!

إذا كانت احتفالات درج فرعون تبلغ ذروتها ايام العيد،فإن اياماً اخرى تتمتع بأهمية مماثلة او مقاربة . ولعل ابرزها الاحتفالات التي كان يقيمها الحاج عمر في المناسبات الدينية،ثم في بعض الليالي الخاصة،وايضاً في ليلة خسوف القمر .

فالحاج عمر،ذلك الدرويش الذاهل الذي يطوف شوارع عمان،والذي يرافقه بعض المريدين والمتسولين،ويُعتقد ان له بركات،وانه صاحب طريقة،ويشمل بعطفه الحيوانات كالقطط والكلاب،وتروى عنه القصص،كما يؤكد الكثيرون انه ينفق،بسرية،على عدد كبير من العائلات الفقيرة،إذ يأخذ من الاغنياء ويعطي الفقراء ... كان هذا الحاج،بالاضافة الى بركاته الكثيرة،يقوم بعمل آخر خلال شهر رمضان،إذ يصبح كبير مسحري المدينة،ويخضع لنفوذه الادبي،هكذا يفترض الكثيرون،المسحرون الآخرون .

كان الحاج عمر احد ابرز معالم المدينة،خاصة في هذا الشهر .

كان طبله الكبير يملأ بدوّيه الصاخب الساعات المتأخرة من ليل عمان،خاصة شرق المدينة،الامر الذي يجبر أي انسان على الاستيقاظ للسحور،مهما كان نومه ثقيلاً،او في اية ساعة آوى الى الفراش .

أما إذا جاء اليومان الكبيران في رمضان،الخامس عشر والسابع والعشرون،فإن عمان تعيش حالة خاصة،نادرة،لاتماثلها اية ليالٍ اخرى .

في مثل هذين اليومين،يبدأ الحاج عمر،ومعه مريدوه،وجمع كبير من الصبية والمتسولين،بعد ان يكون قد لّف نفسه بملابس ملونة،وشد الطبل الى صدره،وركّز علماً اخضر كبيراً الى جانب الطبل،ناحية اليسار،قابضاً عليه بيد،وباليد الاخرى مطرقة الطبل .... وعند الضحى يبدأ طوافه بالمدينة .

كان يطوف المدينة من اقصاها الى اقصاها،مع الاناشيد والتهاليل وصوت الطبل . ورغم انه لايطلب صدقة،ولايتوقف عند احد،الا ان كمية كبيرة من الملابس والحاجات،الى ارغفة الخبز،الى النقود،كانت توضع في السلال التي يحملها المريدون،او تُدّس في ايدي او في جيوب المقربين من الحاج. ويظل الامر كذلك،من الطواف والتهاليل والصدقات،حتى العصر . عند العصر،او بعده بقليل،يتوجه الحاج عمر شرقاً،ليعود الى قرب المدرج،حيث يكون بعض مريديه،خلال غيابه،اوقدوا ناراً كبيرة،ووضعوا عليها قدراً،وبدأوا بإعداد شوربة الحاج .

ما ان يصل حتى يُفسح له المجال واسعاً،لكي يُضفي على الحساء لمساته الاخيرة وبركاته،إذ ينشغل،وبهمة كبيرة،في تحريك الحساء،بإضافة بعض المواد

اليه،في تقليب النار . فإذا اقترب الافطار يشاهد العشرات الذين اصطفوا،وبأيديهم اوعية فقيرة،او تدّل على النعمة،ليأخذ كل واحد منهم مقداراً من الحساء،حيث يتولى الشيخ بنفسه سكبه في الاواني .

يقول الكثيرون ان هذا الحساء يشفي من المرض ويجلب البركة،ويبالغ بعضهم فيؤكد انه يحقق المراد ايضاً ! ولايتردد عدد من الاغنياء في ان يبعثوا باولادهم،او باقارب لهم،لكي يجلبوا مقداراً من هذا الحساء،يجزم كثيرون ممن فعلوا ذلك انهم لم يذوقوا منذ وقت طويل حساء بهذا المذاق الطيب !

الشخص الوحيد الذي يعلن احتجاجه على هذا الاحتفال،وينتقص من اهميته،الشيخ صالح،مسّحر المنطقة الغربية من عمان . إذ يعتبر طواف الحاج عمر في كل انحاء المدينة،متجاوزاً منطقته،ومتعدياً على مناطق نفوذ الآخرين،امر لايمكن السكوت عليه او التسامح به، ولذلك يطلق لسانه بالتنديد، والتعريض، وحين يُنبّه الى اننا في شهر رمضان، الشهر الحرام،الشهر الذي لا يجوز فيه التشهير،يصرخ بحرقة :

– قولوا لحية التبن،قولوا لحجكم،وين خبّا روحه شهور وايام،وبعدين طلع علينا وكأنه احد الصحابة !

بعد هذا الاحتفال،ولمدة عشرة ايام،يغيب الحاج عمر،حتى ليقال ان احداً ينوب عنه في طبل السحور ! الذين يقدرون بركاته،يقولون انه يستعد ليوم السابع والعشرين من رمضان،وغيرهم يقول انه مشغول بتوزيع الصدقات التي جمعها في الاحتفال على المستحقين والفقراء،ولانها كثيرة،ويجب ان يختار لكل انسان ما يناسبه،فإنه يقضي وقته في تسجيل الاسماء والحاجات،وعليه ان يكون دقيقاً حريصاً لئلا يقع في خطأ يلوم نفسه عليه في الدنيا،وينال جزاءه في الآخرة ! أما الشيخ صالح الذي لاتصله الردود على شتائمه وتعريضاته،وحين يقال له ان الحاج عمر غاب،او انه لم يشاهد،فيرد بسخرية :

– غيبة اهل الكهف ...

وبعد قليل وبسخرية أكثر :

– تنبل . اي نعم،طول عمره تنبل،لكن وين اللي يقتنع ويصدق !

وحين لايرد عليه احد،يصرخ بغيظ :

– قولوا لي وين موكّر ؟ وين صارت اراضيه ؟

وحين يأتي السابع والعشرون من رمضان،وبطريقة لاتخلو من براعة،يظهر الحاج عمر من جديد . وربما هذه المرة بمهابة اكبر،وإن كانت لاتخلو من حزن،مع اناشيد تناسب هذا اليوم،لان الشهر الفضيل،رمضان الكريم،يودعنا ونودعه،ويجب أن يكون الاحتفال متناسباً مع هذا الشعور بالاسى والفقد نتيجة قرب انتهاء الشهر .

والشيخ صالح الذي لعلع وعرّض وتحدى في الايام الماضية يغيب تماماً،يغيب حتى عن بيته،كما يقول بعض الخبثاء،خشية ان ينتقم منه مريدو الحاج عمر،اثناء طوافهم في غرب عمان،ولابد ان تكون قد وصلتهم شتائمه واقواله . لكن عند العصر،حين يكون موكب الحاج عمر متجهاً نحو المدرج،لتوزيع الشوربة مرة اخرى،يخرج الشيخ صالح فجأة،يخرج مع طبله هذه المرة،ويملأ حيّ المهاجرين بالصراخ والادعية والشتائم،مذكراً الناس ان يوم القيامة اقرب اليهم من حبل الوريد !

صراع صامت من ناحية ومدوٍ من ناحية ثانية،بين طرفي المدينة،والناس يتابعون بدقة،يراقبون،واغلب الاحيان،راغبين او مشفقين،إذ بمقدار مايفترضون ان لا غنى عن اي من الرجلين،لان كل واحد منهما جزء من نسيج المدينة،يعتبرون الشيخ صالح مغالياً،اقرب الى الافتراء والتجني،ومع ذلك يريدونه ان يبقى كذلك،إذ لو فقد او تنازل عن هذه الصفة لأصبح دون معنى،وبلا ملامح،وبالتالي فإن تحريضاً،صريحاً او ضمنياً،كان يمارسه الناس لكي تبقى الامور كما هي الحال الآن !

قبل الانتقال الى اناس آخرين،لابد من كلمات اخيرة عن المدرج الروماني،او درج فرعون: ففي رحاب ميدانه،وعلى ادراجه،كانت تجري عمليات بيع وتبادل لاشياء وحاجات ليس لها مكان في الاسواق الاخرى،فبيع الحمام لايجري في سوق الحلال،وكذلك بيع الأرانب،وانما مكانها الأساسي،وربما الوحيد،تحت أعمدة المدرج. وكذلك حال بعض الحيوانات غير الأليفة وبعض الطيور،فالغزلان،وقد كانت كثيرة خلال تلك الفترة،يحملها البدو ويدورون بها،فإن وجدوا مشترياً باعوها،والا واصلوا رحلتهم الى « الميدان» حيث يجدون هناك من يشتريها،وكذلك الحال بالنسبة لطيور الحجل والصقور،وفي حالات قليلة الحباري.

وعلى الأدراج العالية،وهرباً من المراقبة والشرطة،كانت تجري العاب قمار كثيرة،لكن المقامرين،وقد انتبذوا أمكنة قصيّة،يستطيعون أن يتدبروا أمرهم قبل أن تصلهم الشرطة وتقبض عليهم.

وفي زوايا المدرج،كان يوجد دائماً الباحثون عن الكنوز،وغالباً مايكون هؤلاء من المفلسين،لكن لديهم قناعة،ولدى بعضهم خرائط ملفقة،انهم سيتحولون بين يوم وأخر الى أثرياء كبار،كان هؤلاء يتظاهرون بالبراءة،وانهم هناك للراحة والتأمل،لكن ما ان يحسوا بالأمان حتى يبدأوا رحلة بحثهم التي لاتنتهي!

واذا كان معظم الاحتفالات يجري في المدرج نهاراً،فإن له احتفالاً ليلياً يهز عمان: ليلة خسوف القمر.

صحيح أن الخسوف لم يتكرر إلا قليلاً في الأربعينات،مرة أو مرتين،ولكن المدينة التي تكون ساهرة أو نائمة،ويكون الصمت شاملاً عميقاً،عدا أصوات حشرات الليل،أو عواء كلاب سائبة،تتحول فجأة الى حالة من الهياج والضجة حين يبدأ الحوت بابتلاع القمر!

يخرج الناس الى أسطحة المنازل،الى الشوارع،الى الأمكنة المفتوحة،لكي يراقبوا،ويحتجوا أيضاً،لاختفاء القمر. كانوا يخرجون حاملين الأواني الفارغة التي يمكن أن تحدث أكبر قدر من الضجة والصخب،ويبدأون بالدق عليها،مع أهازيج لاتخلو من غضب طالبة من الحوت أن يخلي القمر،أن يتوقف عن ازدراده أولاً،ثم اخراجه بعد ذلك.

كان الكثيرون يدقون ويتوسلون وهم في عين المكان،لكن أخرين،حين يسمعون صوت طبل الحاج عمر،يتوجهون الى حيث يكون الطبل،الى المدرج الروماني. فهناك يكون أكبر تجمع بشر مع الأواني والطبول والصراخ،مع كمية من الشتائم والتهديد أيضاً،وكلها،تطالب،وتلح في الطلب،أن يفرج الحوت عن القمر.

انها واحدة من الليالي النادرة التي تعيشها المدينة،والتي لاتنسى رغم مرور الزمن.

والحاج عمر الذي يكون في أيام رمضان متفرداً وحيداً فانه في ليلة الخسوف ليس أكثر من طبل،وليس أكثر من واحد ضمن هذه الجموع الكبيرة،وحين يُقال ذلك للشيخ صالح،الذي لايتأخر بدوره عن المشاركة في اخراج القمر من بطن الحوت،لكن من مكان آخر،غرب المدينة،فإنه يعلق ساخراً:

– كان الحاج عمر،صاحبكم،مثل اللي ترقص بالعتمة!

يضحك بصخب فتبرز أسنانه الكبيرة المصفرّة،ويتابع:

– الفرق كبير ياجماعة،بين واحد يغني ببير وواحد براس الجبل وصوته يرعد رعد.

كان يشير الى دوره،حين يخرج وبعض الفتيه الى تلة المصدار،بالقرب من المقابر،وهناك يتولى تهديد القمر،اذ بعد أن يخرج من جيبه ساعة قديمة متوقفة،وينظر اليها في الظلمة،ثم يقربها من اذنه لكن لايسمع شيئاً،يقول بغضب:

- اسمع.. معك من الواحد للمّيه،اذا تركته عفينا عنك،سامحناك،أما اذا...

ويبدأ العد.

يقول الفتيان الذين كانوا يتابعون « معجزات» الشيخ صالح انه يبدأ يطيل الفترة بين رقم وآخر حين بلغ الثمانين،وكان يزداد غياب القمر،حتى اذا انتهى من العد،ولم يزدد القمر إلا غياباً،التقط بعض الاحجار،وتفل في يده،ثم بدأ يقذفها نحو الحوت،وطلب من الصغار أن يفعلوا مثله،ولم يعد من المقابر إلا بعد أن هزم الحوت وأخرج القمر!

ولوقت طويل ظل يردد،اذا تذكر،أو ذكره أحد بخسوف القمر.

- الفرق كبير بين الجورة والجبل... وفهمكم كافي!

كان بهذه الكلمات القليلة يميز بين موقع المدرج في ذلك المنخفض من الأرض،وبين جبل المصدار،وبالتالي يميز بين دوره في دحر الحوت وبين دور الحاج عمر!

لم تكن عمان تغالب ضجرها وهمومها بمداعبة الشيخ صالح وحده،لأن هذا الشيخ بمقدار مايبدو مسلياً،ومقبولاً في بعض الأحيان،إلا انه في أحيان أخرى سليط اللسان الى درجة البذاءة،كما لايتردد في أن يكون خشناً،وبعض الحالات عدوانياً،الأمر الذي يجعل الكثيرين لايتحاورون معه،لأنهم يخشون لحظات جنونه. بل وأكثر من ذلك يتجنب البعض مجرد الاحتكاك به او ممازحته. ولذلك يلتفت الذين يؤثرون السلامة،ويرغبون بالمزاح أيضاً،الى اناس آخرين.

كانت شتية احدى معالم السوق التجاري،امرأة معتوهة تذرع الشوارع ساعات طويلة كل يوم،وهي ترتدي كل ماتملك من ملابس. كانت ملابسها طبقات عديدة ملونة،وفوقها دائماً معطفها البالي،والذي لاتتخلى عنه حتى في أشد أيام الصيف حرارة،كانت تتجول صامتة،تبحث في الزوايا عن شيئ ضائع،خاص بها. ومع ذلك لاتتردد في تقليب القمامة بحثاً عن هذا الشيئ،وقد تلتقط ماتعتبره مفيداً،لكي تعطيه للآخرين. والقصص التي يتناقلها السوق عن الحاجات الثمينة التي وجدتها شتية أثناء البحث كثيرة ومليئة بالمبالغات!

اذا تعبت من البحث والمشي تستريح في ظل احد المحلات،مادة رجليها على طولهما،فيبدو البسطار الجيشي القديم المهترئ الذي تلبسه،وكان أجدّ ماتملك!

في استراحتها يبدأ السوق بممازحتها: تُسأل عما تبحث؟ متى ستتزوج؟ رأيها بالشيخ صالح وبشارة واليماني،وآخرين يشابهونها في الحالة والمهنة. تتطلع شتية الى السائلين. تجيب بعض الأحيان،وتصمت اغلب الأحيان. حتى اذا جاء علي اليماني،التائه الآخر الذي يذرع المدينة،واقترب،لابد أن يدفعوه أو يغروه للجلوس الى جانبها،وعند ذالك يقول الكثيرون وقد امتلاؤا فرحاً « حبكت» ! وتبدأ المقالب.

كانت تنتهي الجلسة،في معظم الحالات بالشتائم و التحديات،وهذا بفعل المحرضين أكثر مما هو نتيجة خلاف حقيقي بين الإثنين. والناس الذين يتجمعون ويتزايدون لايملكون أنفسهم من القهقهة وزيادة التحريض!

انها واحدة من التسليات القاسية التي كانت تتسلى بها جماعة من التجار في السوق وبعض المتسكعين،ومع ذلك فقد كان في عمان من العطف وحماية الضعفاء الشيء الكثر.

فابو الحيايا،سلامة الذي كان معتوهاً مسالماً،إلا حين يستثيره الصبية،تعوّد أن يقضي وقتاً طويلاً في سوق الخضار،مراقباً عمليات البيع والشراء،ومعلقاً بصوت مسموع على فروق الأسعار والخداع،ومع ذلك كان بعض تجار السوق يستخدمه لقاء أجر لنقل بعض الأشياء من مكان الى أخر،في كنس بقايا الخضرة،فاذا تغاضى عنه الذين يحمونه أو نسوه يصبح لقمة سائغة للساخرين والعابثين. والغريب أن أغلب هؤلاء من الفقراء،من الحمالين أو المتسببين،اذ يلجأون الى تحديه:

- ... سلامة ... اذا شلت هذا الكيس لك قرش.

- لا .. قرش ونصف.

- طيب.. قرش ونصف،لكن اذا ماشلته؟

- إلكم علّي قرشين!

ويحاول سلامة،فاذا بدا انه سيقدر على حمله،وضع أحدهم يده فوق الشوال لتثقيله،أو مدّ شنكله وغرزه في الشوال،الأمر الذي يجعل سلامة،أغلب الأحيان خاسراً،فيّجر الخرقة التي ربط فيها نقوده القليلة ويدفع،مع تهديد لايكف عن ترديده:

- هالمرة قرّقت،ماطلع بي حيل،لكن بكرا بتشوفوا!

ويأمر الذين ربحوا،لأنفسهم ولسلامة،بكأس من الشاي،ويسأل سلامة وهم يشربون:

- بالله،بشرفكم،كم كيلو هذا الكيس؟

حين يذكرون رقماً كبيراً يهز سلامة راسه موافقاً،أما اذا ذكروا رقماً صغيراً،وربما الوزن الحقيقي،فينظر اليهم بغضب ويقول:

- يعلم الله لما بلّشت ماصلّبت،وهذا اللي طّيح حيلي.

ويتشارطون مرة أخرى،فيصلّب سلامة بصوت مرتفع ويبدأ،لكن يعجز نتيجة المؤامرة،ويشربون دوراً جديداً من الشاي بالمبلغ الذي خسره سلامة،الى ان يأتي أبو راغب أو الخليلي ويخلصه من براثن العتاة،مع تكليفه بعمل جديد ليعوض الخسارة!

وكان في عمان أيضاً أبو زهدي،لكن هذا الرجل كان همه وثأره يتجاوزان البشر،فبعد أن فقد ابنه بضربة شمس،أصبح معتوهاً ويريد أن ينتقم،ولذلك: أخذ يطارد خصمه الحقيقي: الشمس.

كان يبدأ من الفجر،حيث يحمل عصاه الخيزران ويتجه نحو الشرق،الى حيث تظهر الشمس،لكي يداهمها في مكمنها هناك وينتقم،وحين « تخيبه» وترتفع فوق عصاه،أو تسبقه،يهددها بأن موعده القادم،لن يخيب ! لذلك كان يشاهد وسط المدينة خلال النهار،لكن عينيه لاتفارقان السماء.

يمر أبو زهدي بالناس وسط المدينة دون أن يراهم،وكانت شتائمه وتحدياته موجهة الى الشمس وحدها،وكان كثيرون يحترمون حزنه ويفهمون تحديه،ولذلك ينظرون اليه بأسى،دون أن يزعجوه،حتى بعض السواق،وهم يرونه يعبر الشارع،وعيناه نحو السماء،يتوقفون لكي يمر،كانوا يفعلون ذلك دون احتجاج،دون شتائم،خلافاً لعادتهم،حين يضطرون للوقوف الفجائي في حالات أخرى!

واذا كانت النميمة احدى صفات البشر في كل مكان وفي جميع العصور،وإن اخذت اسماء مهذبة في بعض الحالات،فعمان واهلها لم يشذوا عن هذه القاعدة !

فأبو رحمة المنادي الضرير،وكان قصيراً سميناً،يحفظ عمان عن ظهر قلب . يعرف شوارعها ويعرف ناسها بالأسم . كان يدب في المدينة منذ ساعات الصباح

المبكرة،ويظل يذرع الشوارع،ويتوقف في " محطات " رئيسية لكي ينقل الاخبار،حتى غياب الشمس،فيعود الى بيته في المهاجرين،وتكون محطته الاخيرة،اغلب الاحيان،عند الشيخ صالح !

كان ابو رحمة يعرف كيف ينقل الاخبار،وعن،ومتى،خلافاً لطريقة ام علي الشرشوحة البدائية،والتي كانت تفرغ كل ماعندها خلال فترة قصيرة،وتمضي الى بيت آخر،لكي تعيد تفريغ نفس الاخبار وبنفس الطريقة .

ابو رحمة رجل ماكر،يلمّح ولايصرّح،يغمز ويواري،لكن رسالته تصل في معظم الاحيان. فالتاجر الذي لم يتصدق عليه في خميس سابق،لعدم وجود " فراطة"، لابد ان يدفع الضعف في خميس لاحق،يفعل ذلك صاغراً،خشية ان يصبح لقمة في فم البورزان،ابي رحمة،علماً بأن ابا رحمة لايشير ولايذكّر،لكن طريقته في الحديث عن ذاك الذي لم يدفع له قبل سنة تجعل الذي نسي الدفع في المرة السابقة يدفع فوراً . كان ذلك يجري في اطار مجموعة من القصص والنوادر والذكريات،بحيث يصبح الهدف شراء سكوت هذا الاعمى باي ثمن !

ولان جزءاً من عمل السوق يعتمد على المنافسة،فإن ابا رحمة يعرف كيف يؤيد تاجراً ويحارب آخر،إذ يسوق الاحاديث،التي تبدو بريئة في الظاهر،او كأنها حصلت في ازمنة بعيدة،لكي يمنح الثقة لواحد،وينزعها من آخر . كان ذلك يجري بتواطؤ ضمني،وبلغة يفهمها الطرفان،ثم تصبح مفهومة من قبل الآخرين بعد ذلك. إن مؤامرة مثل هذه تتم بكثير من الدهاء والسرية،وتعتمد على مقدار الاكرامية،او مثل مايقول ابو رحمة،لكي يقوم بهذه المهمة :

–دفّي ايدي يا ابو فلان،وعليك الامان .

يضحك بثقة،مقدراً الكفاءات التي يتمتع بها،ويضيف :

– وحضّر الشوالات،يافلان،حتى تلم الفلوس اللي راح تهيل عليك !

ليس ذلك فقط،كان في بعض الحالات يفرض خوّة لايمكن الهروب منها .

كان يقف في باب احد المتاجر،ويهدر صوته :

– الله يصبحك بالخير يا ابو محمد .

– صباح النور .

– تسببت ولا بعد ؟

- خليها على الله يا ابو رحمة !

- مافي غيره ... هذا ابو الخيمة الزرقا !

- ....

- ابو زكي زوّج ابنه،سوى له عرس مطنطن،فمتى راح تفرحنا بزواج محمد،يا ابو محمد؟

- بس الله يرزقنا،يا ابو رحمة،ولما نلاقي بنت الحلال .

- الله مابيقطع عبده،يا ابو محمد،وبس تتوكل،مافي اكثر من بنات الحلال .

- لاحقين يا ابو رحمة !

- لا .. بدك تقول،لان ثوبي قبل ثوبه،وهذا نذر !

ولانه امّن مبدئياً،الثوب،حتى من خلال الصمت،يصبح هذا الثوب مثل قميص عثمان،إذ لابد ان يذكر،تورية كلما مر،وغالباً ما يحصل على الثوب قبل زواج محمد،ويحصل ايضاً على ثوب آخر،وربما اكثر،حين زواجه !

ولان اعداء ابو رحمة الحقيقيين هم منافسوه في الكار،فكان يعرف كيف يتصرف معهم،وكيف يحرض عليهم . عند الحاج عمر متصوف ومريد :

- جينا نطلب شفاعتك،يا ابو الفقراء،ياحاج !

ولان الحاج عمر لم يسمع،اوتظاهر انه لم يسمع،يتابع ابو رحمة :

- لو الارض خليت من امثالكم،ياحاج،لخربت !

ويأتيه صوت الحاج متلعثماً خجولاً :

- كل الناس خير وبركة،يا ابو رحمة .

- لكن العين لاتعلو على الحاجب ياشيخنا،وياتاج راسنا .

- استغفر الله ... استغفر الله .

- الحق حق،ياحاج،والواحد لازم يعترف به ....

يستريح قليلاً،ثم يضيف مجدّداً :

- بسم الله الرحمن الرحيم : وخلقناكم بعضكم فوق بعض طبقات . صدق الله العظيم !

أما عند الشيخ صالح فإن اللغة تصبح مختلفة تماماً :

- حليت عند صاحبنا،ياشيخ ....

يتطلع اليه الشيخ صالح مستفسراً دون ان يتكلم،فيتابع :

- بدل مرتين او ثلاث في السنة راح يسويها كل جمعة .

- عميّ كلامك اكثر يا اعمى !

- الله يسامحك ياشيخنا ...

وبعد قليل،وبلهجة مكسورة اقرب الى الحزن :

- كانت النصيحة بجمل، اليوم،وعند بعض الناس،صارت النصيحة فضيحة!

- ولك قول وخلصنا !

- صاحبك الحاج عمر،وبعد ما اكل الاخضر واليابس من ورا شوربته،راح يسويها كل جمعة !

يذهل الشيخ صالح . ترفرف اجفانه وكأن فلفلاً دخل في عينيه،فيصرخ :

- يعزم الناس على الشوربة الماسخة ؟

- اي نعم ياسيدي !

- وكل جمعة ؟

- اي نعم ياسيدي !

- ومين غير الكلاب تلّق من هذي المي المصبوغة ؟

- عاجبة الناس،ياسيدي ....

وبعد قليل :

- وهذي مصيدة .

- عاجبهم العجب والصيام في رجب ؟

ولايترك ابا رحمة لكي يجيب يتابع بحدة :

– ولك،يا اعـمـى القلب والعـيـون بعـدك قـاعـد ؟ ياالله اطلع،دب الصوت،افضحه،العن سنسفيل اجداده !

– رجلي على رجلك،ياشيخنا !

ويخرج الشيخ صالح بهياج،أما ابو رحمة،بعد ان اوصل الرسالة،فإنه ينسل مبتعداً،لكي تبدأ معركة جديدة بين الشيخ صالح ومريدي الحاج عمر !

ولان ابا رحمة منادٍ قبل ان يكون متسولاً،او هكذا يقدم نفسه،فقد كان في احيان معينة يملأ عمان بدوّي صوته سائلاً الناس ما إذا رأوا ولداً ضائعاً او بغلاً ضالاً او حاجات اخرى فقدت . كان نداؤه من حيث ارتفاع الصوت،او عدد المرات،يتناسب مع الاكرامية المخصصة له،اكثر مما يتعلق بقيمة الشيء الضائع . ولكي يضمن مقابلاً مجزياً كان يشترط ان يتلقى نصفه مقدماً،وكل المحاولات التي تبذل معه لتأخير تلقي المقابل،إلى حين العثور على الشيء الضائع،كان يرفضها،كان يقول بسخرية إذا طلب منه ذلك:

– الغالي ضايع،والقلب والع على كم قرش من وسخ الدنيا ؟

يستريح قليلاً ليرى رد الفعل،يهز رأسه وهو يبتسم،ثم يضيف :

– مافي اكثر من اولاد الحلال بالبلد،بس بدهم واحد يسألهم،يخبّرهم : مين ضيع ومين لقي.

وبعد ان يتلقى ما يطلب يهدر صوته :

– " ياسامعين الصوت صلوا على النبي

اولكم محمد وآخركم علي

يا من حسّ،يا من شاف،يا من لقي ...."

فإذا وجد الشيء الضائع لايكتفي ابو رحمة بما تم الاتفاق عليه،كان يطلب المزيد. يطرح المطالبة اول الامر مازحاً،لكنه يعنيها من خلال إظهار الجهد الذي بذله،وايضاً ما اصاب صوته من تلف. وفي مجال الضغط يغير نبرة صوته مع سعال،وهو يقول :

– صحيح،يا جماعة الخير،ان المال الحلال لايضيع،لكن بدّك من يبلغ الرسالة

ويحشرج صوته وهو يضيف :

– وهالصوت حتى يرجع مثل ماكان بده مافتح ورزق !

قال من يعرف ابا رحمة معرفة جيدة ان الرجل حين احس بقرب الوفاة ابلغ عن اموال كان قد خبأها في اكثر من مكان،وأكد الذي يروي ان الاموال التي عثر عليها كانت كثيرة ومتنوعة،ورفض ان يعطي رقماً،لان " المجالس بالامانات "،كما قال،وابتسم .

وإذا كان لابد لهذا الحديث ان ينتهي،وقد طال،وحول هامش جانبي من حياة عمان،فيجب ان نعرف كيف انتهى الشيخ صالح :

هجر أولاً مهنة حذو الحمير،المهنة التي كان يعتاش منها .

وحين جاء رمضان حمل طبله،كما كان يفعل في السنين السابقة،وبدأ يوقظ النيام للسحور،لكنه في لحظة معينة،وقبل الخامس عشر من الشهر قرر ان يتوقف!

قال للذين ذكروا انه لم يسمعوا طبله في الليالي السابقة :

– من يريد الصيام لايحتاج الى طبل،لان المؤمن لايجر الى الجنة بالسلاسل

ولما الحوا عليه،رد بسخرية :

– ... وعمان سمعها خفيف وطبل الحاج عمر يكفي ويزيد .

وحين نظروا اليه مستغربين اضاف بحزن :

– خلوني بهمي يا جماعة،وحلوا عني .

ولما الحوا عليه اكثر،انفعل،اخرج الطبل ودفره برجله فإنبعط،وفرك يديه بفرح وهو يقول :

– عجبكم ؟ كسرنا الطبل وبطلنا الرقص .

وهبط الشيخ الى الظل بهدوء وسلام .

يروي محمد المصري،الذي يغسل الموتى في الجامع الحسيني،ان الشيخ صالح زاره قبل وفاته بيوم وقال له :

" حضر حالك "

وفي اليوم التالي توفي الشيخ صالح وغسّله محمد المصري،وبعد ان صُلّيّ عليه في المسجد حاولوا رفع التابوت فلم يرتفع،التصق بالارض ! هكذا اكد محمد المصري .

......وبعد

كان عقد الاربعينات،في عمان،طويلاً،ثقيلاً،صعباً .

بدأ العقد في ظل الحرب العالمية الثانية،وانتهى في ظل الحرب العربية – الاسرائيلية الاولى.

خلال الحربين،ومابينهما،عانى الناس الكثير : خيم الحزن وطال الانتظار،اما الفرح فكان قليلاً وعابراً .

كبر الصغار في هذا العقد قبل الاوان،وفي غفلة من الزمن،اما المسنون فقد هرموا اسرع مما يحصل في الاماكن الاخرى،او في ازمنة مختلفة .

الجدة التي افترضت ان اقامتها في عمان لن تمتد كل هذي السنين امتدت وطالت اكثر مما قدرت واكثر مما تحتمل .

حين جاء اقاربها الذين كانوا ضمن القوات العراقية لوداعها عائدين الى بغداد،قالت بتوسل :

– يابا اسماعيل،ابو حقي،وانت،عيني،علي،اقدر اسافر وياكم ؟

وبعد قليل وكأنها تخاطب نفسها :

– ماعاد بي حيل .

خيم الصمت،إذ لايعرف كيف يُجاب عن هذا السؤال . قالت بنوع من العتاب :

– اشو ماكو احد منكم قال فدّ كلمة،شنو ماتريدوني ؟

قال القريبان اشياء كثيرة . قالا انهم يريدونها،وأنهم افتقدوها كثيراً خلال الفترة الماضية،ويودون ان تكون من جديد في بغداد .

بعد فترة جديدة من الصمت،وكانت الجدة تهز رأسها،قال اسماعيل موضحاً ومعتذراً :

– علواه،بيبي،نقدر ناخذك ويانا،بس احنا عسكر .

وسافر العسكر .

تغيرت الجدة،غرقت بالتفكير والحزن،وامتلأت بالانتظار .

مرت سنة،ومرت سنة ثانية،وكادت تمر الثالثة .

ذات يوم،اوائل الصيف،جاء احد الاقارب يريد السفر الى بغداد . ماكادت الجدة تسمع هذه الكلمة،حتى اتخذت قرارها :

– اسافر وياك ابو ابراهيم .

وإذا كانت العادة ان تُناقش الجدة في قراراتها،فقد بدت هذه المرة غير مستعدة لاية مناقشة،ولن توافق على اي تغيير .

في اليوم الاخير قبل السفر،وخلافاً لسفرات الجدة السابقة،استيقظت مبكرة،وبدات سلسلة من الزيارات . زارت معظم بيوت الحي،حتى الذين لم تدخل بيوتهم من قبل،دقت ابوابهم،وقالت وهي تبرر ماتفعل :

– يابا نحن جوارين ....

وتمسح طرفي فمها بالابهام والسبابة،وتتابع :

– عيني عطشت،وقلت لروحي ادق بابكم،واطلب ميّ .

وبعد ان يرحب بها وتشرب،وإذا سُئلت عن نوع القهوة التي تفضلها،تعتذر وتتابع :

– قلبي يرفرف إذا شربت القهوة،عيني،وبعد ما شربت مأي،كل شي ما اريد! تستريح قليلاً،وتضيف بصوت مختلف :

– عيني نحن جوارين،وآني مسافرة لبغداد،فأريد اقولكم : في امان الله !

بهذه الطريقة ودعت الجدة الاهل والمعارف وسكان الحي،وطلبت من الجميع ان يتذكروها بالخير.

قالت للحفيد وهي تركب السيارة المتجهة الى بغداد :

- إذا خلصت،عيني،تعال لبغداد ولاتدير بال،آني هناك .

وسافرت .

في نهاية الصيف سافر الحفيد،بعد ان انتهى من دراسته الثانوية .

كانت فرحة الجدة بوصوله لاتصدق . بكت،ضحكت،زغردت،قرأت على رأسه بعض الادعية،سألته عن كل شيء . أما حين عرفت انه اتفق مع احد زملائه على السكن في دار البعثات العربية،فقد اعترضت وشتمت ورفضت،وحين ذكر لها انه لا يستطيع ان يخل بالوعد الذي اعطاه لزميله بالسكن معاً،ردت :

- تعال انت وياه،وخذوا القبة اللي فوق .

ولم تترك وسيلة لكي تقنعه،فقال في محاولة لان يلتف على الامر :

- اواعدك ان آجي كل يوم خميس وابات هنا،بيبي !

قررت ان توافق مبدئياً،إذكانت على ثقة انها ستقنعه في اول خميس بالانتقال.

جاء في الاسبوع الاول،ووعدها ان يهيّ ء نفسه للانتقال في الخميس التالي

يوم الاربعاء جاءه الى دار البعثات احد الاقارب،وبطريقة باردة،اقرب الى الحياد،ابلغه أن الجدة ماتت في الليلة الفائتة،وانه سيجري دفنها ظهر ذلك اليوم !

كان المشيعون قليلين،لايتجاوزون العشرة . وبتواضع،وفي جو من الادعية المتفرقة،وقد تخللها صمت،دفنت الجدة في مقبرة الشيخ معروف .

قال احد الاقرباء للحفيد،وهم يتحركون،وكانت اللهجة لاتخلو من مباهاة :

- هذي القبور ...

واشار الى عدد من القبور المجاورة :

- قرايبنا ... هذي بنت خال بيبي،وهذا اخوها كريّم،وهذا اخوها رحيّم،وهذا قبر خالك هوبي،وهذا ....

وخرج الحفيد من المقبرة الى دوي المدينة،خرج الى بغداد القاسية والحنونة،ليبدأ مشواراً جديداً في هذي الحياة !

فهرست الأعلام

«سيرة مدينة»

ملحــق الصــور

* تمت الإستعانة بأرشيف صور السيد ارسلان رمضان جزئياً وكذلك مديرية المكتبات والوثائق الوطنية



الدكتور الطلياني تيزيو



شارع تجاري



فيضان عمّان



فرسان حرس الشرف الشراكسة

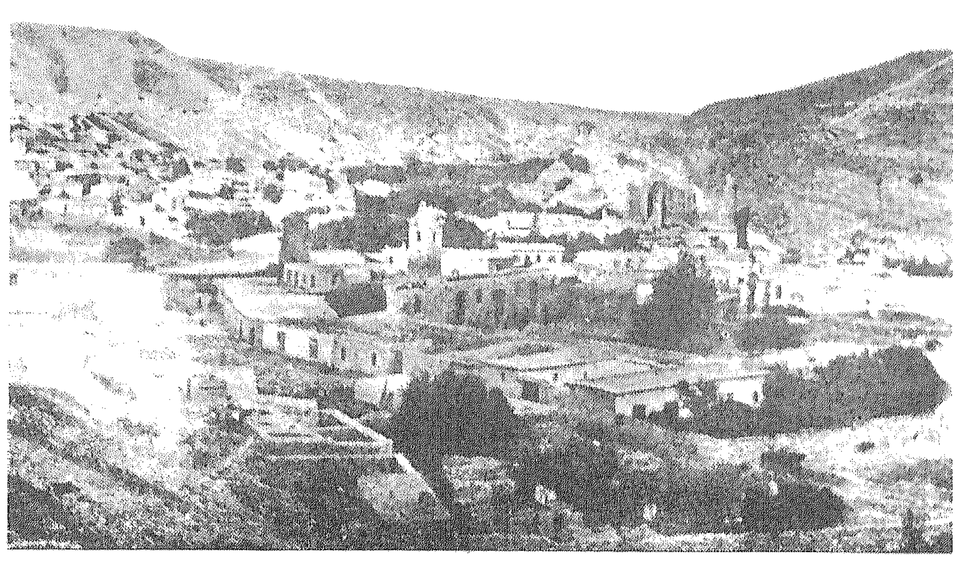


عربة الشركس

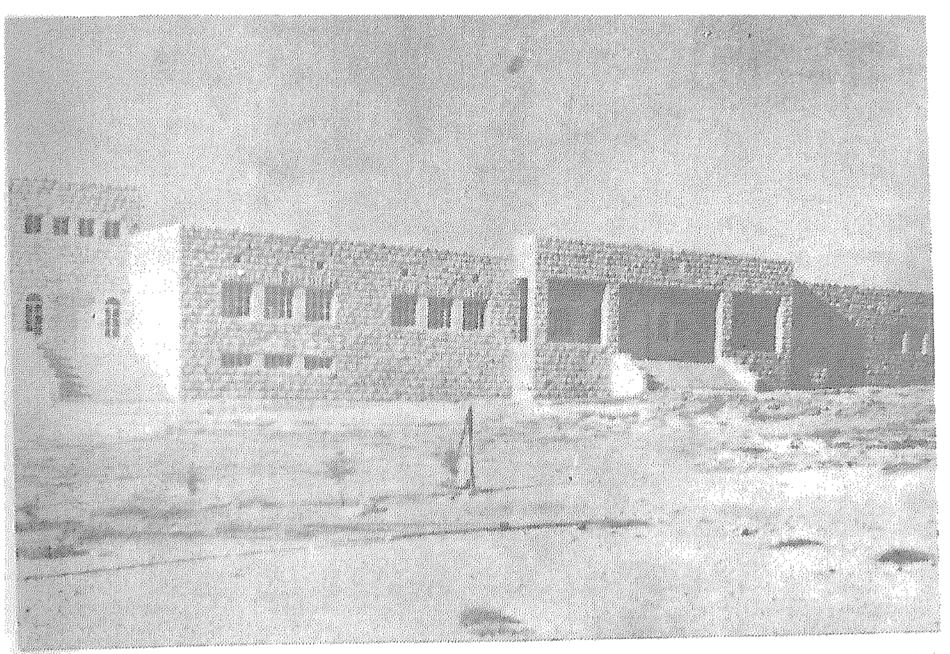
مبنى الصحية



القطار بين عمّان والزرقاء



منظر لعمّان

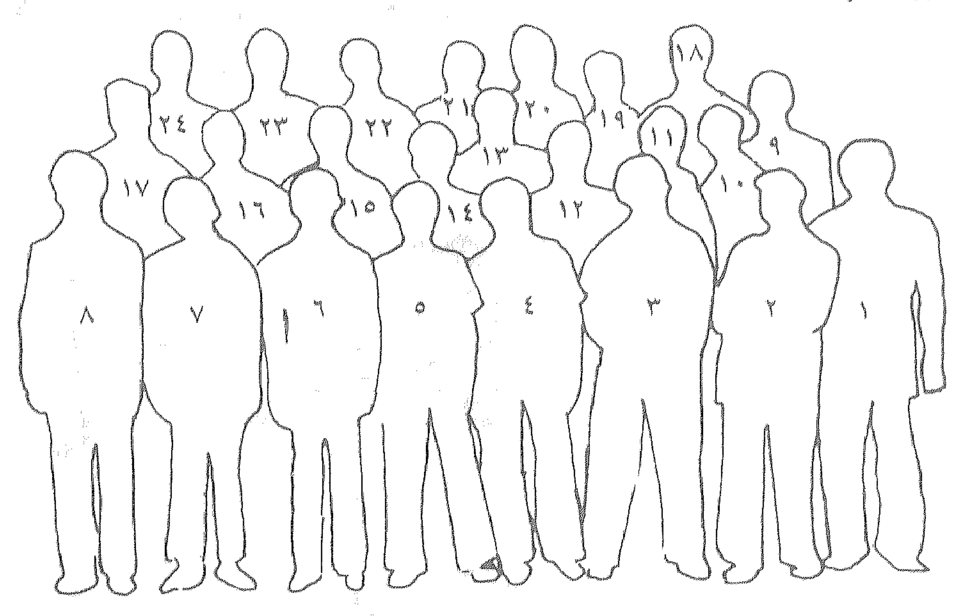


الكلية الاسلامية قبل إشادة السور وتسوية الأرض

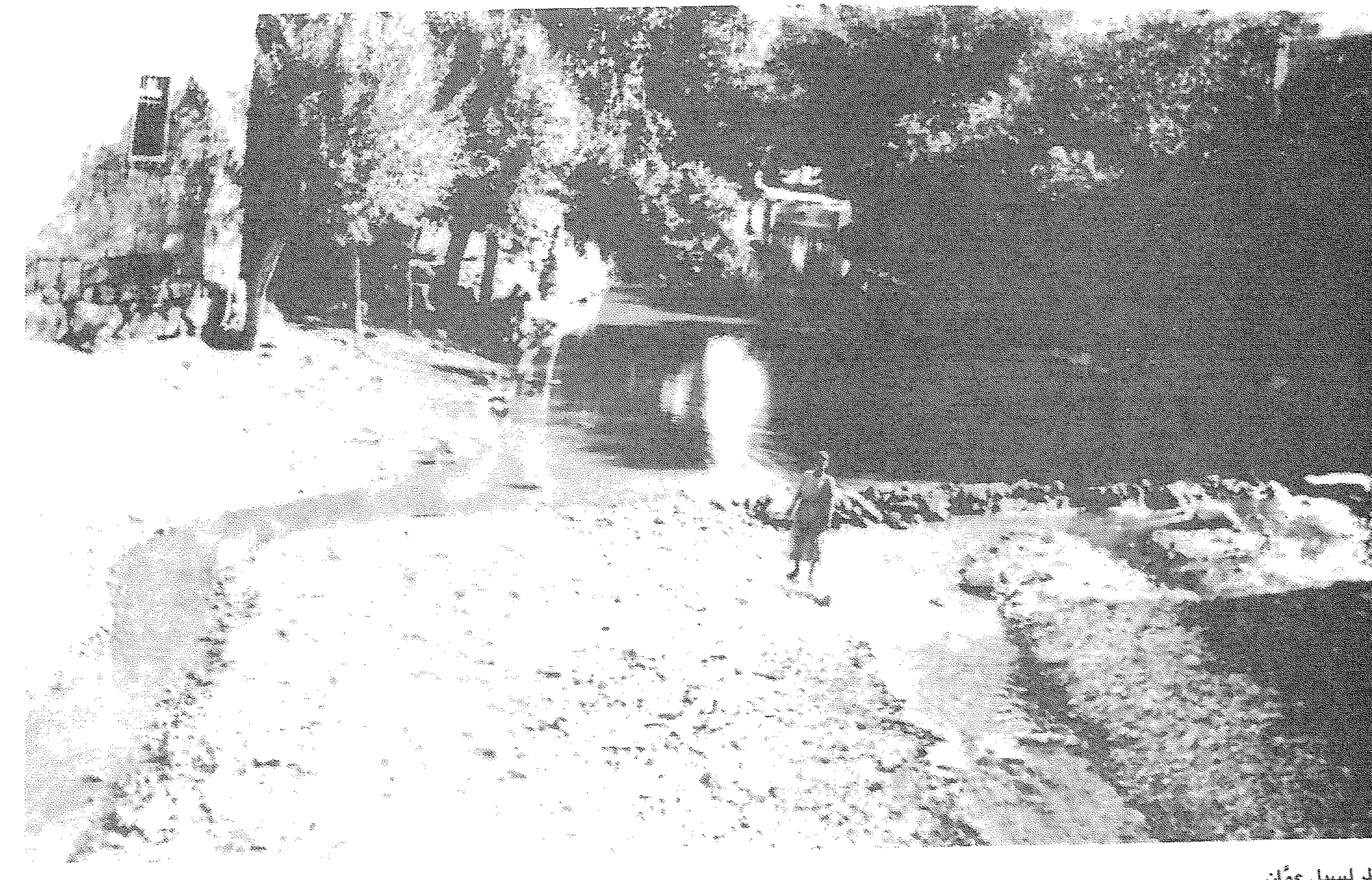
منظر من حي المهاجرين.



صورة الطلبة :



١ ــ سامي السعيد، ٢ ــ حسين كريشان، ٣ ــ فؤاد المفتي، ٤ ــ محمد فيومي، ٥ ــ سميح خرما،
٦ ــ فريدون حربي، ٧ ــ هشام عز الدين، ٨ ــ عبد المجيد أبو قورة،
٩ ــ عصام خورشيد، ١٠ ــ نديم (..)، ١١ ــ زهير عوض، ١٢ ــ (...)، ١٣ ــ عز الدين الطبل،
١٤ ــ جمال (...)، ١٥ ــ محمد بلقز، ١٦ ــ محمد الناصر، ١٧ ــ نبيه عماري،
١٨ ــ صموئيل حداد، ١٩ ــ عبد الرحمن منكو، ٢٠ ــ نبيل ملحس، ٢١ ــ مهدي ابو الذهب،
٢٢ ــ عبد الرحمن منيف، ٢٣ ــ فريح شحاتيت، ٢٤ ــ محمد أحمد محمود



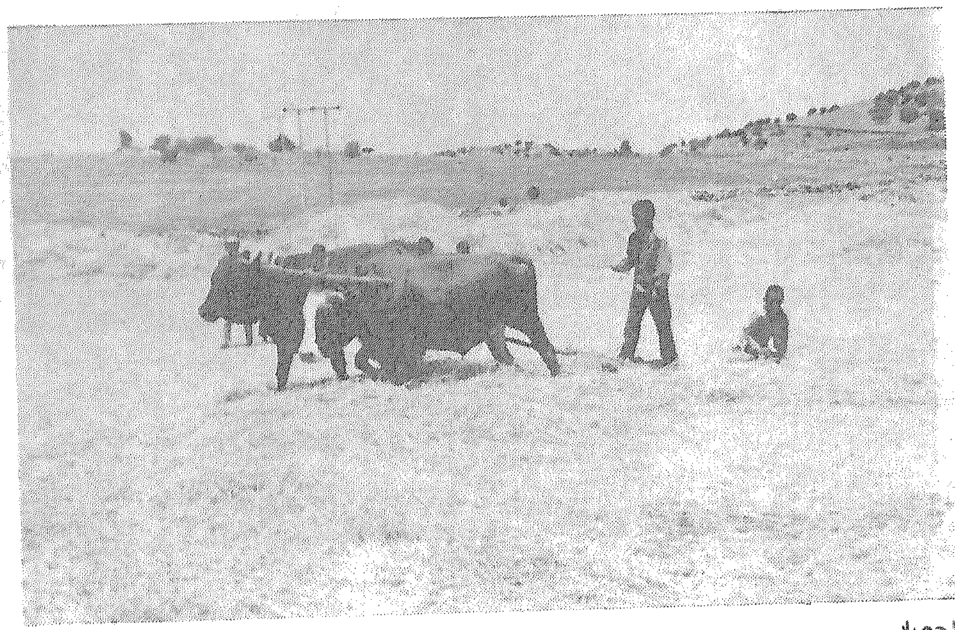
منظر لسيل عمّان



الطوفان في عمّان

المدرج الروماني

السيـل



الحصاد

لا ريب في أن عمان مدينة محظوظة إذ أتيح لها قلم مثل قلم الروائي الكبير عبد الرحمن منيف، إذ هو يتميز بذاكرة غير متحيزة لا تنسى شيئاً من تفاصيل أية ظاهرة لابستها، فمن شاء أن يلمّ بشيء عن حياة عمان الاجتماعية حينئذ، بشيء من تاريخ الطب والاطباء ونظام الكتاتيب والمدارس الحديثة والازياء، ونشأة فرق كرة القدم، وما فعله السيل بعمّان سنة ١٩٤٣، وعودة الحياة إلى طبيعتها إثر توقف المطر وبداية صحوة الطبيعة في الربيع، بأشياء أخرى كثيرة، وجد هذا الكتاب مصدراً مهماً لكل ذلك وغيره.

شخصية الجدة في الكتاب رئيسية ومهمة لانها بحكم تجربتها وحكاياتها وتعليقاتها تكمل بعض ما كان ينقص «الصغير» في تلك الأيام. وقد رسمت بمحبة وتقدير، لا يستطيع شخص أن يضع هذا الكتاب جانباً قبل أن يبلغ آخر فقرة فيه إنه على استرساله مليء بالتحولات والكشوف والصور المرسومة بحنكة روائي متمرس.

الدكتور احسان عباس

* * *

«سيرة مدينة، عمّان في الاربعينات» تفوق في تأثيرها السجل التاريخي الذي يتوقف عند مجرد رصد الاحداث وملاحظتها وتسجيلها، لانها صوت ينفذ إلى داخل الحدث، ليحرره من سجن التاريخ وقيود سجلاته، وهي سيرة الامس والحاضر والمستقبل، سيرة تتحدى الاقليمية وواضعي حدودها، سيرة تحفظ للاجيال صورة عمّان وهي تتحول من بلدة بسيطة وادعة فيها كل مقومات الريف والبداوة إلى مدينة اتسعت جبالها وتلالها وسهولها حديثاً لاكثر مما اتسع مسرحها الروماني في القديم.

الدكتور محمد شا[illegible]

* * *

قد يدهش القارئ العربي العادي حين يقرأ «عمل» عبد الرحمن منيف عن عمّان، وقد تث[illegible] الط[illegible] الحميمة، وقد يتساءل:

ترى ما الذي دفع روائياً كبيراً مثل «منيف» العربي النج[illegible] إلى الكتابة عن عمّان. الجواب بسيط جداً ومركب [illegible] عمّان مدينة العرب [illegible] وحيدة، فلا [illegible] من لجأ إلى عمّان أن يزعم أنه «عماني» وأن اللائذ بعده بعمّان غريب أو طارئ.

مؤنس الرزاز

«[illegible] يكتب الروائي سيرة مدينة تجربة ربما لم يعرفها، بعد، أدبنا العربي الحديث. عبد الرحمن منيف يروي [illegible] الرواية سيرة مدينة [illegible] في عمان خلال فترة زمنية معينة هي الاربعينات - سيرة مدينة عاش الروائي [illegible] فترات تناميها وتحولاتها [illegible] البيوت والشوارع والاسماء [illegible] تجمعات البشر [illegible] والناس والزمن...»

(عدد الطريق - مارس ١٩٩٤)



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ: ٨٠٧٩٠٠/٨
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧
الغلاف: زهير أبو شايب

تصوير: رمزي
معالجة الصور: هراير سركيسيان
تصميم الغلاف: ياسر منيف